
ضياع في سوهو
مكتبة بغداد
كولن ولسون
دار الآداب

الطبعة الرابعة

بيروت ، أيار (مايو) ١٩٧٩

كولن ولسون

ضياع في سوهو

نقلها إلى العربية
يوسف شرورو وعمر يمق

منشورات دار الآداب - بيروت



كولــن ويلسون عــن قرب

مدخل الى عالم المؤلف

بدأ يتساءل في عالم ضبابي « من أنا ؟ » « وماذا سأفعل ؟ » « ولمَ جئت إلى الحياة ؟ » ولم يلتقط عقله اجوبة منطقية ، والحياة العــادية ، وساعات العمل اليدوي ، ووجوه الرفاق من العمال ترافق عينيه كل يوم ، ولا جديد ..

هل ستمضي الحياة دون أن يتفجّر من داخلها شيء ؟ وجه الأم ترتسم عليه علامات حــيرة : ماذا عن ولدي ؟ انه يعيش منزوياً في غرفته يقرأ الكتب الفلسفية التي لا تفهمها ، ويستمع إلى مقطوعات موسيقية كلاسيكية ، ويذهب إلى عمله حيث يحفر الأرض ليزرع فيها أسلاك التليفونات الجديدة في بلدته .

واقتنع هاري « كولن ويلسون » بان الحياة ستمضي دون جديد ، وعليه أن يفتح فجوة حتى ولو كانت صغيرة في جــدار سجنه الرتيب ويمرق منها كقطعة صغيرة ، باحثاً عن شيء جديد يحياه بعمق وبلون وبحركة .

وذات يوم قذف بنفسه نحو بحيرة التكشّف البشري ، علّه يغوص هنــاك وينــال شيئاً يحتضنه باعتزاز قرب قلبه ، فقد باتت له حياته الماضية كئيبة حالكة كقبر مهجور لن يدفن فيه أحــد . وجلس وحيداً بملابسه العمالية في قطار صباحي كتب على مقدمته اسم لندن ، المدينة العملاقة المخيفة التي تفترس وتشوّه وتخلق وتصنع بآن واحد .

وكانت تدور في عقله فكرة صغيرة :

« انا أحيا الحياة بلا الوان الايام . يوم واحد لا شيء ينصبّ فيها او ينبع منها . ان تتحرك ولو حركة بسيطة إلى الخلف ، أن تدير رأسك نحو مكان بعيد او قريب ، أن تتأمل شجرة منغرسة في شارع ، ان تفكر في اضافة اشياء مبهمة لا تعرفها أنت ، لأفضل من أن تظل ساكنا كحجر كبير يرتكز على قاعدته تمثال .

« التدفق يعني الاستمرار . أنا لا مستمر . ألمس الاشياء دون أن تلسعني حرارتها ، أرى بعينين بشريتين ، ولا تمييز للأشياء الدقيقة . اريد أن أحيا الحياة من جديد ، وبشكل جديد لا جدران تتطاول أمامي . »

ووصل الشاب المزدحم عقله بالكتب والموسيقى والأفكار المثالية التي تعوم دون عمق في حياته ، فوجد نفسه فجأة في لندن وهو الذي لم يترك بلدته الصغيرة في المقاطعات الوسطى من انكلترا . وكانت العاصمة تموج بملايين الوجوه المختلفة والمتشابهة أيضاً . ولم يكن يدري كيف يحرّك قدمه ليخطىء الخطوة الاولى نحو الاشياء الغامضة .

قد ينغمس في مغامرة جريئة تضعه في صفوف المغامرين ، وقد يعبّ من ثقافة دسمة يضيفها إلى ثقافته التي حسب انها ضحلة ، وقد تمتد نحوه يد صديقة ومعجبة وتقوده إلى دروب وعرة يسمع فيها حركات قلمه على صفحات من الورق ، يريد ان يكتب عن تجربة البحث عن حرية تنبعث من أعماق النفس بلا زخرفة وبلا تعقيد وبلا التزام .

وخاف من خطواته على الضياع على أرصفة لندن المعبّأة بالأقدام ، المتحركة كحركة آلات صلدة ، لا وجه يعرفه ، لا انسان يتحدث معه .

وضاق بالوحدة . وتنقل من مكان إلى مكان حيث الوجوه كثيفة كغابة لم تمتد إليها يد . والتقى بجيمس المعلم الأكبر .

كان جيمس شخصية جذابة ، وكان مترعاً بالتجارب المتنوعة ، وواثقاً من نفسه ، يحب الناس ولا يحبهم أيضاً ، يؤمن بالحرية الطليقة ، بالعيش من يوم

ليوم ، أو بالاصح من وجبة طعام الى اخرى . وأخـــذ جيمس يلـّقن هاري – كولن ويلسون– دروساً زاهية اعجب بها كولن وشدته بصدق نحو جيمس، القامة المسرحية الرائعة ، كما وصفها كولن ويلسون وهو يعرفني به .

وجيمس شخصية واقعية تعوم على أرصفة سوهو بـــلا هدف . ولم اصدق كولن في بداية الأمر بأن شخصية جيمس حقيقية تعيش معنا في لندن ، دون أن تلعب بها الكلمات الكثيرة المندفعة من أفواه تتحرق شفاهها بلا توقف ، الا عندما رأيته وصافحته ، وعلمت ان اسمه الحقيقي « تشارلز » .

وقد وضعه كولن في روايته التي اهداها اليه ، كشخصية غـير مزخرفة ، يعيش حياته دون تعقيد ويصرف آخر « بنس » في جيبه على أصدقائه .

وتعرف هاري بـ « دورين » الفتاة التي لمحت من احاديث كولن الخاصة الي، أنها زوجته التي أنجبت له ابنته سالي . فقد أخـــذه جيمس يوماً الى بيت كبير تحتله وجوه عديدة شابة تعيش الحياة بشكل بدائي كما كان يعيش الإنسان الأول، وبهرته حيـــاة الناس اللامبهرجة وذهب ليزداد التصاقاً بحريته التي التقطها في لندن . ومرة قال لي كولن :

– احببت الحياة في ذلك البيت ، وقـــد تعرفت على جوي – زوجته – التي كانت مخطوبة في ذلـك الوقت لإنسان غيري ، وتزوجتها وعشنا معاً لمدة طويلة مع احياء بيت « ناتنغ هل » .

اولع هاري ـ كولن – بحياة التشرد والتسكع اللامرتبطة بشيء ، ومقت العمل ، وتهرب من مسؤوليته كانسان عامل ، يريد ان يحب الحيـــاة بطريقة مبتكرة ، واختزن في عقله كل شخصيات سوهـــو المهزوزة وغير المهزوزة ، وانجرف مع بعضها ليعب من الخمرة وليدخن الحشيش مقلداً « الدوس هكسلي » كما قال لي .

وانفق نقوده على زجاجات النبيذ الغاليـــة والرخيصة حتى تخصص فيها ، وعرف نقاوة كل زجاجة اذا رشف أو كرع منها ، وفي ليلة اخـذني كولن إلى حانة صغيرة ضيقة في « ناتنغ هـل » تختصُّ بالانبـــذة ، وقالت لي المرأة التي

تخدم هناك :

– كولن مولع بالنبيذ ، وشهير في شربه ، وقبـــل ان اعقد صفقة شراء ، اطلب منه ان يتذوق جرعات من زجاجـــة ، وبعدهـــا اقرر الشراء أو عدم الشراء .

ان حياة التسكع على ارصفة سوهو ، قد زودته بمعرفة يعتز بها ، فهو يعرف الازقة المسدودة وغير المسدودة والاطعمة والمطاعم ، على ان تكون رخيصة . وندرة نقوده قادته الى المتحف البريطاني حيث كان يقتات الكتب كفأر صغير يريد ان يكون كبيراً ، وقرأ وقرأ وفكر ، ثم بدأ يكتب .

واخرجت المطابع «اللامنتمي» ثم أعقبه برواية « طقوس في الظلام » وجاء كتابه الثاني الذي ترجم الى العربية بعنوان « سقوط الحضارة »،ولكنه لم يكتب شيئاً عـــن حياة التشرد التي عاشها في لندن . لم يخـــط الأشياء الحقيقية التي امتصّها بكل صدق، وبدأ يفكر في رواية جديدة يلقي في سطورها، بالسطور الحقيقية التي عاشها كباحث عن حرية آمن بها . ثم وجدهـــا ، ثم ... لا أدري ماذا فعل بها !!

وقد قال رأيه في الحرية التي يعيشها جيمس بكل صـــدق وجرأة . « انا أرفضها » ورفضته ايضاً، وأصبح كولن شهيراً تعرفـــه أوساط لندن وتحسب عليه حركاته ، وتضخـّم رصيده المالي في البنك ، واشترى مجموعـــة كبيرة من الكتب ، ومن الاسطوانات الموسيقية وركض حتى سكن في بيت بعيد منعزل في آخر نقطة من انكلترا، وعاش هناك ليقرأ ويكتب ويشرب النبيذ ، ويستمع الى الموسيقى .

وكتب رواية « ضياع في سوهو » التي وضع فيها رأيه بكل صراحة عـن الناس الذين يمثلون أنهـــم يعيشون حريتهم ، والتي هي زائفـــة لا نطلق عليها حرية .

وقعد المتسكع في بيت يشبه قلعة حديثة تطاولت على تلة خضراء ، يحرس قلعته كلب ضخم قدّمه هدية لابنته سالي في عيد ميلادها الثالث ، ليكتب عن

التشرد الفكري الذي يمضغ العقل الانساني ويرعبه . وأصبح برجوازياً كبيراً يرسل بطاقات بريد قصيرة لأصدقائه في لنـدن ، يخبرهم فيها عن موعد قدومه الى لندن .

وأمامي الآن بطاقة قصيرة يقول فيها :

« عزيزي يوسف ، سأزور لندن يوم الخميس القادم ، وسأتصل بك هاتفياً ، قد نتناول طعام العشاء معاً ونتحدث عن الوجودية الجديدة » .

كولن

ودعانا البرجوازي الى حفلة عشاء ، وكنا أكثر من عشرة أشخاص ، كنت أجلس بقربه اتحدث معه عن كتابه الجديــد الذي لم ينته من كتابته ، والذي يتابع فيه « اللامنتمي » وقد أطلق عليه عنواناً جديداً « بُعيد اللامنتمي » .

وفجأة ابتسم ورفع قدح نبيذه المعتق وقال بحرارة وصدق :

– نخب العالم العربي بأناسه الرائعين ، الذين يقرأون كولن ويلسون ويحبونه.

وشربنـا النخب ، وأحضر الجرسون الطعام الايطالي المفضل لدى كولن بعد « الكباب » .

قلت له ونحن نـأكل : نخب الذي توقف عن البحث وراء حريته ، نخب الانسان الذي يكتب ويكتب وهو معتزل في قلعته الشامخة في «جورن هيفن». نخب البرجوازي !

واجاب بجدة : انا لست برجوازياً ما دمت ابحث عن الحـ حريـة هي المسؤولية تجاه الناس الذين يقرأون كتبي الجديدة ، تجاه زوجتي وابنتي ، الحرية ليست تسكعاً وسرحاناً ، انا اكتب الآن عن الحرية العقلية وستجدها في كتابي « بعيد اللامنتمي » الذي اتحدث فيه عن أفكاري الجديدة . أنا أخاف ان أوصم بهذا اللقب : « برجوازي » ارجوك ان لا تذكره مرة ثانية .

وابتسمت له ، واقترب مني وهمس :

– أنا أعرف لم قلت هـذا ، انت تنتقد رواية « رجل بلا ظل » التي اسرد

فيها مذكرات « جـيرالد سورم » والتي كتبتها لأن ناشراً اميركياً دفع فيها مبلغاً كبيراً .

وسافر كولن في اليوم التالي .

ثم أخرجت المطابع رواية جديدة رائعة اسمها « الشك الضروري » ارسلها مع رسالة قصيرة يقول فيها « لن اقرأ نقدها في الصحف ، فالنقد يفعمني بمرض خبيث ، ارجو ان تقول رأيك فيها » وكانت رائعة ، وانا أعمل في ترجمتها الآن مع عمر يمق الذي يقدم الدكتوراه في جامعة لندن .

عندما اطلت رواية « ضياع في سوهو » بغلافها الأصفر من واجهات المكتبات بدأ الناس هنا يشترونها ويلهثون خلف شخصياتها ، وقد كتب الناقد الادبي لمجلة « الصندي تايمز » :

« كنت ألهث وانا اقرأ رواية كولن ويلسون « ضياع في سوهو » ، وكنت اسمع بأذني تنفس أبطاله كأنهم يعيشون معي في غرفة واحدة ، انه عمل رائع .».

من الدقيقة الأولى التي تبدأ فيها قراءة الرواية ، تشعر بالضياع ، تذهل ، تجذب حتى تنتهي منها ، لتجد نفسك من جديد .

الشخصيات الكرتونية ، الممثلون العاطلون عن العمل ، صاحبات البيوت القاسيات .

الشراشف القذرة الممزقة ، كل هذه تراها وتشم رائحتها في رواية « كولن ويلسن .».

وكتب ناقد آخر : « رائعة ، عمل ناجح ، لن يتسرب اليك الشك بأنها شيء حقيقي .»

واذكر الآن كلمات قالها كولن ويلسون لي :

« عمل الانسان الخلاق أن يوسع مدى التجارب الإنساني ، ويعلم الرجال كيفية الاستفادة من عقله وخياله ، والخيال كما اؤمن به ، هو القابلية المنفتحة التي تجعلك تحسّ بأن الأشياء الحاضرة في هذه اللحظة غير موجودة امام

عينيك ، وانا أرى الرجال العظام في هذا القرن مثل الآلات المزقة للصخور ، كلهم يحاولون ان يمزقوا العمق العقلي الجديد في الانسان . »

الرواية بين يديك الآن ، وكولن ويلسون يجري أمـام عيوننا على الورق ، فهل هو أحد الذي يوسعون مدى التجارب الانسانية ويلقونها كلمات حية تعج بالحياة على الورق ؟

أم هو احد الرجال – الآلات المزقة للصخور– الذين يحاولون تمزيق العقل الانساني بكتبهم ؟

انا اؤمن بأنه واحد من الذين أمدوا مكتبة الأدب بكتب جيـدة واعية ، فيها جهد وتعب ومعرفة ! لم تقعده الشهرة والثروة عـن البحث المتواصـل القائم على طلب الثقافة اللامزيفة ، والآن اتساءل انا ، هـل وجد كولن ويلسون نفسه ؟

هل عرف ماذا سيفعل ، هل علم لمَ جاء الى هذه الحياة ؟؟

انني أؤمن بأنه وجد الأجوبة الصحيحة على اسئلته السابقة .

لندن يوسف شرورو


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مقدمـــة المؤلـــف

اسمي هاري بريستون، ُطردت من سلاح الطيران الملكي، و ُمنحت ـ لسبب من الأسباب نسيته الآن ـ مكافأة مالية كبيرة . وكانوا فرحين لتخلصهم مني ، ومن رؤية وجهي بينهم. مرة ثانية تلتمع الحياة المدنية في عيني، مرة ثانية اعيش في حرية طليقة ، مزوداً بمبلغ من المال لم امتلك مثله في حياتي كلها . العالم ينشد لي ، يفتح ذراعيه وأبوابه ، ويتركها بانتظاري ، سأدفع لأمي تكاليف معيشتي عندها ، اعتادت ان تأخذ جنيهين اسبوعياً ، وذات يوم وضعت في يدها نقوداً كثيرة تكفي لعيشتي معها خمسة شهور كاملة .

سأنطلق لأعمـــالي الخاصة ، سأكتب مسرحية رائعة ، أو رواية ضخمة ، سأتمكن من ترويض نفسي على نظام صارم كالمؤلفين الكبار . سأتخذ من المكتبة العامة بيتاً ، قـــد أكتب لست ساعـات متواصلات دون تعب ، وسأتناول السندويشات الخفيفة ، وسأسير في شوارع بلدتنا الصغيرة خـــلال زيارة الظلام لهـــا . سأتطلع ببهجة عميقة الى أضواء النيون الملونة المشعة في واجهـات المحلات ، وفي المصانع ، وتهدر في أذني ضجة الآلات الضخمة ، وأشم رائحـة الجـلود والزيوت المعدنية ، والخشب المصبوغ . ففي هـــذه اللحظات يتذوق الإنسان الطبيعة الخفية ، والحرية البعيدة البعيدة ، اذ تبرز له لوهلة بسيطة، بأنها

محصورة بين عالمين لا رابط بينهما . لماذا إذن ، ان لم يكن ذلك صحيحاً، يتجمع الناس بعيون مبهورة ، أمام المباني القديمة عند هدمها ؟ في ذواتهم تتدفق لذة الشعور بالحرية ، والقدرة الكاملة على التدمير . انا لم أستطع استغلال طاقاتي ، فقد مكثت يومين في المكتبة العامة ، وشعرت بملل قاس ينهشني ، واستعصت علي بداية مسرحيتي النائمة في عقلي ، فلم أكتب شيئاً . جلست هناك محاطاً بضجيج الاوراق وتقليب الصفحات ، وطرقات الاحذية الثقيلة ، ورائحة الجلود والاصبغة . وفكرت . فكرت طويلاً في الامكانيات اللانهائية التي تحتويها الورقة البيضاء الراقدة بخشوع أمامي . ثم عدت الى قراءة عدة صفحات من كتاب « ميجر باربره » لبرناردشو ، معجباً ومشدوها بدقته وعظمته ، وتساءلت بصمت : كيف يمكن لكاتب ما أن يتمتع بهذه الدقة في جو من الحرية الموحشة ؟؟

عطست العجوز المعروقة الجالسة أمامي ، وغمغمت ومسحت أنفها بمنديل. كانت عيناي تنظران بشبق الى الموظفة الشابة المنتصبة خلف مكتب الاستعلامات ، كم وددت لو أحصل عليها بالرغم من افتقارها الشديد الى الجمال . أنا أعرفها معرفة بسيطة ، فقد كنا معاً في المدرسة يوماً ما. وتمنيت لو أحادثها، فقد كانت تبتسم لي بعذوبة كلما وضعت قدمي داخل المكتبة ، ولكن ماذا أقول لها؟ إن المواضيع القليلة الهامة لي، ستحرك دوائر الملل المترسب في نفسها. وعدت مهزوماً الى الورقة البيضاء، بعد ان سرحت بفكري بعيداً عن موضوع مسرحيتي . وجاءتني فكرة تتناول النظام ، وتساءلت من جديد : ما هو النظام ؟؟ هل هو خنق الاندفاعة الجنسية التي تلح بجنون ؟ هل هو كبت السرحان اللامجدي ؟؟ ولكن ما هو الشيء الذي أريد تنظيمه ؟؟

أنا اقدر على تسليط عقلي ، على الورقة البيضاء ، حتى انفجر . استطيع ان أتجاهل العجوز المعروقة وعطساتها؛استطيع ان ألجم عيني عن النظر الى الموظفة الشابة التي تتسلق الدرجات الخمس الأولى من سلم المكتبة لتتناول كتاباً من على رف بعيد . لا أرغب في معرفة لون ملابسها الداخلية الشفافة ، ولكنني لم أبدأ

بالكتابة ، وما زالت ورقتي عذراء .

لا . من المستحيل حتى ولو روضت نفسي على نظام صارم ، ان أدع الكلمات تتوالد على السطور ، من المستحيل ان املأها بالكلمات ، كما يملأ الزئبق ميزان الحرارة عندما ترتفع درجته الحرارية الى أقصاها .

ان حياة الانسان تعكس القضية ، وأنا أؤمن ان حياة البعض فارغة ، لا أمل يبرق فيها . بينما ارى حياة آخرين حافلة بكل شيء زاه ، كأن حيواتهم قد خططها لهم كاتب مسرحي شهير ، وقد تبدو قطعة فنية ، فيها شيء من المنطق ، وقد ينبعث هذا المنطق من روائح الجلود التي تفوح مساء من المصانع ، فتتحول إلى بلورة براقة . ولكن ، هل تنطوي الحياة العادية الرتيبة على شيء من النكهة ؟؟

أنفقت عشرة جنيهات من الأربعين جنيهاً في اكتشاف حقيقة هامة : من المستحيل أن تكتب الروايات أو المسرحيات بقذف كلمات منمقة على السطور. كما يقذف النرد على الطاولة ، مع رجاء ساذج بأن يكون الوجه « ستة ستة » .

وفجأة شعرت بشعور البخيل الذي يود أن يسترجع جنيهاته العشرة التي أضاعها في شراء حاجة من الحاجيات. لو أمكنني استرجاع النقود لما شعرت بهدر اسبوعين من حياتي بلا جدوى . ونتيجة لاكتشافي العظيم هذا ، توجهت صباحاً إلى مكتب التشغيل المحلي ، وقلت بنبرة عالية :

– اريد أن أعمل !!

كان يوماً ماطراً من أيام تشرين الأول ، وكان حذائي يحتاج لتصليح واجهته الأمامية،والشوارع مزدحمة بالناس العاديين أمثالي.ودخلت محلاًتجارياً، لاشتري شيئاً، ولا أدري لم تخيلت نفسي واحداً من العمال الذين يرتدون البدلات الزرق ، ويحملون على أكتافهم صندوقاً من صناديق الشاي ، لوضعه بلطف على الرف البعيد . ولكنني فجأة ، شعرت بأنني حبيس ، ولا منفذ لي ، أنا أعيش في مجتمع حر ، لا يُلحق الضرر بأي فرد ، فلو خطفت رغيفاً من الخبز الطازج كصاحبنا « جان فالجان » فلن أعاقب بوحشية . ولو انني ارتكبت جريمة قتل

فسوف اسجن ما شاء صاحب السيادة. قد اقف في الميدان العام وأهتف بسقوط البوليس والنظام ، دون ان يتحرك أحد ، وأذكر ان أحد رجال البوليس علق على خطاب يلقيه مجهول ضد الملكة فكتوريا قائلاً :

– دعه ينفّس عن غضبه . ان خطابه سوف يخفف من مشاكله ، ولكنه لن يضر الملكة .

ولكن السجن بالرغم من جميع مظاهر الحرية ، متين القضبان ، كئيب . فلا خيار لي : إما العمل في مصنع،وإما في مكتب – كما كنت في سلاح الطيران الملكي . أنا أستطيع – لو شئت – أن أحترف التشرد . ولكن البرد مخيف في تشرين الأول ، وأينما ذهبت ، ومهما فعلت ، فسيبقى المجتمع مندفعاً في طريقه، لا يحسدني ، ولا يلتفت نحوي ، لن آخذ شيئاً، ولن يمنحني شيئاً. وانبثق شعور حادّ حانق على والدي الذي لم يستطع ان يكون غنياً، ويسهل لي سبل الرفاهية الحياتية كما أتمناها وأريدها ، فهي حق لي لم اتمتع به حتى الآن .

جلست في مكتب التشغيل على مقعد خشبي طويل ، بجانبي سرب من رجال طالت لحاهم ، وتآكلت معاطفهم التي كانت سميكة ، ونفذت الى أنفي رائحة البلل المنبعثة من ثيابهم . اخرجت كتاباً صغيراً من جيبي وحاولت ان أقرأ شيئاً عن فلسفة « ماركوس اوريوس » فاصابني شعور بالقرف . فهو لم يُعان في حياته : كان امبراطوراً كبيراً ، لم يعرق لينال ما يريد ، اختار الحكمة لسهولتها ، وسهولة حياته . فأنى لي الحكمة ، وأنا انسان يواصل افراز عرقه لينال خبزه اليومي ؟؟ سألني الموظف الأصلع عن سبب تركي لسلاح الطيران الملكي ، فأجبت شاعراً بالخجل :

– اضطراب في المعدة .

والحق أن أوراق تسريحي تقول بكل صراحة « اضطراب في الاعصاب ».

واكتفى الموظف بجوابي القصير ، وسألني عن نوعية العمل الذي ارغبه . من السخرية ، انني لا أحب العمل اطلاقاً . ولا أدري كيف قلت له بأنني أريد عملاً يدوياً .

وارتسمت دهشة مفاجئة على وجه الموظف وقال :

– ولكن يا بني ، العمل اليدوي يتطلب قوة كبيرة ، ومتانة في البنيـــة ، وانت لا تصلح له .

قلت بايجاز : – العمل اليدوي اجرته مرضية لي .

اقتنع الموظف ، وأخذ يقلب أمام عينيه عدة بطاقات ، اختار منها واحدة بالصدفة وسألني :

– ما رأيك بهذا العمل ؟؟

كانت عملية بناء على بعد عشرة أميال من بلدتنا الصغيرة . وقد قبلت العمل بسرعة ، وبدأ الموظف يملي تعليماته بلهجة باردة :

– عليك ان تذهب في السابعة صباحاً من كل يوم . لا تتأخر .

أخذت بطاقة عملي ، وخرجت من عنده ، وقابلت صدفـة رئيس العمال ، حيث أطل من وراء كوخه الخشبي وسألني :

– هل انت طالب في كلية ؟

قلت بسرعة : – لا !

كم تنوي ان تبقى معنا ؟

– ثمانية أسابيع على الأكثر .

ولبثت كذلك محاولاً ان أبدو غير مكترث لشيء . واعاد الي البطاقـــة وقال آمراً :

– أرسل بطاقتك غداً الى مكتب التشغيل ، وقابلني في السابعة تمامـــاً . احضر معك طعاماً ، فلن تجد شيئاً هناك ، لا يوجد عندنا مقصف للعمال .

غمرني شعور بالارتياح ، عندما أخذت الباص عائـداً الى البيت . انا ملتزم بعمل جديد . وأحسست بنوع من القناعة ، ما زال عندي ثلاثون جنيها ، قد اقع في مأزق لا مخرج لي منه . ستتيح لي هذه الجنيهات مجالات واسعة، ستكون قلعتي الآمنة التي أطل منها على العالم. وفي البيت سُرّ والدي بنبأ استلامي لعمل جديد . وذهبنا للعشاء . كان عشاؤنا من لحم العجل المسلوق . أقـول « عشاء »

لان سكان المناطق الوسطى من انكلترا يسمون الغـــداء « عشاء » . الاعشاب الخضراء تتسلق شبابيك المطبخ ، معطف أبي المبلول يتأرجح بالقرب من الموقد. من عادة أبي ان يذهب الى عمله ، ممتطياً دراجته ، حتى لو غطت ثـــلوج السماء شوارعنا كلها . كنت متعباً ، وكان يومي حافلاً بأحداث جديدة لن تزول من ذاكرتي أبداً .

حاولت ان اهزم الانقباض الكئيب الذي هاجمني بجرعة كبيرة من الحساء ، ستزول ايام حريتي بانتهاء هذا المساء .

لم يكن العمل سيئاً كما توقعت . ولقد تربعت على ظهر سيارة نقل كبيرة ، مغطـاة بقماش واق ضد المطر ، فحملتني – وهي تخضني الى الاعلى والاسفل – الى نوتنجهام .

كان رفاقي العمال يتحدثون عن نتائج مباريات كرة القدم . ولم يوجهوا نظرة الي . وقد تنبّه الى وجودي شاب صغير من عمري ، فتح فمه المتراخي ، وبـدأ يقص علي قصة ليلته الماضية ، فقد اصطاد فتاة صغيرة وأخذها الى غرفته . قال وهو ينتفخ كالديك :

– تدري من كانت فتاتي ؟ انها ابنة مدير مدرستي السابقة !!

ومضت السيارة الكبيرة في الاندفاع ، والعمال ساهون عني ، غير ان غطاء « الترموس الزجاجي الذي احضرته معي ، وقـع فجأة وتكسر . وخسرت الشاي الذي عملته امي لي، وسبّب افساد بعض السندويشات . وألقيت بالطعام المبلول ، ولففت الباقي في جريـدة قدمها لي أحد رفاقي العمال وهـــو يبتسم . تطلعت الى الجريدة لاقرأ شيئاً ، وهنا ذكر أحدهم بأنهم توقفوا عـن العمل في اليوم السابق بسبب هطول الامطار . ونظرت الى السماء ولكن الشمس اشرقت بلمعان غريب .

توقفت بنا السيارة . ونزلنا الى مصنع لم يكتمل بناؤه بعد . كانت مهمتنا أن نحفر الخنادق العريضة ، ونمد أسلاكاً كهربائية عديدة . حملت فأسي بارتباك ملحوظ كفتاة مدرسة لا تدري اين تضع أنفها عندما تقبل حبيبها لأول مرة .

تقدم احد العمال وعرض مساعدته ، وأرشدني الى الطريقة الصحيحة لحمل الفأس ، وكيف اقبض على طرفه بليونة وسهولة ، واهوي به ، فاتحاً ثغرة أرضية ، وختم محاضرته قائلاً :

– العامل المحترف يستعمل يده اليمنى واليسرى أيضاً عندما يهوي بفأسه بلا تردد .

ما زلت أذكر كلماته ، حتى الآن ، ولكن للأسف ، لم أجد فيها أية فائدة.

وجاء احد العمال ، وأشار الى قطعة من الأرض ، ثم قال :

– نظّف التربة من الحجارة ، ثم أبدأ الحفر .

التقطت الحجارة وكوّمتها داخل العربة اليدوية ، وأخذتها بعيداً ، حيث ألقيتها على بعد عشرة ياردات. عملت كالمجنون لأطرد البرد الشديد عن جسدي. وفي نصف ساعة ، كان بنطال سلاح الطيران قد تلوث حتى الركبة . في تلك اللحظة سُلطت عينا رئيس العمال علي ، كان بديناً ، مخلع الاسنان ، ويحمل لقباً يعتز به ، وهو « الكابتن » ، وقد تقدم مني، وأخذ يقذف باسئلته السريعة، فرددت عليه بأسئلة معاكسة . وهنا ابتسم بعطاء صادق ، وبدأ يحدثني عن الايام القاسية التي عاشها وهو يعمل كعامل بسيط، واخيراً قال كمن يهاجم عودة ذكرى لا يحب ان يراها مرة ثانية :

– كانت أيامنا تعيسة وشقية يا بني ، أنتم الشباب لا تعرفون كم كانت كئيبة وفارغة أيامنا ، سبحان ربي ، لن يصدق هولها الا من عاش فيها .

ثم نادى « توش » وهو عجوز بارز العظام ، فأكد ذلك وأخذ يتحدث عن أيام البطالة، وكيف اذلته الشهور الستة التي لم يعمل خلالها كل سنة، كان موظف مكتب البطالة يأتي الى بيته ، ويشير الى محرك النار الحديدي ، وتنكة الفحم الفارغة ، والكرسي العتيق ، ويقول دون ان تهتز عضلة من عضلات وجهه :

– آسف ، لن ازيف الحقيقة ، فأنت تملك متاعاً ، تستطيع بيعه بخمسة شلنات .

وتدخل الشاب الصبي ، صاحب الخبرة الجنسية الواسعة ، قائلاً :

- كم وددت لو قالها لي أنا فسأدق عنقه فوراً .
اجاب الرجل العجوز وفمه الخالي من الاسنان يمضغ قطعة من الجبنة الصفراء:
- كم وددت لو كنت معنا ، ستجوع مثلما جعنا يا بني .
عدت الى حفر الارض ، وتسلخت كفي اليمنى ، وتقدم مني الصبي الذي حدثني عن مغامرته مع ابنة مدير مدرسته ، فقال وهو يبتسم :
- عليك باليد اليسرى . اذا أردت ان تداعب شيئاً الآن !!
كانت كلماته مبهمة لم أفهمها ، وقد توقفنا عن العمل بعد ساعة ، وجلسنا في الكوخ الخشبي نتناول وجبة سريعة ، حزنت على ضياع الشاي ، ولكن أحد العمال اقترح بأن اشترك « بهاف كراون » أي « بشلنين وستة بنسات » في عضوية نادي الشاي ، ثم قال وهو يغمز :
- سوف تشرب ثلاثة أقداح من الشاي كل يوم .
وعلمت ايضاً أن شركة مجاورة قد افتتحت دكاناً صغيراً لبيع الشاي وبعض الحلوى ، وقد كانت الدكان عبارة عن كوخ خشبي تديره فتاة شاحبة الوجه اسمها « بتي » . وذهبت لأشتري منها ما أرغب فيه . شربت الشاي مع قطعة « كاتو » فأصابني ألم شديد ، ولكن الالم زال بعد ساعتين عندما تناولت سندويشات الغداء. وغابت الشمس الشديدة اللمعان وأخذ المطر يهطل باستمرار مخيف ، ولم يتكلم أحدنا عن توقف العمل وانصرافنا ، وبقينا نعمل في المطر . وذهبت لمساعدة العمال في تنزيل لفة ضخمة من الاسلاك الكهربائية ، اوصلتها الى مكان عملنا ، سيارة كبيرة . وفجأة سمعنا دوياً عنيفاً ، ورأينا بريقاً آتياً من ورائنا ، فاصابتني رجفة ، ودرت لأهرب ، فرأيت رجلاً منبطحاً في الوحل ، وفي وجهه آثار دهشة مفاجئة .. وبعد قليل ازال الوحل عن ملابسه ، واخذ يشتم ويجدف ، وهرع العمال من كل مكان ، وسمعت « توش » العجوز يقول :
- الحمار ! لقد ضرب الاسلاك الكهربائية بفأسه . كنت انتظر هذا من واحد مثله .
نظرت الى الخندق ورأيت الفأس المحترقة ، وشاهدت أيضاً سلكاً كهربائياً

مغطى بالرصاص ، مختفياً في باطن الأرض ، ولكن النقطة التي أصابها الفأس ظهرت واضحة ..

قال « نيبر » العامل الذي سبب الحادثة :

– لم أرَ شيئاً كهذا في حياتي . لقد تطاول عامود من اللهب الازرق في الهواء ، وكأنه سطل أفرغ من الماء ، من الطابق الخامس .

وجاء الكهربائي وقال موجهاً حديثه الى « نيبر » :

– كانت نجاتك أعجوبة . ان السلك المقطوع يحمل شحنة كهربائية تقدر بعشرين ألف فولت . ولولا مقبض الفأس غير المبلول وحذاء المطاط الذي تنتعله لكنت الآن أسود كالفحم الحجري ، ميتاً كفأر صغير .

ابتهج « نيبر » عند سماعه كلمات الكهربائي ، ولكن رئيس العمال تقدم منه وصرخ في وجهه قائلاً :

– أنت نغل أعمى . انتبه في المرة القادمة أيها الزنديق .

ثم أمرنا بلهجة صارمة بأن نعود الى العمل . وبدأ الكهربائي يعيد ربط الشريط الذي قُطع ، وكنت أنا أعمل بقربه ، مما أتاح لي فرصة مراقبته ، وقد رأيته يضع قطعة مربعة من المطاط في أسفل الشريط ، ثم وضع ثقل جسده على ركبتيه . وأخذ يقطع الشريط بمنشار حاد . كان يقبض بيده على الشريط الموجب ، كأنه يقبض على حبل لا قوة كهربائية مدمرة في داخله . وأمدتني هذه الحادثة بفيض من الارتياح ، وجعلتني أشعر بأن هذا محيطي . وانهمر مطر غزير بدا كضباب رمادي . وامتلأ خندقنا بالماء في دقائق قصيرة ، فركضنا نحتمي في الكوخ ، واطلقنا عيوننا الى الخارج ، نراقب المطر بفرح خفي . لكننا أصبنا بالبلل حتى العظام ، وشعرنا بالبرد من هبوب الرياح الباردة . وكنا على مسيرة عشرة أميال من بلدتنا الصغيرة ، غير اننا لم نستطع إخفاء فرحتنا بالمطر ، فهذا يعني توقفنا عن العمل ، مع استمرارنا لأخذ أجرتنا الأسبوعية . وأخيراً استدعى رئيسنا سيارة النقل المغطاة بالقماش السميك ، وتكومنا داخلها كأكوام الحجارة ، وتحركت بنا الى البلدة .

عندما افترقنا ليذهب كل منا الى بيته ، كان المطر ينهمر بغزارة شديدة .

راقبت خلال الايام الثلاثة الاولى طباع رفاقي وتصرفاتهم ، علني استخلص قدراً كبيراً من تجربتي الجديدة التي فرضتها على نفسي كعقوبة . لقد أذهلتني التجربة في بداية الأمر ، ثم تبخرت .

كان « تيري » هو الذي جذب اهتمامي اكثر من غيره . وقد التحق بالعمل بعدي بيوم واحد . ووضعني تحت رعايته . إلا ان رئيسنا كان يعتبره فاسداً ، لا يصلح لأن يكون قدوة لغيره من العمال . كان خبيراً بتفادي العمل . تعلمت منه هذا . ويبدو انه كان صاحب فطنة غريزية تنبهه الى اللحظات التي لا بد فيها من التظاهر بالعمل ، وخاصة عندما يبرز رأس « الكابتن » من وراء كومة الحجارة ، مراقباً سير العمل . أما بقية الوقت فقد كان « تيري » يرتكز على معوله ، ويدخن بشراهة من سجائري ، ويقص عليّ فصلاً جديداً من حياته الحافلة العميقة ، ابتداء من الحرب العالمية الاولى .

كان « تيري » يمتاز بميزة عمالية عتيقة – كان يعتبرها ميزة – وهي معرفة كل الشتائم . وقد كان رجلاً نحيفاً أسمر الوجه . حاولت ان أشبهه « برابليه » ولكن البذاءة التي تتعلق على لسانه ، هدمت جميع محاولاتي في ايجاد شبيه له . وكان من عاداته أن يسألني كل صباح عما إذا نمت مع فتاة أم لا . كنت أعرف ماذا يرمي بسؤاله هذا . كان يتمنى ويذوب شوقاً لان أسأله بدوري ، عما فعل في الليلة الماضية ، كي افتح فمه وأجعله يتحدث عن ذكرياته الخصبة .

يبدو لي ان زوجته كانت في غاية البدانة ، وانه يتشاجر معها باستمرار . وقد حاول مراراً ان يهجرها ويفر بخفة . ولكنه كان من الكسل بحيث لا يبتعد خطوات حتى يقبض عليه بوليس البلدة بطلب منها ، ويودعه السجن ، ويطالبه بنفقة زوجته الوحيدة . وقد ذكر لي انه يقضي شهراً واحداً من كل سنة بالسجن المحلي ، وقد كان معتاداً على القيام بجولة ليلية يزور فيها كل حانات البلدة . كانت ليلته العظيمة يوم الدفع ، ففي يوم الجمعة يأخذ أجرته الاسبوعية . ويذهب ليكرع حتى يرتوي وينتشي ، ثم لا يدري كيف انقضت

الساعات ، ففي يوم الاحد، يجد نفسه في بيته ، ولا يجد في جيبه «بنساً» واحداً.

واحياناً كان يذهب الى بيته مبكراً ، أي قبل منتصف ليلة الجمعة ، ويركل زوجته بقدمه حتى تستيقظ ويطالبها بحقه كزوج قائلاً في دعابة :

– اعطيني حقي ، وخذي اجرتي الاسبوعية .

وعندئذ كانت تنقل النقود من يد الى اخرى ، وكانت – اللعينة – كما يلقبها تحصي النقود ، قبل ان تمنحه نفسها ، ففي مرة سابقة ، أعطاها حزمة من ورق الجرائد ، بعد ان طواها بعناية فائقة فظهرت كأوراق النقد .

وقد حدثني ذات مرة بأن زوجته – اللعينة – كانت تقفل باب غرفتها عندما تسمع صوته المنتعش بالخمرة يعربد مغنياً الاغاني القديمة ، ولكنها توقفت عن ذلك بعد ان علمت أنه كان يضاجع ابنتهما الصغيرة . (لا أدري – حتى الآن – ان كانت رواياته الجنسية ملفقة ام حقيقية. وقد كان معظمها غير صالح للنشر ، ولكنني اعترف صراحة بان عقله كان خصباً وغنياً ، وانا أضعه في المرتبة الثانية بعد المركيز دي ساد مباشرة . كان « لتيري » صديق بدين ، يبلغ من العمر ، ربع قرن . وكان اسمه يقترن دائماً باسم « تيري » وقد بدا لي ان الاثنين يأخذان ثقافتهما من مكان واحد ، وكأن المدينة الصغيرة تصب قنواتها القذرة في داخلهما . وقد خفت على نفسي ان اصبح عاموداً ثالثاً لهما فابتعدت . خاصة عندما بدأت تلاحقني عينا « الكابتن » الحذر على سير العمل.

طالت أيامي بينهم ، وحفرت جدران صماء في رأسي . الوجوه لا تتغير . الاحاديث عادية، اسابيعي الثلاثة جليدية كالليل الذي يغطي الأرض ، اكاذيب الشاب ذي الميول الشهوانية ، باتت تافهة لا تثير في اية رغبة للاستماع ، اللقب الذي يلصقه بالفتيات كلهن ، لم تحتمله نفسيتي ، قال لي يوماً بنبرة باردة لم أحبها :

– كل الفتيات « بغايا » فلا تثق بواحدة يا هاري .

لم اقل شيئاً ، فوجدها فرصة سانحة للخوض في تفاصيل صغيرة سخيفة عن الاشياء التي تبرز فجأة عند الجماع الجنسي ، وكيف على الرجل الحق ان يعالجها

بسرعة وبقسوة ، حتى ولو ذهبت الفتاة وجلست للاعتراف في كنيسة منطقتها.

كنت أرغب رغبة حقة في تجنبه ، كان يحبني ويثقفني جنسياً – كما يقول – ويفترش أرض السيارة بجانبي ، وعيناه الباهتتان ، تبتسمان لي بغباء أخرس . كنت أبغض رؤية فمه المتراخي، وشعره الباهت. وقد اصبح وجهه بكل قسماته امثولة صادقة لقاتل نساء مخبول ، وانا الى الآن ، كلما ذهبت في قراءة جريمة جنسية مخيفة ، اتخيل صورته على أعمدة الجريدة ، تبتسم بغباء اخرس . انه من النوع العادي الذي تقابله في كل مكان ، يذهب الى دور السينما ، ويشاهد اعلانات « التلفزيون» وتتلاعب بعقله الطفولي الكلمات العابرة ، والجمل الجاهزة، الذي تطلق بلا رحمة من الاذاعات ، ومن الافواه المزيفة ، كان ميت الشخصية والهوية ، وموضوعه الأثير الى نفسه ، الجنس بكل أنواعه !!

زال اهتمامي بالعمال كأفراد أحياء ، وخمدت جذوة الحياة، ومعناها . لا بد لي من سنين عديدة متواصلة ، حتى اطل برأسي من خلف اكوام الحجارة ، والقب « بالكابتن » . الفكرة مملة وصغيرة . ولكن ميلي الى القناعة بسير الحياة حسب مجراها الطبيعي ، دفعني الى قبول العمل ، والنهوض في ساعة مبكرة ، والجري خلف باص الساعات الأولى ، وحفر الخنادق تحت المطر والجليد ، والغوص في الوحل والطين . اما النافذة الصغيرة التي كنت اطل منها على العالم الحافل بكل شيء ، فهي الجلوس مساء ، واستماعي الى القطع الموسيقية من المذياع .

تم بناء المصنع ، ونقلنا الى المدينة ، لحفر الشوارع المبلطة ، وتبديل الاسلاك الكهربائية القديمة باخرى جديدة ، واعادة تبليط الشوارع من جديد .

في هذه الفترة اصبحت قادراً على النهوض متأخراً ، والذهاب الى عملي ، والعودة مبكراً الى البيت . وذات يوم انتحى بي عامل قديم والقى علي موعظة حارة ، قال والكلمات تتواثب من فمه :

– ازفت ساعة تركك لهذا العمل،فأنت لم تخلق لهذا، نحن طبقة لا محترمة. متى اصبحت واحداً منا ، فلن تتخلص من قذارتنا ، لن تصبح انساناً نافعاً.

لقد اضعت في هذه الحياة ثلاثين عاماً ، كم تمنيت لو تركتها ، كم تمنيت ، قم واهرب يا بني ، قم وابتهج بأيامك التي لم تعشها بعد، نحن سجناء ، ولكننا عمي لم نجد الطريق التي أضعناها .

والغريب ان كلماته كانت باردة لم تلفحني حرارتها ، فقد انطويت على العمل الروتيني ، وطفح قلبي بالارتياح لأن الناس الكبار الذين يجلسون خلف مكاتبهم الفخمة يخططون حياتنا وأعمالنا . كانوا ينظرون الينا كقطيع من الماشية ، لا يتوقع منها أي التزام فكري. فقد سمحوا لنا ان نتجاهل مشاكل الحياة ومعناها، قتلوا فينا طاقاتنا الفكرية الخلاقة ، لذا اخذت انزلق الى حياة التشرد كواحد من العمال الآخرين ، تيري ، توش ، نيبر ، والصبي الشهواني ، لم تتلهف نفسي الى مغادرة البلدة ، وانقطعت علاقاتي بالحياة . وفجأة حلقت حادثة موت في سماء اسرتي . فقد مات جدي ، ولونت حياتي بلون آخر .

كان ذلك صباح السبت . لم اترك فراشي الدافىء . وقد عبرت امي الباب والقت بجملة اخبارية :

– جدك مات اليوم .

قالتها دون تأثر أو حزن، ولم أكن اتوقع منها ان تحزن ، لست ادري لماذا.

بعد نصف ساعة ، نفضت موكب النعاس من عيني ، ونزلت الى المطبخ .

كانت وجبتي الصباحية بيضة واحدة وشريحة من لحم الخنزير حرقتها امي ، فافقدتها نكهتها . وتشاغلت امي بتنظيف المطبخ ، وكنا نسمع لحناً موسيقياً آتياً من المذياع .

لأتحدث عن جدي : كان موته متوقعاً ، فقد لزم سريره عدة مرات في السنة الماضية ، ولم يبد اي انزعاج على وجه الطبيب عند تركه لغرفة جدي ، وقد نويت ان اذهب لزيارته في الليلة السابقة، ولكن أخي الصغير توسل الي بأن آخذه الى الحفلة الموسيقية التي اقامها النادي المحلي . وهكذا مات جدي دون ان أراه لآخر مرة . قالوا بأن قلبه توقف عن النبض .

سألت امي :

– هل تشعرين بالحزن يا ام ؟

قالت :

– لا . كنت اتوقع موته بين لحظة واخرى .

انا أومن بأنها كانت تحبه . فهو من اخرجها الى الحياة . ولكن ما جدوى الحزن ؟

انتقلت الى دار جدي ، علني اقوم بعمل ما . رأيت عدداً من أفراد اسرتي كانوا هنا ، يشربون الشاي بصمت ، ويلتزمون الحزن ، اما جدتي فقد كانت مذهولة تماماً . انا لا احبها ، اجتماعاتنا العائلية ، خاصة بعد ان تناثرت أوراق الملل وحطت علي فانصرفت بحجة تسجيل الوفاة. وقد وافقوا على ذهابي بعدان علموا أن المسجل يغلق مكتبه مبكراً يوم السبت ، واثناء وجودي في الباص حاولت ان اجوب في سر الموت . كان جدي انا ، جدي الوحيد ، فقد قتل جدي لوالدي في الحرب العالمية الأولى وانا لا أعرفه ، أما هذا الجد الذي مات اليوم ، فقد كان يدللني دائماً . كنت أول أحفاده ، ولم يهتم في حياته كلها الا بي . ولن اكون مغالياً اذا قلت : أنه لم يدلل احداً من اخوتي ، او أبناء خالاتي واخوالي كما دللني واحبني ، ومع هذا فانا لست واثقاً ان كنت احبه أم لا ، اما ان يحبني هو ، فهو حقي لا جدال فيه .

كانت جدتي امرأة لطيفة ، يتدفق الحب صاخباً من قلبها لكل مخلوق ، ويستيقظ الفرح في عينيها عندما تسمع الضحكات منطلقة من فم جدي ، وتجلس صامتة تنظر بحب الى شعره الأحمر ، وتأكل تقاطيع وجهه وهو يحدثها عن مشاجرته للناس في حانات بلدتنا . كانت تحبه حتى الموت ، وكنت أراه رجلاً مرحاً يجلب السرور والحلوى ، ويحدثني بالنكات البذيئة مذ بلغت الخامسة من عمري . الا ان نكاته لم تكن حول العلاقات الجنسية ، بل حول الناس وتصرفاتهم . وصلت الى الشارع الرئيسي ، ولم انقطع عن التفكير في جدي طول الطريق . وادركت الآن انني لم آبه لموته اكثر مما كنت سأكترث لمجرد ذهابه في زيارة لبعض اقاربنا في (درم) لبضعة ايام . وجدته الآن رجلاً يصعب

علي فهمه . هل أعدّ حفيداً قاسي القلب ؟ الم يقدم لنا الهدايا منذ طفولتي ؟ الم يهدني قنبلته اليدوية التي كان يحفظها ويعتز بها مذ كان في الحرب العالمية الاولى ؟ اذكر أنه وعدني يوماً بأن يهبني دراجة عند انتهاء الحرب – كان يظن بأن الحروب ستدوم – وربحت الدراجة منه. فقال لي وهو يربت على كتفي:

– كانت حماقة مني ، كل الحروب ستنتهي يوماً !!

بعد ان سجلت الوفاة ، اشتريت زجاجتين من البيرة وذهبت إلى البيت . وفي يوم الاربعاء التالي أخذت اجازة لحضور الجنازة ؛ وفي اللحظة الاخيرة قررت ان لا اذهب الى المقبرة معهم ، وظللت في البيت حتى يعود الجميع . وعند عودتهم ، فتحوا زجاجة من الشيري ووزعوا السندويشات ، وانطلقنا نتحدث بمرح ؛ وفجأة انفجرت جدتي ببكاء عنيف وهرعت الى خارج الغرفة فتبعها احد اخوالي ، وسمعته يقسم لها ، بأن جدي قد انتقل من مكان إلى مكان ، ومكانه الجديد مزهر ومشمس ، لكنها مضت في بكائها بالرغم من توسلات خالي لها .

تأملت صورتي المعلقة على الحائط – صورتي وانا في الثانية من عمري ، ممتطياً كتف جدي . ثم جاءني الجواب مرتعشاً ، ثم قوياً ، كالوحي حين يحط علينا ، عند العثور على حل لغز صعب في الكلمات المتقاطعة . ان وفاة جدي لم تملأ صدري بالحزن ، فالموت أمر اؤمن به ، ان الموت امر لامنطقي . اما ان الرجل لم يمت ، او انه لم يعش قط ، فالحياة لن تتغير ، ولن تقف وستبقى مستمرة ، ولا استطيع ان اتنبأ بأي تطور .

غرقت في مقعدي وقلت لنفسي : « هذا صحيح ، لن يحدث شيء ، فلو حدثت الاشياء ، لكانت حياتنا بحاجة لنظرة جديدة اليها ، وبما اننا مؤمنون بأن لا شيء سيحدث أبداً ، لذا ينهض الرجال صباح كل يوم ، ويتوجهون إلى اعمالهم ، ويتزوجون من فتيات يترائين لهم جذابات فاتنات . ويحاولون ان يستمتعوا بالحياة الى آخر قطرة . وتمضي بهم الايام هادئة رتيبة ، لا ضجيج فيها ولا رنة فرح تنطلق منها ، لا خسارة ولا ربح ، فالاشياء الجوهرية ليست من

دنيانا ، فلا واقع ، ولا أهمية لاي شيء . ولهذا السبب كان من المحتمل ان ابقى عاملاً يدوياً لعشرين عاماً ، حتى اصبح رئيساً للعمال . وفيما كانت هذه الأفكار تمر بعقلي ، اخذت اراقب خالي « ارني » وهو يقطع فخذ خنزير على الطاولة ، والهبني شعور بالفرح ، جعلني أفقد شعوري بجسدي ، واحسست برغبة شديدة في النهوض والعبث بالصور وخوان الطاولة الأبيض ، كطبيب يعالج مريضاً أمضّه المرض وأقعده ، وقلت في نفسي « يا للغرابة ، انا لم أرَ الدنيا من قبل ، كما رأيتها الآن ، سأدون ملاحظاتي » .

وانتابتني رغبة ملحة بالانصراف في الحال ، سوف اجرب هذه الحالة الجديدة ، كما يجرب المرء نظارات جديدة عندما ينظر إلى العالم الخارجي . نهضت ، وخرجت بخفة كأنني ذاهب إلى الحمام ، بعد ان همست بأذن أمي قائلاً :

– سوف اراك في البيت .

كانت الدنيا خفيفة لا وزن لها ، استطيع رفعها ومداعبتها ، انها ليست مجرد « عالم » لا جدوى ، ولا معنى له . ها الفرصة قد ازهرت ، لأقطفها بسرعة، ولأستفد منها . وتدفق مني شعور بالحنان والحب لكل الناس الذين مررت بقربهم في الشوارع . رغبت بالابتسام العذب . ووددت ان اقول لهم : « لا تخافوا . انا اعرف أن دنيانا حقيرة وتافهة ، لا تهربوا منها ، انا سيدها الآن ، سأغيّرها » .

لا سبيل الى احتمال العمل – حتى ليوم واحد – بعد ان تكشفّت لي الحياة، لذا اتصلت هاتفياً بمكتب الشركة ، ولفقت لهم قصة كاذبة ، تقتضي سفري العاجل الى لندن لتصفية بعض الامور التي كانت تخص جدي ، وقلت لهم :

– سآخذ القطار في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ، فهل لي ان استغني عن الاخطار القانوني، مع ارسال اجرتي الى عنواني في البيت عند دفع الرواتب؟

لم يهتموا كثيراً ، كانوا لطفاء جداً ، فالاخطار ليوم واحد كاف للطرفين . ولكنهم ظنوا بأنني وجدت عملاً جديداً ، فقد سألوني عما اذا رغبت بـأخذ

أوراقي بعد ظهر ذلك اليوم ، فأجبتهم بالنفي، لانني لم أرَ ضرورة ملحّة في حملي لهذه الاوراق ، في مستقبلي القادم .

بعد انتهاء المكالمة سطعت الشمس من خلف غيوم تشرين الثاني ، وتذكرت جدي ، وشعرت بحب وامتنان عظيمين له . كان يهديني دوماً أشياء كثيرة ، وكانت وفاته آخر هدية. وفي اليوم التالي اعطيت أمي خمسة جنيهات ، واخذت قطاراً الى لندن ، بعد ان استرد العالم وزنه العادي ، ولكن وجهتي في الحياة تحوّلت ، كقطار خرج من خط الى آخر .


https://telegram.me/maktabatbaghdad

القسم الأول



الفصل الأول

وصلت قبل الغروب الى محطة « سانت بانكراس » وأخذت طريقي دون تردد إلى نزل الشباب الواقع في شارع « عريت أورموند » . كانت هذه هي المرة الثالثة التي أزور فيها لندن ، فقد زرتها مرتين خلال خدمتي في سلاح الطيران الملكي . واستمرت كل زيارة يوماً واحداً فقط .

أبرزت بطاقتي الشخصية للمسؤول عن النزل ، وسجلت اسمي « كجوّال » في السجل الكبير . ثم أخذت حقائبي ووضعتها في غرفة النوم . كنت ألبس معطفاً مصبوغاً من مخلفات سلاح الطيران ، فوق بنطال من القطيفة المضلعة ، وكنزة صوف سميكة . وعندما ذهبت الى محطة النفق في ميدان « راسل » داهمني شعور بعدم الإنتماء الى هذه الجماهير الأنيقة من الكتبة والموظفين، وفتيات المانكان الصارخات الأناقة . تولاني الحزن والإحساس بالغربة ، واضطرب فكري وحاولت ان أشغل نفسي بشيء من الأشياء . وأخيراً نزلت في محطة ميدان « ليستر سكوير » ، وقطعت طريق « تشيرنغ كروس » حيث المكتبات الكبيرة . إمتعضت وأصابتني خيبة أمل عندما رأيت المكتبات تغلق أبوابها في ذلك الوقت ، وتولتني حيرة . ماذا أفعل ؟ وأين أذهب ؟ وفي النهاية وجدت مقهى عادياً رخيصاً في شارع « توتنهام كورن رود » فدخلته ، وطلبت بيضة واحدة مع بطاطا مقلية ، وشملت المكان بنظرة . كنت أظن بأنني سأرى

الكتاب والمؤلفين العظام ، والممثلين العاطلين عن العمل ، بانتظار عمل جديد ، ولكنهم بدوا لي كأنهم من جماعة « القبضايات او السوقة » او جواسيس ميادين السباق . فاتخذت حيطتي وأنا أدفع ثمن طعامي إذ وضعت محفظتي تحت الطاولة وأخرجت منها جنيهاً واحداً . لم أشأ ان يلاحظ أحد الجالسين رزمة النقود الضخمة التي تحتويها المحفظة . وتلفتُّ حولي ، فرأيت نسخة من جريدة « ستار » تركها احد الزبائن خلفه ، فقرأت بأن « جيمس دين » قد مات في حادثة سيارة وان المعجبين بعبقريته في جميع أنحاء الولايات المتحدة ، قد حزنوا لوفاته . شعرت بشيءٍ من الرضى والارتياح لهذا الحادث ، فقد خيّل لي – وإن كنت لا أعرف شيئاً عن « دين » هذا – بأن فقد ممثل واحد في عالمنا ، من الأمور المحمودة جداً ، وخطوة في الاتجاه الصحيح . فلو دبّر القدر البعيد النظر حوادث كافية من هذا النوع ، لترك العالم بين أيدي جماعة من الأذكياء حقاً ، وبذلك نقترب من العصر السعيد .

إذا عِشْتَ في عالم يبعث في نفسك الضيق ، فاي حادثة من حوادث العنف تبدو تحسيناً للحالة التي يدور فيها عالمنا . وعناوين الصحف الكبرى التي تعلن عن وفاة أحد السياسيين الكبار ، او سفاح خطير آخر في النمسا مثلاً ، تجعلك تحس بنوع من الغبطة العارمة .

كانت هذه الأفكار تسرح في عقلي وانا أتنقل بلا هدف في شارع « تشيرنغ كروس » ،وقفت بالقرب من حانة صغيرة تقع في زاوية شارع «أولدكرومبتون». لم أرد ان أشرب بيره ، لأنني أكلت كمية كبيرة من الطعام ، ولهذا طلبت قدحاً من الويسكي . إنتعشت وامتلأت فرحاً في لحظة واحدة . أنا لم أعتد شرب الكحول . وبعد دقائق دخل شاب وسيم برفقة فتاة لها مظهر الفنانات ، فقد كانت تضع في قدميها زوجاً من الجوارب الحمراء السميكة وتعلق معطفاً عجيباً على كتفيها . وحاولت ان أبتسم لها ، عندما ألقت نظرة على المكان الذي كنت فيه ، لكنها سحبت عينيها ونظرت في اتجاه آخر ، كأنني رجل غير منظور ، فضايقني هذا التصرف الفج وأدركت السبب في ثورتي الصامتة

على لندن .

فالمدينة كانت جزءاً من مؤامرة لا شعورية ، مجموعة من الإنفعالات الكثيرة تجعلك تشعر بأنك غير موجود . والمدن الكبرى بوجه عام مثـال حي لسحق القيمة الإنسانية وعـلامات احتقار متواصلة من هذا الكون للأشخاص الذين ينقصهم الإحساس بضرورة حياتهم .

كنت قـد قرأت قصة كئيبة من تأليف « بزمسكي » عنوانها « ألف روح » وقد جاء فيها أن رجلاً من عشاق المثل العليا قد تزوج من أجل النقود ، وخان كل إنسان أحبه في السابق ، وفهمت فجأة معنى القصة . فلو انبثق عفريت إلى جانبي الآن وعرض بأن يجعلني سيد لندن المطاع ، على أن أتخلى عن طموحي ، فسأقبل في الحال ، ولكن مع الأسف لم يـأتِ العفريت الساحر لإغرائي ، ولم يهتم بي أحد حتى الآن .

وخرجت من الحانة بإتجاه شارع « غريت أورموند » تعبـاً مثقل الروح وبيدي خريطة لندنية تهديني إلى طريقي . كنت أحـلم بأن أعيش في مغامرة مجهولة صاخبة في لندن الغامضة ، ولكن لم تتفتح الساعات عن شيء جديد .

بلغت « نزل الشباب » في الثامنة مساءً ، ووجدت جمـاعـة من الشباب ينشدون أناشيد صبيانية حول صعوبة الإرتقاء الى السماء في كرسي هزاز ،وعشر زجاجات خضراء فارغة معلقة على الجدار . لم أمكث معهم ، بـل ذهبت إلى مكتبة « النزول » وعثرت هنـاك على نسخة من مذكرات « شرلوك هولمز » لم أكن في حالة نفسية مناسبة لقراءة المجلدات الفلسفية التي حملتها معي ، أخـذت المذكرات إلى غرفتي ، وقرأت حتى العاشرة ليـلا . وشعرت في تلك اللحظات صعوبة فهم لندن ، كما وصفها « كونان دويل » .

لم أستطع النوم ، فقد كانت أناشيدهم صاخبة جداً ، وعندما توقفوا ذهبت لأنام وأنا أفكر في طريقة فذة للعثور على غرفـة رخيصة . كنت مصمماً على عدم قضاء ليلة أخرى في هذا « النزل » إذا استطعتُ ذلك .

وفي صباح اليوم التالي أعدت نظام غرفـة النوم ، ودفعت الأجرة المستحقة

عليّ واستعدت بطاقتي . ثم سرت في شارع « شاوثهامبتن » باحثاً عن مكان ملائم لأتناول فيه طعام الفطور . اشتريت نسخة من مجلة « إعلانات لندن » وجلست في المقهى لمطالعة الإعلانات . أكلت سندويشات جبنه ، وتبين لي بعد مطالعتي للمجلة بأن هناك عدداً ضخماً من الغرف الخالية المعدة للايجار ، وضعت إشارة صغيرة بقلم الرصاص على ست غرف ، وسألت فتاة المقهى أن تصرف لي بعض « البنسات » لوضعها في التيلفون .

تلفونات لندن تذهلني إذ لم يسبق أن رأيت أحرفاً وأرقاماً على جهاز التيلفون ، ولهذا جربت الإتصال بالموظفة سائلاً إياها عن الرقم الذي أريد . ونجحت طريقتي هذه . الا ّان الموظفة لم ترد عليَ الا بعد مدة طويلة ، وبعد أن سألت عن الغرف الرخيصة ، علمت أن الغرفتين الأوليين قد استؤجرتا . إذ ان أجرتها « ٢٥ شلناً في الاسبوع للواحدة » وعند سؤالي عن الثالثة ، أجابتني امرأة بلهجة أجنبية عن عملي : كيف أقضي نهاري ؟ فقلت لها إنني طالب أدرس في النهار ، وعلمت أنها لا تحب الطلبة وتفضل الرجال الذين يقضون طيلة نهارهم في الخارج ويأتون للنوم عند حلول الليل ، وأنهت المكالمة بأن أقفلت الخط في وجهي .

بدأت أشعر باليأس وتفتتّت العزم ، واتصلت بموظفة التيلفون مرة رابعة ، وانتظرت نحو ربع ساعة حتى أجابت ، فسألتني وهي منفعلة : لماذا لا أدير القرص التيلفوني الأسود بنفسي؟ ثم شرحت لي بصبر نافد كيف أفعل ذلك. ففرحت . وحشرت جسمي في صندوق التيلفون الأحمر أكثر من نصف ساعة . ولا أدري كيف لاحظت شخصين يسيران ذهاباً وإياباً ، في انتظار خروجي ، وكانا يحدجانني بنظرتها العصبية بين الفينة والأخرى .

وقد كنت بطبعي حساساً وشديد الإلتصاق بالرأي العام ، فقررت أن تكون هذه آخر مخابرة ، ولكن الرجل الذي أجابني ، أخبرني بأن صاحبة البيت غير موجودة الآن ، وأنهى حديثه بأن سألني بأدب :

– هل تستطيع الاتصال ثانية بعد نصف ساعة ؟

غادرت مكاني ، وفجأة قفزت إمرأة قصيرة القامة ، كانت تتمتم : لقد حان الوقت لي أنا !!

لم أفهم شيئاً ، وتكومت فوق جدار قريب من الأرض في انتظار دوري ، وبدت لندن في عينيّ أحقر مدينة عرفتها ، وهطل مطر غزير دام نحو عشر دقائق والمرأة القصيرة ما زالت تتحدث بحماسة ، والابتسامة تنتعش في وجهها ، محركة يدها كأنها تقول : « الا تصدقني ؟ » وبالقرب منها كان رجل يلبس معطفاً واقياً من المطر يتنقل في ضيق حول الصندوق ويصوب نظرات للمرأة حاقدة غاضبة ، ووثب تبرمه الى القمة وبدأ يطرق الزجاج بقطعة النقود ، ففتحت المرأة الباب ويدها ذات القفاز ممسكة بالسماعة ، وصرخت كمجنونة :

– هل عندك مانع من أن أتابع حديثي ؟

وصفقت الباب بعنف ، واستمرت تتحدث غير مكترثة بأحد ، والرجل يلقي عليّ نظرات ملتهبة بالغضب كأنني انا الملوم على ما حدث .

قررت أن أعثر على تليفون آخر ، وأخذ مطر كثيف يهطل بشدة ، فحثثت خطاي مسافة خمسين ياردة حتى وجدت نفسي بالقرب من محطة « هوبورن » . دخلت هناك وحدقت في الخريطة المعلقة بجانب المدخل محاولاً أن أعيد إلى ذاكرتي إسماً كنت أعرفه ، وقرأت أسماء كثيرة مثل « كنتيس تاون » « وايتشابل » و « إرلز كورت » ، هذه الأسماء أعادت حوادث القتل الى عقلي ، فقد كنت أدرس الجرائم في مطلع شبابي ، وخيل لي بأني ما زلت أذكر مقتل مومس في غرفة حقيرة بائسة خلف الشارع الرئيسي في « ارلز كورت » فلو هداني حظي إلى غرفة رخيصة هناك لكان الحي يستحق البحث والتفتيش . قطعت تذكرة الى « إرلز كورت » وفي قطار النفق أعدت قراءة مجلة « الاعلان » فعثرت فيها على عنوانين في ذلك الحي ، وحددت موضعها على الخريطة قبل مغادرتي القطار .

كان العنوان الأول مرعباً ، فهو عبارة عن بيتٍ كبير بين صفوف من البيوت العتيقة تحوطه ساحة غرست أشجاراً . لا بد من أن هناك خطأ لأن البيت يشبه

مسكناً لأحد أبطال رواية كتبها « أوسكار وايلد » . ونظرت الى العنوان مرة أخرى فكان لي ما أريد . ضغطت بإصبعي جرس الباب ، وبعد قليل فتح الباب عن خادمة زنجية ، ولما قلت لها بأني أبحث عن غرفة ، هزت رأسها بإبتسامة وقادتني إلى غرفة في الطابق الرابع . كانت السجاجيد سميكة وغالية الثمن ، وجدران الممر مزينة بشكل لم أره الا في قاعات هوليود الموسيقية . وظننت أول الأمر أنني سأرى شقة فاخرة أجرتها الاسبوعية خمسة عشر جنيهاً ، وانني سأبدو غبياً عندما أقول بأنني في حاجة الى غرفة أجرتها عشر هذا الرقم ، الا ان الخادمة الزنجية قادتني الى غرفة عليا ذات سلم ضيق مغطى بشمع فقط ، وفتحت لي غرفة صغيرة جداً ، تحتوي على مدفأة غاز وسرير منفرد ، ومقعد ذي مسندين وطاولة فقيرة . وقد كانت الغرفة باردة ككهف ثلجي . ألقيت نظرة خاطفة من النافذة على أسطحة البيوت الملاصقة وحدائقها الخلفية ، ثم سألت بحياء عن قيمة الاجرة . فأجابت بأنها ستسأل صاحبة البيت . عدنا الى الطابق الأول حيث قرعت جرس باب أبيض ضخم ، وبعد مدة طويلة برزت أمامنا امرأة طويلة ترتدي لباس للنوم ، وقد دُقّ في وجهها أنف كالمنقار . وتجاهلتني بعينيها اللتين تشبهان عيني طير . سألت الخادمة بلهجة آمرة مثل مديرة مدرسة تطلب ايضاحاً :

– ما الأمر يا متيلدا ؟

أجابت الخادمة بخنوع :

– هذا الشاب يريد استئجار غرفة يا سيدتي .

وإتجهت العينان الحادتان نحوي ثم قالت :

-- أي الغرف ؟ الغرفة العليا ؟

– الغرفة المعلن عنها .

– لست أدري عن أي الغرف أعلنا ، فأنا اترك كل ذلك الى وكيل اعمالي .

وهنا تدخلت متيلدا :

– الغرفة العليا يا سيدتي .

– آ ... الغرفة العليا ، أجرتها جنيهان وخمسة عشر شلناً .
وفحصتني بعينيها كأنما تود أن تقول :
– أنا متأكدة من ان هذا الشاب لا يستطيع ان يدفع اسبوعاً مثل هذا المبلغ .
تظاهرت بالفرح – وإن كنت على خطأ – فالأجرة أقل بكثير مما كنت أتوقع .
قلت : – حسناً ، سوف أستأجر هذه الغرفة .
وجاء صوتها غامضاً :
– هل يمكنك أن تدفع أجرة أسبوع مقدماً ؟؟
– بكل تأكيد !
وأخذت أبحث عن محفظة نقودي ، وبدا عليها الضيق ، فقالت متكدرة :
– ادفع الأجرة لمتيلدا .
ثم أغلقت الباب في وجهي وتوارت في الداخل . وغمزتني متيلدا بعطف حلو ، وقادتني ثانية الى الغرفة العليا . وأرتني الحمام والمرحاض ، وكيف علي أن أضع شلناً في عدّاد الغاز ، وبدأت تشرح كيفية إشعال مدفأة الغاز دون ان تسبب انفجاراً وقبل ان تتركني وحيداً في الغرفة ناولتها ثلاثة جنيهات فردت اليّ خمسة شلنات ومفتاحاً للباب الخارجي . وأشعلت مدفأة الغاز ، فسرت الحرارة في داخل غرفتي الصغيرة . تخالطها رائحة شبيهة برائحة المشمّعات .

وضعت كتبي القليلة فوق الطاولة الفقيرة ، ورميت ثيابي في خزانتي ، ثم اضطجعت فوق السرير دون حركة . وبدا لي ان الأجرة مرتفعة ، لأن الغرف التي قرأت عنها في « مجلة الإعلان » كانت أجورها تتراوح بين ٢٥ و ٣٥ شلناً في الاسبوع ، ولكن .. لا بأس ، سأبحث عن غرفة أخرى في المستقبل القريب .
خرجت من غرفتي وفي رأسي تدور فكرة شراء طعام خفيف ، وعند مروري بالقرب من الحمام هممت بالدخول وغسل يديّ ولكن الباب كان مغلقاً ،

فهبطت إلى الطابق الثـاني ، وهناك عالجت باب الحمام فـكان مغلقاً أيضاً ، وقابلت صاحبة البيت وهي تحـوم بقميصها الساتاني الصباحي ، فنظرت إلي ببرود وسألتني بجفاف :

– هل تبحث عن شيء ؟؟

قلت : – نعم لم أعثر على مكان لغسل يديّ فكل الحمامات مغلقة !

– إننا نغلق الأبواب كل صباح بعد التاسعة، فإن كنت تود الإستحمام فعليك أن تدفع شلناً . وقد اعتاد السكان أن يتسللوا أثنـاء النهار ليتهربوا من الدفع . أنا أعني السكان غير الشرفاء فقط .

ورشقتني بنظرة توحي أنها تعتقد في قرارة نفسها بأنني طراز غير شريف ، ثم تابعت قائلة كأنها تلقي درساً حفظته من كثرة الترديد :

– اذا أردت أن تغسل يدك ففي وسعك ان تجد مغسلة في كل المراحيض .

ولما حركت قدمي لأسير نادتني ، وسألت :

– هل اطلعتك متيلدا على الأنظمة المتبعة هنا ؟

– كلا .

– إذن ، فأنا سأقولها لك. انا لا أسمح بأن تطبخ في غرفتك ، أو أن تحتفظ بأي نوع من الأطعمة القابلة للتلف . الغاز هنا لغلي الشاي فقط ، وإذا ضبطت أحـد المستأجرين عندي ، ويطهو شيئاً ، فأنا أملك الحق لإعطائه نصف ساعة فقط لإخلاء الغرفة . هل فهمت ؟ أهذا واضح ؟؟

وفرقعت أصبعها ثم قالت :

أنا لا اسمح ببقاء الزائرين إلى ما بعد العـاشرة ليلاً ، وأبغض ان أرى الغرف مضاءة عندما تكون خالية، ففواتير الكهرباء ضخمة جداً ، ولن يضيرك شيئاً ان تطفىء النور إذا ما نزلت الى المرحاض .

وهبّ صوتها كعاصفة وهي تقول :

– انا لا اسمح بالزيارات النسائية ، ولا اسمح للرجال بدخـول غرف النساء هنا ، فلهذا البيت سمعته الطيبة .

ولهثت كأنها نشوى بحديثها، وجرّت نفسها صاعدة درجات السلم. والتفتت إليّ وقالت مبتسمة :

– هناك أمر آخر ، ستلاحظ وجـود مستأجرين زنوج هنا . وغيري من صاحبات البيوت لا يفضلن وجود الملونين في غرفهم ، ولكنني لا أؤمن بالتمييز العنصري ، وأومن بأن علينا ان نكون مثالاً طيباً لهم . فمن السهل تعليمهم بقليل من الصبر أساليب السلوك والمحادثة ، هم لا يفهمون طرق حياتنا ، علينا ان نساعدهم بكل جهـودنا . واذا لاحظت احد الساكنين الزنوج قد شذ عن قواعد هذا البيت ، فأخبرني أرجوك ..

واطلقت سراحي وتركتني أمضي حيث أريد . ونظفت يديّ ووجهي ، وغمرني عرق بارد عندما اكتشفت أن غرفتي كانت مضاءة . فرجعت وأطفأتها ثم غادرت البيت لأسوح بلا هدف في « إرلز كورت » وزخـات من المطر تبلل ثيابي . كانت جموع من النـاس تعوم فوق الأرصفة النظيفة ، تتخبط كسفينة ضائعة في بحر هائج الأمواج ، كانت كئيبة وحزينة عيونهم مما ادخل الحزن إلى نفسي ، وزالت همومي لدى رؤية حانوت لبيـع الكتب القديمة ، ما أروعها من متعة ، رؤية الكتب وهي تنـام على الرفوف ! قضيت ربع ساعة وانا أقرأ عناوينها ، وثارت اضطرابات معدتي ، وخرجتُ ورائحـة الخضروات العفنة تزكم أنفي ، هـذا الموضوع لا يتطرق اليه كتّاب القصص عادة لإعتقادهم بأنه يقوم بدور صغير في حياتنا اليومية ، حتى الإعلانات التي تتحـدث عن رائحة الجسم الزنخة والأنفاس المؤذية . لم تقدم لنا اقتراحاً بإستعمال نوع من الحبـوب تزيل رائحة أمعائنـا الفاسدة أو تخفف من حدتها ، كم كرهت رائحة معدتي !!

ابتعت نسخة مترجمة من تمثيليات « غريلبارزر » ومجلداً يحتوي على قصص عديدة « لأندرييف » وسرت تحت المطر شاعراً بالسرور .

وإبتلعني مقهى شربت فيه ثلاثة أقداح من القهوة ، وحـدقت فترة في الشارع المغمور ماء وكتاب « غريلبارزر » يستلقي امامي على تمثيلية بعنوان « الحلم حيـاة » قرأتها وانا في الرابعة عشرة من عمري . كانت هذه وتمثيلية

« حسن » التي كتبها « فلكو » من افضل التمثيليات عندي . الحلم حياة .. الكلمات لم تحمل معنى كبيراً ، وانا منزرع في مقهى صبيحة يوم جمعة ، ومما يدعو الى الراحة ان تكون حياتنا حلماً حلواً او كابوساً مخيفاً ، الا انها لسوء الحظ ليست واحداً منها . ولندن هذه لم تكن مدينة غير حقيقية ، مدينة صاخبة ، مدينة ملأى بالأحلام تسكنها أشباح غير مرئية تتحكم فيها صاحبات البيوت كالتي خلفتها ورائي في « كورتفيلد غاردنز » ونساء ثرثارات كالمرأة التي قفزت امامي بالقرب من صندوق التيلفون الأحمر ، والناس هنا ترهقهم مشاغلهم الخاصة ولا يُعنى أحدهم بالآخر ، ويقاتلون بعضهم بعضاً وهم يشقون طرقهم بين الحشود الى قطارات نفقية مكتظة ، ويقفون صفوفاً طويلة طويلة لتناول طعامهم في مطاعم قذرة ، ويهرولون كالمجانين في ممرات مخازن البقالة المعروفة باسم « إخدم نفسك » . كل هذا مخيف وسخيف ، هذه ليست حضارة ، فلمَ يعيش الناس في هذه المدينة البشعة ؟؟

وعلقت عيني على مقدمة مجلد « اندرييف » لأطرد هذه الأفكار من عقلي ، ومن المقدمة فهمت أن المؤلف يعتبر الحياة عبثاً لا طائل تحته ، وقد كان يعالج في كل قصصه الطرق الملتوية التي يخدع بها الناس أنفسهم ، وكيف لا يجدون بعد تبخر اوهامهم الا ألم البقاء والوجود ، ورد تفاؤلي الطبيعي فحيح هذه الفكرة المتطرفة ؛ وقذفت بها بعيداً عني ، وأفقت عندما نظرت من النافذة لأجد نفسي تنهي تشردها بأن أتطلع الى اعلان ملون كبير ، يعلن عن سلسلة مقالات حول الديانة المسيحية ، بقلم كاتب شهير ، بدأ بنشرها في احدى المجلات النسائية . كان وجهه وهو وجه طفل بصورة مكبرة ، ينظر الي عبر الطريق ، محرضاً إياي على شراء مجلة اسبوعية معينة لأقرأ فيها مقالاته عن « تقدم الحج » .

ارتشفت ما بقي من قهوتي وانسللت من المكان .

وفي غرفتي أحصيت النقود التي معي . عشرون جنيهاً ، ورحت أدون على قطعة من الورق المدة التي سأعيشها بهذه النقود ، وتأكدت من أمر واحد هو عدم رغبتي في البحث عن عمل ، فكلما إزددتُ إلتصاقاً بلندن ، وعرفتُ

عنها الكثير ، جرفني تيار جنون طاغٍ الى الانعزال في برج مهمل في الريف ، مغطى بالعلّيق كإحدى شخصيات « بيكوك » وقضاء الأيام في دراسة آباء الكنيسة . قد أذهب الى مكتب العمل طالباً عملاً بأجر حسن ، او عملاً كتابياً غير مرهق ، فلا بد من وجود وظائف شاغرة في مكان ما من لندن ، ألتذ بإدائها ، كأن اعمل في مسرح صغير ، او في مكتب أحد الناشرين ، ولكنني لا أعرف احداً . وانحصر الأمل في ان يقودني حظي الى عملٍ ما ، إلا ان هاتفاً داخلياً وشوشني بأن الحظ لا يميل إليّ بصورة حسنة ، فقد كان من الواضح أن قدري الذي ساقني الى البيت الواقع في « كورتفليد غاردنز » سيعبث بي طويلاً .

جلست قرب النافذة ، وداهمتني مشاعر شتى لم أجد حلاً لها ، نعم ، انا ساخط ، ونزق السؤال . على من ؟ على المجتمع ؟ لا ، هذا شرود ذهن . على القدر ؟ لعل هذا تطيّر وتشاؤم . فالمعضلة أبسط من ذلك ، انا احب ان أكون حياً ، ان أحيا ، رغم كل الصعوبات والبؤس . احياناً تتعلق بي فكرة تقول بأن الحياة قوة جبارة تحيل الرجال الى آلهة . ولكن عالمنا نُظّم بشكل يجعلني غير قادر على ان امتلك هذه القوة . وكنت ساخطاً على صاحبة البيت ، اذا يعيش مثل هؤلاء الناس ؟ لماذا تريد إرهاب البشر الذين يحملون ملامح مثل ملامحها ؟ سأعشق العالم . وسيبدو مرضياً جداً لو صرعتْ اللعنات كل الأعضاء التالفة في عالمنا ، كل الناس التافهين . وتركزت حيرتي فجأة ، على احتقار وحشي للمرأة وللعالم الذي تمثله . وعلمت بصورة مؤكدة الشيء الذي لا أريد ، وبدا لي على حين غرة ان الحضارة كانت بداءة مزورة ومضاعفات أخفت الحقائق وألقتها في ركن مهمل . فالحقيقة بسيطة ، وهي أن القوة كانت العنف الطاغي للتاريخ . إلا ان ظروف الحياة في كل المجتمعات كانت فريضة قاسية لم تترك مجالاً للتأمل في قوتها ، وعلينا ان نروض حياتنا ، ونتعلم كيف نبسطها . ولا أدري لم حننت الى فكرة « جان جاك روسو » عن الحياة الطبيعية البسيطة بين الأشجار ، وعن المزايا التي يملكها المتقشفون الهنود في جوهم

العنيف . كانت الطريقة المثلى للاحتفاظ بنقودي اطول مدة ممكنة ، هي البقاء في غرفتي وعدم مغادرتها إلا لأسباب طارئة ، ولكن لم استطع مقاومة رغبة الانعتاق من غرفتي ، فذهبت بعد الظهر الى المكتبة العامة في « كنزنغتون » وأنفقت نحواً من ساعتين متجولاً بين رفوف كتبها، وعندما غادرتها قبيل الساعة الخامسة ، وشاهدت الجموع البشرية تجر أقدامها في الشوارع المضاءة ، أصبت بالانزعاج ، فهبطت سائراً في اتجاه حديقة الهايدبارك .

كانت الأمسية باردة تعلق فيها ضباب خفيف ، وكانت الساعات التي قضيتها في المكتبة مسكنة لأعصابي ، مما جعلني أحتمل رؤية الألوان والأنوار من حولي ، وأدركت أنني سعيد لكوني في لندن .

قد تكون المدينة بشعة متعبة ، إلا ان فيها بهجة بمعاناة كل سيئاتها ، حتى أن تمثال ذكرى « ألبرت » أثرت في نفسيتي بشكل طريف . وتذكرت قصة كنت قد قرأتها عن « هاري ذو » قاتل المهندس المعماري « ستانفورد وايت » فقد روي انه قال عندما رأى هذا التمثال التذكاري :

– يا إلهي ! لقد أطلقت الرصاص على مهندس لعين آخر .

وكان بيتشام يقدم سلسلة جديدة من الحفلات الموسيقية في « البرت هول » ، كما أتى الكونت « بيزي » بجوقته الموسيقية إلى « فستيفال هول » التي بنيت حديثاً . ومررت بثكنة « نايتزبريدج » حيث اعتقل احد الجنود الجدد عند منتصف الليل ، وهو يقعي ككلب في غرفة الحرس ، وخرجت امرأة ترتدي معطف فراء ثمين من فندق « هايدبارك » ، وهي تزعق منادية :

– تاكسي تاكسي ..

وكان هذا كله غير قابل للتفسير ، قبل بضع ساعات ، إلا انه الآن ، لم يبعث في نفسي الخوف او الاضطراب . وتدفق شعور عارم أدهشني وأذهلني : إنه الحب ، لا حب لندن او أُناسها ، بل حب لا صلة له بالجسم ، حب منفصل لا علاقة له بشيء ... مثل الكونياك في ليلة باردة . ولما هدني التعب ، ركبت الباص من « نايتزبريدج » الى ميدان « كمبريدج » وتسمرت لحظات على ناصية

شارع « شافتربوري » لأشاهد اثنين يغنيان بحزن على أنغام أوكارديوم عتيق ، ثم دخلت الحانة التي شربت فيها الليلة السابقة . كانت خالية تقريباً ، وطلبت قدحاً صغيراً من البيرة وحملته إلى ركن منعزل ، وعاودت قراءة « أندرييف » لكنني عجزت عن تركيز ذهني ؛ وفكرت بأنني لو بقيت نصف ساعة أخرى لما كان لدي ما أفعله سوى دخول حانة ثانية او العودة بالباص الى غرفتي ، أو ان انتصب في صفوف المنتظرين لدخول مسرح من المسارح . وكانت رواية « إليوت » : « امين السر » تعرض في مكان ما ، ومن الغريب ان الباب كلما انفتح التفتُ بإنتباه لأرى الوجوه ، كأنني كنت في انتظار صديق .

ولسبب لا أعرفه قضيت مدة أطول من نصف ساعة شربت فيها قدحاً آخر من البيرة ، وغرقت في شعور غامض انبأني بوقوع حوادث غير عادية في حياتي القادمة ، وجلست هنا منتظراً شيئاً مجهولاً ، ثم انفتح الباب وتمخطرت فتاة رائعة الجمال في العشرين من عمرها ، كانت وحيدة ، واتجهت نحو البار وطلبت قدحاً من « الشيري » وتلفتت في انحاء المكان فاحصة كل وجه . لم ينتبه اليها أحد ، رغم انها لو دخلت اية حانة في بلدتي لأحدثت تأثيراً صاخباً في النفوس .

وظل المقعد الملاصق لي خالياً ، وخيل إلي ان منظري يوحي بالبراءة والسذاجة وانا اقرأ كتابي في حانة . فجاءت وجلست قربي يضايقني عطرها ، ثم اشعلتْ لفافة تبغ ، وبعد لحظات قالت لي :

— أهذه هي الحانة الوحيدة في هذا الشارع ام هناك حانات أخرى ؟؟

— لست واثقاً ، ولكنني سأستفسر عن هذا إذا اردتِ !

وهنا انحنى رجل وسألني :

— هل تحب ان ارسم وجه صديقتك ؟

ونظرت إلى الرجل ثم الى الفتاة مندهشاً ثم قلت :

— إننا لم نأتِ معاً .

— آ ، عفواً .

كان صوته جميلاً بطيئاً كصوت ممثل ، كما كان يحمل مسنداً للرسم وأوراقاً كثيرة ، واغتنمت الفتاة الفرصة وسألته :

– اهناك صالون آخر في هذه الحالة ؟

– نعم ، هناك .

– في هذه الحالة سأمضي ، لأنني في انتظار صديق .

تركتْ قدح « الشيري » على المائدة وانصرفتْ ، وجلس الفنان مقابلي وقال بصوته الجميل : – هناك دائماً أحد في الانتظار .

– اظن ذلك .

– حسبتها سائحة اميركية ، مظهرها يدل على الغنى .

وعادت الفتاة مرة ثانية . فدهشنا من رؤيتها بيننا .

قالت قبل أن تجلس : لم اجده هناك .

وبحركة مسرحية جيدة إنحنى الفنّان ووجهه يعكس مزيجاً عجيباً من الود والاحترام وقال :

– في هذه الحالة سأرسم لوحة وجهك، وانا أتقاضى شلنين ونصف ثمناً لكل لوحة ، ولك الحق ان ترفضي ان كنت لا ترغبين برسمك .

– اتفقنا ، ولكن اذا جاء صديقي وأنت لم تنته بعد ، فعليّ ان أغادر .

– لا بد ان يكون رجلاً سعيداً هذا الذي تنتظرين .

كان خادم الحانة يحدق فينا كأنه غير راض بوجودنا ، ولاحظت أن الفنان لم يطلب شراباً ، فسألته :

– هل تريد ان اشتري لك قدحاً ؟

– أريد قدحاً صغيراً من البيره ، وشكراً .

وضعت القدح أمامه وجلست صامتاً أرقبه وهو يرسم الفتاة. والتفّتْ ستائر من الغبطة الحنون حول نفسي ، انها صلة إنسانية ، فأنا هنا مع فتاة لم أرها قط ، ومع رجل لم أعرفه ، وبيننا نحن الثلاثة نسيج عنكبوت من المودة والحب . غمرت صفحة وجهها الساذج برذاذ من نظراتي عندما سألت :

– هل تقوم بهذا العمل كمصدر للرزق ؟
– كلا . فأنا ممثل عندما تتاح لي فرصة التمثيل .

تسللت حركات الفنان إليّ وانا اشاهده من بعيد ، مداعباً بقلمه العادي تقاسيم الفتاة . لم يكن موهوباً ، فقد هاجرت ملامحها من على اللوحة وضاعت دون عودة . لو كنت انا الرسام لاستعملت قلماً من الفحم ، فالصورة المرسومة بالفحم تخلف تأثيراً حاداً في النفس. إن حركات الرجل تمثيلية ناجحة جداً، كان ممثلاً في كل شيء ، فوجهه الأسمر الداكن الجميل يشبه وجه ممثل شاب يقوم بالدور الأول في مسرحية شهيرة . وثيابه لم تكن جديدة ، ولكنها حسنة التفصيل ، بألوان مختلفة . بدلة غامقة . وقميص من الصوف بخطوط مربعة ، وربطة عنق صفراء ، ومعطف متآكل في نهاية الكمين ، وكان شعره الأسود الجعد ، يضعه في مرتبة كبار ممثلي الماتينه ، ويرشحه ليكون إعلاناً متنقلاً لزيت من زيوت الشعر .

وسألها مادحاً :

– هل انت من لندن ؟ فلهجتك الشهية سخية بالعطاء مما يدل على أنك لست من لندن .

– انا من نيوزيلنده .
– هل زرت هذه المغارة ، أعني هذه الحانة من قبل ؟
– كلا . فمن عادتي ان لا أدخل الحانات وحيدة !
– اظن انك غيرت هذه العادة .
– انا في انتظار صديق ، وعد بأن يصحبني الى المسرح .
– وهل تأخر عن الموعد ؟
– قليلاً .
– وماذا ستفعلين إن لم يأتِ ؟
– لست ... لست أدري ، قد اعود الى مسكني .
– بهذه السرعة ؟ الا تتصلين به هاتفياً ؟

– لا أعرف رقم تلفونه .
نظر اليها لحظة ثم سأل :
– أهو من الأصدقاء الجدد ؟
ترددت قليلاً وترسب الجواب ، وكانت صريحة عندما قالت :
– قابلته في الليلة الماضية .
– في احدى الحانات ؟
– كلا ، ولِمَ هذا التحقيق وهذه الأسئلة ؟
– أشعر بإنسجام كامل تجاه النيوزلنديين ، فأحب أصدقائي في الجيش كان من مواليد « كرايستشرش » وكدت ان أتزوج أخته ، ولهذا أحب الحديث مع النيوزيلنديين ، فهم أبرياء جداً ، وأنت بريئة وحلوة ، والا لِمَ تتحدثين إلى رجلين غريبين في حانة مخيفة بحي سوهو ؟

وشعرت بشيء من الإعتزاز إذ شملني في حديثه معها ، ولكن طريقة حديثه الذكية أعطتني درساً عنه . وبدا على الفتاة الرضى برفقتنا ، بل ذكرت لنا اسمها كاملاً : دورين تيلور . وهنا قدّمت نفسي لها ، وفي النهاية قدّم لنا الفنان نفسه . جيمس ستريت ، أما اسمه الحقيقي – كما قال فهو : « جيمس كومبتون ستريت (١) » وقد حذف كلمة « كومبتون» لأن الناس في سوهو اعتبروا هذا الاسم نكتة حلوة وتناقلوها بينهم . وكان لزاماً عليه أن يشرح للفتاة التي لم تسمع أبداً بشارع « أولدكومبتون » . وانهى جيس رسمه وعرضه عليها ، فراقبت الوجه بدقة ، ولم تبد ما يدل على خيبة أملها . ثم قالت :
– هذا جميل ألا يشبهني بشكل مثير ؟
الإثارة هي أخلص تعبير للتقليد .
ولما فتحت حقيبة يدها لتعطيه النقود ، تابع حديثه قائلاً :
– انتظري . دعيني أقترح أن تدفعي لنا ثمن ثلاثة فناجين قهوة في مكان

---

١ – ستريت بالانكليزية تعني : شارع ، وهناك شارع في لندن يسمى « أولد كومبتون ستريت » حيث تتجمع العاهرات . (المترجمان)

قريب ما دام صديقك لا ينوي صحبتك ، وبعدها سأكون دليلك في حي سوهو لأنني أعرفه .

وظهرت كأنها مقتنعة بهذه الفكرة ، إلا أنها قالت :

– الأفضل ان أمهله خمس دقائق أخرى .

وأغرتني فرصة قضاء بقية الأمسية معها على التعاون مع جيمس لإقناعها بعدم الانتظار دقيقة واحدة . وأخذ يتحدث بطريقة مقنعة عن مزاياه الكثيرة كدليل لحي سوهو . وأخيراً وقفت على قدميها وقالت :

– أعتقد انه لن يأتي الآن . وفي وسعنا الذهاب أيضاً ..

وبينما هي تتكلم ، انشقّ الباب وظهر شاب يرتدي ثياباً زاهية ، ومعطفاً أبيض اللون وقبعة من الطراز الأميركي. ولوّح لها بيده ، وسمعت جيمس يتمتم: « يا للعنة » وقالت الفتاة : ها هو قد جاء .

فهمس جيمس بسرعة :

– هل يمكنك ان تأتي غداً الى هذه الحانة ، حتى أتمكن من إنجاز لوحتك ؟

وخلال هذه اللحظات وصل إلينا صديقها ، لكنني لاحظت أنها قد هزت رأسها بسرعة دليل الموافقة ، وشاهدت في عيني جيمس نظرة خداعة استمرت ثانية ، توحي بالرضى عن خطته .

عرّفتنا دورين على الرجل الذي نسيت إسمه الآن ، وكان يحمل وجهاً بلون القرميد الأحمر ، ولهجته عامية تسمعها في أندية سباق الخيل ، وجاءت اعتذاراته قصيرة جداً : « متأسف يا حبيبتي على تأخري ، فقد أعاقني بعض الأصدقاء . آسف . » ثم صوّب إلينا نظرات يبطنها شك كبير ، وبرز ذكاء دورين عندما قالت له :

– اثنان من أصدقائي القدامى .

ومن حسن الحظ انها تذكرت اسمينا .

فقال :

– انا سعيد بمعرفتكما .

وأمسك بذراعها وهو يقول :

– هيا بنا قبل ان نتأخر .

قال جيمس فيما هي ماضية مع صديقها :

– سأراك عما قريب يا دورين .

فكان جوابهـــا ابتسامة سريعة متألـّقة . وبعد ان غادرا الحانة جلس وسألني :

– ماذا تقول فيها ؟

فأجبت : رائعة .

– ألا ترى أنها ُمثقلة ؟

– ُمثقلة ؟ ماذا تعني ؟

– أعني انها مثقلة بالنقود ، لعلها سائحة ثرية .

– من المؤكد انك لست مهتماً بها ، من حيث إن كانت غنية او معدمة .

– لا . لا أمانع في ان تشاركني سريري بنقود أو بغـير نقود .. ومع ذلك فالنقود ... كيف نصوغ العبارة ؟ إغراء اضافي .

أحسست بأنه سيصدمني بهـــذا الحديث . فقررت ان لا أتيح له الفرصة . وسألته :

– هل تريد قدحاً آخر ؟

– هه . لا أدري ، لا يجوز لي ان أتناول شراباً آخـر قبل ان آكل ، إذ لم آكل شيئاً حتى الآن .

– وهل تود ان تأكل في هذا الوقت ؟

– كان في إمكاني ذلك لو دفعت دورين ثمن صورتها ، ولهـذا وجب عليّ ان أجد زبوناً آخر أولاً .

وألقيت نظرة خاطفة على خـادم البار الذي ظـــلّ يتطلع إلينا بشيء من الريبة . ثم قلت لجيمس :

– هذا الرجل لا يحبنا ولا يريد بقاءنا هنا ، فهو يحدق فينا دائماً .

– إنه لا يحبني أنا ، ولعلي أجد حانة ثانية ، هل تريد المجيء معي ؟
قلت عبارتي هذه متمتماً ودون وعي . إنه مفلس ، وبدا لي ان من أبسط الأشياء الطبيعية ان أدعوه الى العشاء.
– هذا لطيف منك ، وقبول دعوتك يسرني ، فعملي يكون أنجح عندما تكون معدتي ملأى بالطعام .
– أعرف مقهى قريباً (وهو المقهى نفسه الذي كنت فيه بالأمس) .
فقال دون ان يزعج نفسه بالسؤال عن المقهى :
– سآخذك الى مكان جميل .

وانطلقنا نسير في طريق « شيرنغ كروس » متجهين الى شارع « دين ». وشعرت بالخوف . قد يكون المكان الجميل الذي سنأكل فيه من الدرجة الأولى ، ويكون ثمن وجبة الطعام أكثر مما قدّرت ، وعادت الى ذاكرتي ملاحظته عن حيازة الفتاة نقوداً كثيرة ، وتساءلت هل وقعتُ بين يدي أحد المحتالين ؟ انه يضحك في قرارة نفسه عليّ ويظن انه اكتسب ثقتي ، ومن المفروض أن يعج حيّ سوهو بأمثال جيمس. وقررت ان لا أدعه يعرف مقدار ما أحمل من نقود . وبعد دقائق شعرت بالخجل لأنني ارتبت فيه .

نزلنا درجات ضيقة ووجدت نفسي داخل مطعم أرضي ، وسمعت أناساً يتحدثون بلغة يونانية ، وشممت رائحة علمت فيما بعد انها أكلة يونانية . كانت جدران المطعم مدهونة بلون أخضر يفتح الشهية ، وعلى الطاولات الصغيرة أغطية بلون الزيت ، وحفنة من الرجال يلعبون البليارد في غرفة مجاورة . وتمركزنا خلف طاولة صغيرة ، وبسرعة جاءنا رجل سمين وناولنا قائمة الطعام – خيل لي انه يعرف جيمس حق المعرفة – فقرأناها معاً ، وعند إطلاعنا على اسعار المأكولات شعرت بالإرتياح التام ، لعلمنا الآن بأن الأسعار هنا أرخص مما كنت أتصور .

طلبنا « كباباً » مع بطاطا مقلية وقدحين من الشاي مع خبز يوناني شهي . وبدأ جيمس في التحقيق معي ، وسؤالي أسئلة متشعبة . ولما ذكرت له الأسباب

التي دفعتنا الى هجر بلدتي الصغيرة قال :

– مثلتُ هناك .

وتابع قائلاً :

– إنها مستنقع قذر ، وأعنى بلدان انكلترا ، ولا يوجد فيها مسرح محترم .
وعاد يذكرني بأنه كان على علاقة بإمرأة تاجر – عرفته شكلا عندما ذكر إسمه – غني جعلته يواظب على عمله لعدة أسابيع : « كانت واسعة النفوذ ، هذه المرأة ، وكانت الصعوبة في الأمر انها كادت ان تمزقني ، فهي قاسية مستبدة ، ولكن لا خيار أمام المعدمين أمثالي . »

وحاولت ان أُوقف سرد هذه الذكريات المؤلمة ، ان اجعله يتوقف ، ان أحول بينه وبين الاستمرار في البكاء على الماضي بالكلمات فقط ، فسألته :

– كيف ترضى بهذه الحالة التي تعيشها الآن ، وانت ذو مواهب بارزة برسم الناس في الحانات الضيقة مقابل شلنين ونصف لكل لوحة ؟

أجاب بسرعة :

– وكيف عرفت انني موهوب ؟

– صوتك الجميل ، وشخصيتك المرحة القوية ، ومن المؤكد انك قادر على العمل حتى ولو في فرقة ريفية .

– لا شك في ذلك. ولكن من يريد العمل في الأرياف والمسرح يحتضر هناك ، وأنا أفضل البقاء في لندن حتى يعترف « الويست إند »(١) بمواهبي كممثل .

– ولِمَ لا تجرب تعليم الأصوات ؟

– افضل ان أعيش كما انا . ولا أريد مطاردة الأشياء باستثناء النساء طبعاً . وحتى هنا لا أجد لديّ روح المنافسة ، فإن كانت الفتاة راغبة وجدتني سعيداً في تلبية رغبتها .

وجاء الطعام تحمله فتاة سمراء . إبتسمت لجيمس وكانت لهجتها رائعة إذ

---

١ – « الويست اند » حي المسارح والفنانين في لندن .

سألت :

– كيف حال ممثلنا النابغة ؟

وضع جيمس يده برفق على صدره وأجاب :

– على خير ما يرام ، شكراً لك يا عزيزتي ، وكيف حالك أنتِ ؟

– بخير .

وأمسك بيدها وراح يفحصها كالخبير ثم قال :

– أرى انك عدت ثانية الى « المانيكور » . وهــل كنت تتشاجرين مع زوجك في الأيام السابقة لأنه قال لي أنكِ كدتِ ان تمزقي جلده بأظافرك ؟

وكان جوابها إبتسامة شهية .

رد شيء من سلوكه هذا ذكريات إبتعدت عنّي، فهو عندما تكلم مع الفتاة، كان صوته دافئاً فيه شيء من الحرير وأعمق من المعتاد ، وكانت عيناه تتراجعان قليلاً كأنما ينظر اليها نظرة موضوعية لا عاطفية فيها ، ثم تذكرت . إنه مزيج من رودلف فالنتينو في رواية «الشيخ » وتشارلز بواييه في «حورية لا تتبدل» . وأطلقت بعد ذلك على هذا السلوك اسم « سلوك جيمس العاشق الكبير » وبدت الفتيات مسرورات به ومتملقات دون ان ينوّمن مغناطيسياً ، ولكني لا أعرف شيئاً عن نفسية المرأة المتقلبة .

ولما انصرفت الفتاة اليونانية قال :

– قطعة « تشارفر » نفسية .

– « تشارفر » ؟ ماذا تعني ؟

– إنهــا من صياغتي ، فالكلمة الأنكلو – ساكونية قصيرة وينقصها النغم ولذلك إستعرت هذه الكلمة من اللغة الروسية .

وأخذ يغني أنشودة في رواية « الأمير ايغور » فقاطعته قائلاً :

– لا بد أن تكون الكلمة « سلافا » .

فظهر عليه الإهتمام وقال :

– أنت واسع الثقافة ، ومع ذلك لا يوجد أي فرق ، وما دمت أشرت الى

هذه الكلمة فإني مؤمن بأنها بولونية الأصل معناها بعيد عن الفهم .

وعند الإنتهاء من تناول الطعام ذهبنا الى حانة جديدة ، حيث أقنع جيمس تاجراً مخموراً وشاباً يغازل فتاة بأن يرسمهم جميعهم ، وأصر على شراء قدح من الويسكي لي ، ولما أشرت إلى حاجته الماسة الى المال حرّك يده وقال :

– لقد أكلت اليوم !

كان موقفي تجاه جيمس في هذه المرحلة المبكرة ، موقف المعجب ، وسرني أن اكون صديقاً له. وقد شعرت بنوع الفتنة والتقدير لسحر سلوكه وثقته القوية بنفسه ، وهذا التقدير لم يكن منبعثاً من سلوكه الساحر بل من جرأته النادرة ، وخيل لي أنه أقوى الناس الذين صادفتهم في حياتي، ثقة بنفسه ، وأقلهم إنقساماً للشخصية ، ومع ذلك لم يأكلني حسد بشع، فقد راق لي بصورة أكيدة، ولكنني لم أكن على استعداد لدفع ثمن التحرر من إنقسام الشخصية ، وكان تطفلي نحوه دون حد .

وقبل نصف ساعة على موعد إغلاق الحانة جاءت جماعة من طلبة الفنون ، فقفز جيمس ليتحدث معهم ، مخلفاً إياي وحيداً في زاوية ، ولم أدر ان كان يعرفهم او انه ذهب ليسألهم عما إذا كان يستطيع رسمهم ، وبعد دقائق عاد وقال لي :

– ما أروع هذه الفتاة ! هل تعرف شيئاً عن الأدب الروسي ؟

– قليلاً . لماذا ؟

– تعال وشاغل صديقها بالحديث، فهو يكتب أطروحة طويلة عن الكتّاب الروس .

وأذكر الآن كيف رحت أتطلع إلى وجوههم وجيمس يقدمني اليهم قائلاً :

– صديقي هاري (كنت متأكداً من انه نسي اسمي الآخر) .

غمزني بعينيه عندما قدمني إلى فتاة جميلة اسمها ميرا ، ممتلئة الجسم تحمل أنفاً كبيراً ووجنتين قرمزيتين جذابتين ، وكان صديقها الشاب شاحب اللون بلحية شقراء .

وانهمرت الكلمات من فمه في التحدث عن دستويفسكي . - علمت أن جيمس قال له إن صديقي هاري قد وضع كتاباً عـــن مؤلفات دستويفسكي الأولى - وتألقت حماسي ملتهبة قويـــة بتأثير شرب ستة أقداح من البيرة ، وتناولت بالتفصيل كلاً من اكزاكوف وبيزمسكي ، وكانت خيبة أمل ، فقد كان شاحب الوجه صامتاً كقبر ، لم يقرأ شيئاً لأحد من الأثنين ، واختفى جيمس مع ميرا . ولم يهتم صاحبنا بالأمر ، ومضى شارحاً لي نظريته الغريبة عـــن دستويفسكي الذي قتل أباه لأنه كان يعشق أمه . قلت بدهشة :

- أنا لم أعلم أن دستويفسكي كان عاشقاً لأمه !

وقبل ان يفتح فمه ليقول شيئاً ، قرع جرس الحانة معلناً عن آخر موعـــد لشراء مشروب جديد ، فنهضت من مكاني واشتريت مشروباً لهم ، دفعت ثمنه من جنيه جديد آخر ، ثم خرجنا جميعاً . وعند باب الحانة الخارجي تبـــادلنا تحية المساء ، وسرت وحيداً مرة ثانية ، فاتجهت نحـــو شارع « اكسفورد » . لم اكن ثملاً ، بل سرني ان أتظاهر بالسكر ، وفي زاوية شارع « راثبون بليس » قبضت يدٌ لم أعرفهـــا على ذراعي ، والتفتّ بسرعة ، ونظرت . فإذا بي أرى جيمس يحتضن ميرا بحب .

قال :

- أين تسكن ؟

- في « ارلز كورت » .

- لنذهب الى هناك حتى نشرب هذه !!

وأخرج نصف زجاجة ويسكي .

- من الذي اشتراها ؟

- ميرا .

وسرنا إلى ميدان « ليستر » ومن هناك أخذنا قطار النفق إلى «ارلز كورت» وشعرت بهناء شامل وطيش عجيب . ولما اقتربنا من البيت ، قفزت الى عقـلي صاحبة البيت بوجهها العصفوري ، محاطاً بهالة كبيرة من الوقاحـة والكحول .

رسمت خطة ناجحة . فاتجهت الى الباب وفتحته ثم أعطيت المفتاح الى جيمس الذي بقي في الشارع . وصعدت الدرجات وتأكدت من عدم وجود أحد ، ونفذت الخطة بأن أضأت النور في غرفتي مرتين ثم أطفأته ، وبعدها بلحظات دخل مع ميرا وهما يسيران على رؤوس أصابعهما .

اعتذرت لعدم وجود طعام أو قهوه ، وكان جواب جيمس فتح الزجاجة ، وبدأ حفلة الشرب الصغيرة ، ولسوء حظي داهمني نعاس قوي ، شلّ حركة أجفاني ، وميرا تروي قصة صديقة لها أصبحت « مومساً » ...

وفكرت بأن أروي لهم حكاية صديق لي ، ولكن القصة كانت مهلهلة مضطربة حتى في أذنيّ . وتكوم جيمس وفتاته فوق السرير محتجّين بأن حرارة الموقد مرتفعة . وبدأ العناق ، فشعرت بالحرج ، ولم اجد حلاً لذلك الا النوم في الشارع . وبالفعل قضيت ما يقرب من النصف ساعة في غرفة المرحاض ، إلى ان حاول أحدهم فتح الباب . ورجعت الى الغرفة فرأيتهما ملتحفين بلحافي ، و « خراطة » الفتاة ملقاة على الأرض .

أوشك الليل ان ينتصف ، وتذكر جيمس أن يسألها عن مكان سكناها ، فأجابت « ريكمانورث » وقد فاتني آخر قطار !

سألت :

– الا يمكنك ان تبقيها هذه الليلة في غرفتك ؟

– الحقيقة يا صديقي أنني لا أملك غرفة ، وانا مقيم مع صديق في آرتشواي .

وخرجت ميرا تاركة الغرفة لنا ، حتى نجد حلاً لهذه المشكلة .

وتابع جيمس قائلاً :

– هل تمانع إذا نمنا على الأرض لمدة ساعتين ؟ سنتسلل عند بزوغ الفجر ، وإذا خرجنا الآن أحسّت بنا صاحبة البيت .

اقتنعت بحجته هذه ، وصعب علي ان تنام الفتاة على الأرض .

قال جيمس :

– شكراً يا هاري . اظن الفتاة غير راغبة في ان تنام .

اكتفيت بأن أخذت غطاء الفراش وبطانية واحدة ، ووضعت تحت رأسي مسنداً كمخدة ، وهكذا نمت فوق قطعة من بساط صغير .

عند عودة ميرا إلى الغرفـــة ، قالت إنها قابلت إمرأة على الدرج ، فقمت مذعوراً ، وطلبت وصفاً للمرأة . وصفها للمرأة ردّ إلي طمأنيتي ، فقد كانت من الساكنات في الطابق الثاني . وخرج جيمس وبقيت وحيداً مع الفتاة ، فسألتها ان تدير وجهها الى الخلف حتى أخلع ملابسي وأرتـــدي البيجاما ، وخلعت ثيابها دون خجـــل أو إحمرار وجه ، وصعدت إلى السرير بملابسها الخفيفـــة « التحتية » ثم ما لبثت أن نزعتها وقذفتها بعيداً عن السرير . وأطفأت مدفأة الغاز وأدرت ظهري للسرير ، وحسبت بأنني لـن أنام مطلقاً . ولكن غرقت في نوم عميق بمجرد إطفاء النور ، واستيقظت مرتين عندما خرج واحد منهما ، إلى المرحاض ، والواقع أنهما كانا حريصين على التكتم،إذ لم اسمع صدى لحركاتهما. وصحوت فجأة على صرير الباب إذ كان مقفلا،فدببت على يديّ ورجلي وفتحته، وكنت أعتقد ان جيمس قد أغلقه دون شك ، ودخلت صاحبة البيت بفستانها الأطلس كعاصفة ، وصرخت :

– حدث ما توقعت ، فماذا تقول دفاعاً عن نفسك ؟

لم يكن بوسعي أن أقول شيئاً ، وكانت البطانية تخفي جسدي ، والبساط تحتي يمنع تسرب البرد إلي ، وانا لم أجد حجة مقنعة لأرد عليها .

وعادت تصرخ في وجهي :

– من أجاز لك ان تُدخل زوجين إلى غرفتك؟

وكأبله قلت :

– أنهما غير متزوجين .

وبرقت العاصفة :

– عليك أن تغادر هذا البيت في صباح هذا اليوم .

ثم خرجتْ فناديت :

– وأين الأجرة التي دفعتها لك ؟

– لقد خسرتَها .

ونهضت لأغلق الباب إذ تركته مفتوحاً على مصراعيه، وهنا برز رأس جيمس من أسفل الغطاء قائلاً « يا لجهنم » آسف لما حدث » وكشفت ميرا عن رأسها أيضاً قائلة «أشعر برعب فظيع» . ووجدت قطعة حسّاسة من ملابسها الداخلية عالقة بقدمي اليسرى ، فألقيتها إليها ، ولبست ثيابي إذ لم يعد مجال للاحتشام في حالة طارئة كهذه وقلت لهما :

– على كل حال ، أنا لم أطق صبراً على هذه الخنزيرة .

وجمعت ثيابي وكومتها في حقيبتين، ثم هبطت لأغسل وجهي، فرأيت الباب المقابل لي ينشق قليلا وشخصاً ما يسترق النظر ، فتبين لي ان نظام التجسس قد حاصرنا كالطوق ، ورجعت وانا اتحسر على الاجرة التي خسرتها ، ودهشت إذ رأيت جيمس يضع معطف ميرا على كتفيه ، وقبعتي التي بدت واسعة جداً على رأسه ، حتى انها نزلت على أذنيه فغطتها .

– اسمع ! لدي فكرة. يجب ان لا تراني صاحبة البيت عن قرب. انزل أنت للمراقبة وأخبرني إن كانت تتجسس أم لا ؟

– ثم ماذا ؟

– عندما نصل الى الطابق الأسفل ، اقرع باب غرفتها وسلها عن الأجرة مرة ثانية ، اذ لا أريدها أن تراني من نافذتها وأنا خارج من البيت .

لم اكن راغباً في رؤية وجهها مرة ثانية، فأنا لا أحب ان يوجه إليّ اللوم، وأحس بمقت عظيم للمواقف الكريهة لأنها تخلخل ايماني بالعنصر الإنساني إلى درجة تجعلني أشعر بصعوبة الحياة وقسوتها لإنسان وحيد . الا ان جيمس أصرّ على ذلك ، فوافقت على مضض . وبعد أن غسلت الغرفة بنظرة سريعة لأطمئن على أخذ جميع حاجياتي ، غادرتها ومعي ملابسي، وذهبت للاستطلاع ، فلم أجد أحداً ، ومرق جيمس بصحبة الفتـــاة من جانبي . طرقت الباب وقلبي يرتجف بعنف ، وفقدت الثقة بقدرتي على إخراج الكلمات . وأطلت صاحبة البيت بوجهها الذي

يشبه وجه طائر بمنقار حاد ، فمددت يدي بالمفتاح ، قالت :

– شكراً .

– ماذا عن الأجرة المدفوعة لك ؟

– لا مجـال للحديث عن الاجرة ، فقد خسرتها . (وبدأت تغلق الباب)

– إذن سأتخذ بعض الاجراءات .

– لا أبالي بأحد ، ولا بأية إجراءات .

وصفقت الباب بغضب .

غادرت البيت ، وأصبحت في الخارج ، وعند نهاية الشارع وجدتهما بانتظاري هناك ، وقد غـبّر جيمس معطف ميرا ، وحمل قبعتي بيده . وجدنا مقهى خاوياً في طريق « ارلزكورت » فشربنا قهوتنا هنـاك ، وأصرّت ميرا على أن تشتري لنا طعام الافطار ، لكن معدتي أبت ان تتناول أي طعام .

قال جيمس :

– لديّ عمل يجب ان أنفذه الآن . وداعاً .

وخرج تاركاً إياي مع ميرا ، فسألتها :

– هل تعرفين نوعية العمل الذي يدعي أنه واجب الإداء ؟

– أظن انه يحاول الادعاء بأنه شرطي ، ولكن لا أمل يرجى من هـذا ، فصاحبة البيت خنزيرة عجوز .

وافقتها على ذلك ، وشربنا قدحاً آخر من القهوة في انتظـار جيمس الذي طال غيابه ، وداهمتنا ظنون كثيرة : هل أرسلت صاحبة البيت طالبة رجـال الشرطة لاعتقاله ؟

إنه يدعي ادعاءات كاذبة ! يدعي بأنه شرطي سري .. وتحدثنا عن هذه الأشياء ، وتشعب الحديث وطال الى ان قالت ميرا بلهجة قلقة :

– انا مضطرة ان أذهب الى كلية الفنون بعد وقت قصير .

ولم تكد تنهي حديثها حتى برز جيمس على عتبـة الباب متهادياً فخوراً ، ووضع جنيهين على الطاولة . ثم انحنى باحترام كبير وهو يقول :

– في وسعي الآن ان أتناول بعض الطعام .

– وهل نجحت خطتك ؟

فأبى ان يتكلم كلمة واحدة قبل ان يطلب الفطور ، ثم أخبرنا كيف ذهب إلى البيت طالباً رؤية صاحبته ، زاعماً بأنه شرطي ، وقال ضاحكاً :

– لقد خافت ، وأصابتها رعشة ، فالناس يخشون زيارات رجال الشرطة كما تعرفان ، لقد لوحت بمحفظتي أمام عينيها وعرضت عليها تذكرة عضوية في ناد فرنسي ، وقلت لها بأنك مررت بمخفر الشرطة وشرحت لنا قصتك ، وكان رأيهم في المخفر ان يرسلوني للاستفسار ، وقلت لهـا : لا توجد تهمة يمكن توجيهها ضدك ، وانا شخصياً عطوف عليك ، لأني صاحب بيت ، ولكننا مضطرون مع الاسف الى تقديم نصيحة لك بأن مـا فعلتِهِ غير قانوني وسيثير المتاعب لو طلب اسعافاً مالياً لدفع أتعاب المحامي ، والحل الوحيد بالطبع هو ان تتركيه في الغرفة الى انتهاء مدة الأجرة .

رفضت المرأة الفكرة الأخيرة بامتهان ، وهنـا ظهر زوجها (ولم أكن أعرف أنهـا متزوجة) وحاول ان يعطي جيمس جنيهين وخمسة عشر شلناً ، فرفض استلام النقود ، فمن الأفضل أن يعود المستأجر لأخذها .

وتابع قائلاً :

– وددت لو أخذتها بسرعة ، لأنها استرجعت خمسة عشر شلناً منها مدعية ان معظم الفنادق تأخذ مثل هـذا المبلغ في الليلة الواحدة ، يضاف الى ذلك ان ثلاثة أشخاص ناموا في الغرفة .

وعند أخـذه للنقود ، استأذن جيمس بالانصراف مودّعاً من قبل صاحبة البيت : وتذكر جيمس ان بريقاً لمع في عينيها لأنهـا رأت ريشاً على معطفه ، وخاف ، فلعلها تذكرت انها رأت هذا المعطف في الصباح فوق السرير .

صرخت ميرا :

– يا رب ، لعلها اتصلت بمخفر الشرطة لتعرف هـل أرسلوا رجلاً بثياب مدنية ، وقد يكون رجال الشرطة يبحثون عنك الآن .

– قد تكونين على صواب ، دعنا ننسحب بسرعة من هذا الحي .

والتهمنا طعامنا بسرعة وأخذنا الباص الى قلب المدينة ، وقد شبّت على وجه جيمس إبتسامة صغيرة تدل على الغبطة والابتهاج بما فعل ، وكنت أتخيله يختال فرحاً وقوة بنفسه التي يحملها في داخله .

الفصل الثاني

وبعد ساعة جلست وحيداً في مقهى صغير بشارع « أولدكرمبتون » لأرشف الشاي ، بعد أن خلفني جيمس وذهب محتجاً بصفقة يريـــد أن ينتهي منها في المتحف الوطني ، وبعد أن استدان مني نصف جنيه .

ورحت أراقب رجلاً مسناً تكوم إلى جانب طاولة ضيقة في إحدى الزوايا، وبين يديه سلك مطلي بالنحاس كان يعمل منه أقراطاً مدورة معلقاً بها حبات ، مثل حبات المسبحة، ثم يثنيه بمهارة فائقة . كان وجهه عريضاً تبدو عليه الطيبة وشعره أشيب طويلاً يصل الى كتفيه ، ويرتدي معطفاً عتيقاً باليـــاً لم يعرف المكواة منذ أمد بعيد. وافترضت من عكوفه على عمله هذا بأنه من النوع الصامت الذي لا يفتح فمه احتجاجاً وتجاهــلاً للمجتمع الذي يعيش فيه . ودفعني هـــذا بالطبع ، الى محاولة تبادل الكلمات معه – علمت بعد ذلـك فقط أنني على خطأ في إفتراضي الساذج عن هذه الشخصية – ولكن لم يلتفت إليّ . وإنقطعت عن التفكير في شخصيته عندما هبط رجل آخر الى جانبي وألقى عليّ تحية الصباح فرددت تحيته بشيء من الاستغراب ، لأنه قذف بكلماته كمن له معرفة قديمـــة بي. كنت واثقاً تماماً بأني لم أره قط، إذ ليس في وسع أي إنسان نسيان مظهره: فعظام خديه تبـدو بارزة على وجهه الشاحب العريض جداً ، وشفتاه ناتئتان مندفعتان إلى الامام ، وأنفه شامخ يدل على قوة عزيمة كامنة فيه ، ولما ابتسم لي

لاحظت أن أسنانه قوية وكبيرة ، وأيقنت ان في ملامح الرجل ما يوحي بأنه أشبه بذئب يبحث عن فريسة جديدة . وكان يرتدي بذلة سوداء على قميص أسود ، تتدلى من ياقته ربطة عنق حمراء ، وقد ألقى قبعته السوداء المستديرة على حافة أحد الكراسي ، وكان صوته مبحوحاً كمن أصيب بالتهاب الغدد ، وقد أتبع تحيته قائلاً :

– أظن انه قد مضى على لقائنا الأخير ستة أشهر .

– أنت مخطىء حتماً ، إذ لا أظن اننا تقابلنا من قبل !

– ماذا ؟ ألم نلتق في حفلة « تومي داف » على النهر ؟

– كلا ، فقد جئت الى لندن قبل مدة قليلة .

– أوه ، أقدم إعتذاري ، كان في إمكاني أن أقسم بأننا سكرنا معاً يوماً من الأيام .

– أخشى أن أقول العكس .

وبعد أن إبتلع قهوته قال :

– إذن فأنت جديد في لندن .

– جديد إلى حد ما . (لم أشا ان أقول له انني وصلت لندن قبل يومٍ واحدٍ فقط .)

– هل أنت طالب في معهد ما ؟

– وكيف تستطيع الحكم ؟

– أنا أعرف أمثالي عن بعد ميل .

حملتني هذه الملاحظة على الحيطة رغم ما تحمل في باطنها من مجاملة لي ، وتأكدت انه ينوي بيعي شيئاً ما ، أو انه سيطلب نقوداً ؛ الا ّ انني كنت خائفاً من تدهور كمية النقود التي أحملها في جيبي ، فعزمت على ان لا أفقد قسما آخر منها عبثاً . وسألته بحذر :

– ماذا تدرس ؟

– فلسفة ديونيسوس .

– تعنى فلسفة نيتشه ؟!

بدا عليه الإبتهاج ، فشعرت بأنه سيتملقني . وصممت على وقف الحديث ما أستطيع .

قال :

– نيتشه بالتأكيد . هل تدرس الفلسفة ؟

– على سبيل الهواية .

– لا توجد طريقة أخرى للتفلسف ، أعني هل تتخيل وجود فيلسوف محترف ، يعيش على حيرته في كونه حياً ؟

فأجبت محاولاً الإبتعاد عن الجدل :

– كلا .

– أنت على صواب . فالفلسفة إما ان تكون نتيجة حب وإما أن تكون نتيجة قلق ، وفي الحالتين نستثني الإحتراف .

– وماذا عنيت عندما قلت بأنك تدرس « ديونيسوس » ؟

– أعني أنني مهتم بدراسة قوى الظلام . هل تذكر كلمات نيتشه حول النشاط الذي ينبعث متدفقاً من الأرض ؟ إنه نشاط الظلام الذي أطلقت عليه ساحرات القرون الوسطى اسم « الشيطان » وسماه د . ه . لورانس «الجنس» .

– كان لورانس رجلاً ...

– كان كاتباً رديئاً ، وهذا أقرب الى الموضوع الذي نناقشه ، هل قرأت « لوتريامونت » ؟

– كلا ، لم أر نسخة من هذا الكتاب على الإطلاق .

– حقاً ؟ هل تود أن تشتري واحدة ؟

– وهل تعرف من أين أستطيع الحصول عليها ؟

– أعرف من هنا .

وأخرج من جيب معطفه الداخلي كتاباً صغيراً غلافه أسود جديد . تناولته منه وألقيت عليه نظرة وسألت :

– كم تريد ثمناً له ؟
– عشرة شلنات .
وكان الكتاب حقاً يستحق هـذا الثمن حتى ولو كان غير جديد . وسألته :
– ألا تحتاج إليه ؟
– أنا أشد حاجةً الى النقود .
أخرجت ورقة نقد بعشرة شلنات من محفظتي وناولته اياها . فانحنى قليلاً ، ثم قال وهو يضعها في يده :
– شكراً ، لعلي أقدر الآن ان اقدّم فنجان شاي لك .
– كلا أرجوك . فقد شربت ثلاثة فناجين حتى الآن .
– في هذه الحالة أتمنى لك صباحاً سعيداً . إلاّ إذا كانت طريقك في الاتجاه نفسه الذي سآخذه .
– أين اتجاهك الآن ؟
– الى المتحف البريطاني .
– حسناً . فأنا سأذهب الى المتحف ايضاً .
اتخذت هذاالقرار بلا تفكير . وغادرنا المقهى فسرنا في طريق «شيرنغ كروس» . قال ونحن نسير :
– يجب ان أقدم لك نفسي ، اسمي « روبرت دي بِروين » ولي الحق في حمل لقب ، لكني أفضل الحياة بلا ألقاب ، فأنا فوضوي .
وقدمت له نفسي ، وسألته عن العمل الذي يمارسه فأجاب :
– هذه نقطة حساسة ، فأنا هاوٍ للكتب القديمة .
– هل تعني انك تتاجر بها ؟
– هذه مشكلتي ، فلو استطعت تعاطي التجارة ، لأمكنني كسب المال الكثير ، ولكن حين أقول بأني هاوٍ ، أقصد الكلمة بمعناها الصحيح . أنا عاشق لها ، ولديّ منها بعض الطبعات النادرة ، ثمن الواحدة منها عدة مئات من الجنيهات ، وقد اشتريتها بقصد إعادة بيعها ، إلا أنني لم أتمكن من ان أصبح بائعاً .

- من أين تشتري هذه الكتب ؟

فحدجني بنظرة غامضة ثم أجاب :

– ربما اخبرتك بهذا متى توثقت معرفتي بك .. هذا مكان جدير بالاهتمام .

وأدار دفة الحديث الى موضوع آخر . وأوقفني بجانب حانوت لبيع الكتب القديمة كتب عليه : « سباستيان نوايه » بائع كتب قديمة . اختصاصي بكتب الدين والسحر . الطابق الثاني .

– دعنا نصعد ، كي أعرفك على صديقي الميجور نوايه .

ووجدتني مقاداً إلى سلم مظلم بجانب الحانوت ، وكان المكان مظلماً كئيباً تنتشر فيه رائحة غبار وشمع وتجليد كتب عتيقة ، وكان خاوياً ساكناً كأن ليس ثمة أحد يعيش بين جدرانه . ونادى دي بروين :

– نوايه . نوايه .... !

فظهرت حالاً امرأة نحيلة ، كانت تقف خلف صف من رفوف الكتب ، وكانت تحمل وجهاً رمادياً عديم الحياة ، كأنه قطعة كرتونية عتيقة . ولعلها كانت مقعية على الأرض تاركة الغبار يتساقط عليها وقالت :

– انه في الغرفة الخلفية .

– حسناً، سنذهب لمقابلته .

ومشى دي بروين في الطليعة بين الرفوف ، وطرق باباً مغطى بقماش صوفي خشن، ثم دفعه فأصبحنا في الداخل. واتضح لي لأول وهلة أننا وصلنا الى مصدر رائحة الصمغ ، وكانت الغرفة صغيرة يضيئها مصباح كهربائي قوي ، وضع الى جانب مكتب . وهب رجل جالس وراء مقعد فاستوى على قدميه ، وكان عملاقاً قدّرت طول قامته بأكثر من ثلاثة أمتار . وقال :

– آه ، كونت ! كيف حالك ؟

وبدا لي كأنه يؤدي دوراً مسرحياً ، ولعل سبب ذلك لحيته ونظاراته السوداء . وعرّفنا دي بروين قائلاً :

– إن ميجور « نوايه » يمتلك أفضل مجموعة من كتب السحر والطلاسم

في لندن .

وصافحت يد العملاق ، فأشار الى مقعدين ثم قال :

– هل تدخنان ؟ لا ! هل أقدم لكما شراباً ؟ الا تجربان قليلاً من خمرتي المقطرة من بنات تفاح الجن ؟

وأخرج ، دون أن يسمع الجواب ، زجاجة شمانيا ، وأقداحاً ملأها بسائل بلون القش . وقال :

– إن صديقاً قديماً علمني طريقة التقطير . وقد زعموا أن هذا النبات خرافي لا وجود له . هذا زعم باطل . فأنا أعرف مكانين ما زال ينبت فيهما ، وكلاهما في أرض جبلية عالية وأحدهما في البلاد الشيوعية .

– هل يصرخ هذا النبات إذا أجتثّ من أرضه ؟

– نعم إنه يصرخ ، ولكن ليس صراخاً عالياً مرتفعاً كما قال « كورنيلوس اغريبا » بل إن صوته كالهمس الخافت ، او كالبكاء الحزين ، وأظن أن السبب هو خروج نوع من الغاز . إن له مزايا شاذة لا مثيل لها . جرّبا هذه الخمرة .

دلقت رشفة من شراب تفاح الجن . كانت منعشة وخفيفة الطعم ، والحق أن الطعم غير مجهول . فله مذاق زهري خفيف أشبه ببعض أنواع نبيذ « الهرك » مع قليل من رائحة غريبة كرائحة الأثير أو الكلوروفورم . ومهما يكن الأمر فقد رأيت الأثنين يحتسيان قدحيهما بكل شراهة . ولذلك فقد أفرغت قدحي في جوفي دفعة واحدة . ولم أشك في شدة مفعول هذا الشراب ، فقد شعرت بالإنتعاش فوراً ، وبدا لي ان نوايه والكونت أسعد شخصين في الوجود . وسألني نوايه :

– هل أنت طالب طلاسم ؟

– لا كما تظن ، لكن الموضوع يثير إهتمامي .

– هل تعرف « كبالا » ؟

– قليلاً ، حاولت مرة قراءة « رازيل » بالفرنسية ، فكان صعباً جداً .

– هذا لا يدهشني . عليك أن تقرأ مقدمتي الخاصة لكتاب « زوهار »

واستنكاري لتدجيل « ماكريفورماثرز » سأعطيك نسخة .

وبحث في أحد أدراج مكتبه . ثم أخرج كتيباً قدمه لي كان عنوانه « كشف النقاب عن كبالا مع تفسيرصحيح لزوهار » فشكرته وأنا متضايق لأنني حسبت أنها النسخة الوحيدة لديه . فقال :

– كلام فارغ . عندي بضع نسخ في مكان ما هنا .

ولما وقفت – بعد ذلك – لأغادر المكان ، لاحظت كومة عالية منها موضوعة في احدى الزوايا . وخاطب نوايه « الكونت » :

– أرى ان صديقك يحب التعمق والتوغل ، ولم يسبق لك أن أتيت ، حتى الآن ، برجل سخيف لمقابلتي .

وصب لي قدحاً آخر ، فاعتذرت باضطراري الى الذهاب بسرعة ، حتى أستطيع السير على قدمي والاحتفاظ بتوازني الطبيعي ، فقال :

– من السهولة ان تشرب هذه الجرعات القليلة . قل لي قبل ان تذهب ، بم تهتم بصورة خاصة حتى أبحث عن كل كتاب تريده ؟

فأجاب بروين :

– إنه مهتم بدراسة نيتشه .

– إذن اليك خدمة بلا مقابل. عندي طبعة كاملة لمؤلفات نيتشه بالانكليزية ، تعال معي .

تبعته إلى خارج الغرفة ، ثم إلى تجويف في السقف ، ولا أدري لِمَ نظرت الى الخلف ، فرأيت الكونت يكرع قدحاً آخر من تلك الخمرة . وأضاء نوايه مصباحاً كهربائياً موضوعاً بين رفوف كتب علاها التراب . وأراني عدة مجلدات رثة لنيتشه من الترجمة الإنكليزية الأصيلة .

– ها هي . لقد احتفظت بها عدة سنوات لأنني لم أجد من يقدرها ، وقد نفدت معظم الطبعات .

قلبتها بين يدي ، مبدياً إعجابي الشديد ، واستمر قائلاً :

– وما دمت مصمماً على أن أقدم لك خدمة ، ففي وسعي أن أبيعها لك

مقابل ... ماذا ؟ ... لنقل عشرين جنيهاً .

– هـذا لطف منك ، ولكني في الوقت الحاضر لا أستطيع الاستغناء عن عشرين جنيهاً .

– أوه ، انتظر قليلاً ، لنقل خمسة عشر جنيهاً .

– لا أملك مكاناً لوضعها ، بل إني لم أجد غرفة في لندن حتى الآن .

– آه فهمت ، استمع إليّ ، الخدمة سأقدمها اليك ، وسأفعل ما لم أفعله من قبل ، سأدعك تأخذ مجلدين من المجموعة مقابل جنيه لكل واحد منهما .

اخترت مجلدين وانا خجل من مجاملته ، ودفعت جنيهين . كان عنوانهما « أفكار في غير موسمها » .

ربّت نوايه على كتفي بحب ثم قال :

– تعال إليّ عندما تكون قريباً من هنا ، لا أطلب منك ان تشتري شيئاً . فأنا لا أتوسع في دعواتي لكل إنسان ، فهنالك كثير من اللصوص . ولكني أرى أننا نشترك في آراء عديده . تعال مرة ثانية .

وهبطنا السلم ، كان دي بروين غائم العينين ، متمدداً في مقعده من تأثير الشراب ، وقد قام مسرعاً وقال :

– هل أنت مستعد ؟ هل اشتريت شيئاً ؟ حسناً ، لنذهب !

صافحت نوايه مودعا . ونزلت ، وفي الطريق اعتذر الكونت وعاد الى الحانوت ، ثم رجع بعد لحظات ، وأخذنا طريقنا إلى المتحف البريطاني الذي يبعد عنا خطوات قصيرة . وشعرت بعدم انتظام خطواتي . أما الكونت فقد كان يترنح مثل قصبة طويلة ، وبدلاً من ان ندخل من الباب الدوّار ، أنتحى مكاناً جانبياً وانهدّ فوق أول مقعد خشبي ، فأثار دهشة سيدة عجوز كانت تطعم الحمام ، وبعد أن ألقت على وجهه نظرة انصرفت وجلست فوق مقعد جديد . جئت فجلست إلى جانبه .

– تلك الخمرة المسماة بخمرة تفاح الجن ، انها فظيعة حادة في مثل هذه الساعة من النهار ، كم الساعة بالمناسبة ؟

– حوالي الظهر !

– فقط ؟ ما أشنع هذا الحر الشديد .

وأخرج من جيبه الأعلى منديلاً ومسح جبهته ، فسقطت ورقة نقد من فئة الجنيه على المقعد دون أن يلاحظ سقوطها ، فتناولتها وأعدتها إليه ، وظن أني أقدمها له كهدية ، فقال بحماسة عجيبة :

– هذا جميل رائع منك ، أنا أقدّره .

ودس الجنيه في جيبه الأعلى ، وعلى الأثر أغلق عينيه ونام ، وعلا شخيره ، ولاحظت أحد الموظفين يراقبنا ، فهززته حتى استيقظ . وقلت بلطف :

– أظن أنه من غير اللائق ان تنام هنا .

– أنت على حق ، سأذهب لأنام في غرفة المطالعة . أتأتي معي ؟

– لست عضواً .

– هذا من المؤسف ، إذن سأراك فيما بعد ، إلى اللقاء أيها الشاب .

ووقف مترنحاً . ثم اعتدل وتنفس بعمق واخترق البــاب الدوار بوجاهة وأناقة مع أن سيره كان مضطرباً، وحدّق به الموظف اثناء سيره ، ولكنه مضى الى داخل المتحف . وأدركت رغم النبيذ ، ان احسن خطة عليه أن يسلكها هي ان يبدو صاحياً ، إذا اراد ان يجد مكاناً هــادئاً يرتاح فيه دون إزعاج . وإنغرست في الخارج مدة عشر دقائق ، فلمــا شعرت بالبرد قررت الرجوع الى مقهى « فرنتش » لمقابلة جيمس . كان في انتظاري هناك . وقــد دعاني لشرب فنجان من الشاي فرفضت ، وجلست مجاوراً له .

– أين كنت ؟

– كان صباحاً كثيفاً بالحوادث !

وأخبرته قصة الكونت والميجور نوايه .

– دعني أرى الكتب .

ومددت يدي بكتاب « لوتريامونت » .

فقال بإحتقار :

– ولِمَ لا ؟

– لقد التقطه صاحبك من مكتبة « فويلز » .

وأشار الى قطعة صغيرة من الورق الأزرق كانت ملصقة في الداخل ، وقد كتب عليها « مكتبة فويلز » ، ولكنها مزقت بمهارة ، ثم عرّض الصفحة الأولى للنور . وقال :

– إن الثمن خمسة شلنات فقط ، انظر .

وشاهدت بعد عناء ان السعر الذي كتب بقلم رصاص حاد قد محي ، ولم أرغب في التحدث عن دي بروين بسوء ، فقلت لجيمس :

– انا لا أعرف هذا .

ورماني جيمس بنظرة إشفاق واخذ يسألني عن المكتبة ، فأريته مجلدي نيتشه ، فألقى عليهما نظرة خاطفة وقال باختصار :

– ثمن المجلد الواحد سبعة شلنات ونصف الشلن ، او عشرة شلنات على الأكثر ، لقد تقاضى الكونت عمولة من صاحب المكتبة لأخذك الى هناك .

وتذكرت ورقة الجنيه التي سقطت من جيب دي بروين ، كما تذكرت انه دس الشلنات العشرة في ذات الجيب الأعلى. كانت ورقة الجنيه جديدة كالورقتين اللتين دفعتهما للميجور نوايه . فلا شك ان دي بروين أعطى للميجور العشرة شلنات وأخذ منه جنيهاً .

لم أشعر بالرغبة في الاعتراف بهذه الأشياء لجيمس لاعتقادي بأنه سيحسبني مجنوناً أحمق ، ومع ذلك ، فقد اعتبرت بأن صباح يومي هذا لم يذهب جزافاً فقلت له :

– دعنا نشرب كمية أخرى من النبيذ ، ونتناول بعض السندويشات .

أشرقت ابتسامة على وجه جيمس ثم قال :

– هناك مكان اعرفه على بعد مئة ياردة .

– عليك ان تتناول طعام الغداء على حسابي انا .

– أوه ، كلا ، لقد أنفقت كثيراً من النقود هذا الصباح .

– نعم هذا صحيح ، لكني لم أبال .

كان لديّ إلهام غريب بأنني سأنفق أكثر ، وخرجنا من المقهى .

* * *

ما حدث في الساعتين التاليتين ما زال غامضاً في ذاكرتي . لقد شربت عدة كؤوس من النبيذ الأحمر ، وأكلت ساندوتشا محمصاً مع الجبن ، وأصرّ جيمس على ان نجد مكاناً أرخص . لم يكن لدي ميل للذهاب الى أي مكان . وسيطر عليّ تعب الليلة البارحة ، فجلست متهالكاً على مقعد في إحدى الزوايا ، وشاهدت جيمس يتحدث مع شخص من معارفه ، وهو رجل نحيف بارز العروق كان يتحدث مع امرأة تلبس نظارات ، عن عقد لطبع بعض الكتب الأجنبية. لا شك انه مندوب إحدى وكالات النشر. وأحسست بكآبة عميقة ، فأنا قريب جداً من مكاتب الناشرين ، ولا أجد من يهتم بمؤلفاتي ، وفي بيتي أكثر من عشرة ردود يرفضون فيها ما كتبت .

كان الحديث أشبه ما يكون بتعذيب رجل جائع برائحة طعام شهي . وانتفضت ، لا مجال لهذا الانغماس السويدائي في التفكير . اتجهت نحو البار وانا اهتز ، وطلبت قدحاً آخر من النبيذ وانتحيت مكاناً بعيداً . ومن البيّن أن جيمس المنغرس بجانب حافة البار ، شعر بأنه أهملني لمدة من الزمن ، فجاء بزميله الى المنضدة الجالس بقربها ، وكان صديقه مجموعة من السأم ، إذ انحصر حديثه في سخف وتفاهة المخرجين الذي يرفضون إعطاءه دوراً في مسرحياتهم . وظل جيمس يهز رأسه علامة الموافقة ، وكان ذلك « عظف المهنة » كما ظننت ، أعني عطف ممثل عاطل عن العمل على ممثل آخر ، الى ان تفوه بجملة فهمت منها بأن له دخلاً خاصاً يأتيه كمورد مالي ، وبعد مدة نهض وانصرف بعد ان ناول جيمس عشرة شلنات كدين سيردّه جيمس يوماً من الايام .

قفز جيمس ليشتري لكل منا كأساً من النبيذ ، وشن هجوماً عنيفاً على زميله الذي ذهب . كنت مشحوناً بدفء النعاس المشهي فلم أتابع حديثه ،

وقبيل اغلاق الحانة قال جيمس :

– علينا الإقتصاد في المصروف ، سنأكل سمكاً (١) وبطاطا مقلية بسعر رخيص .

وغادرنا المكان وسرنا في شارع « أولدمبتون » وقبل ان نقطع خمسة ياردات زعق صوت ينادي :

– هالو جيمس . جيمس ...

فأجابه بصوت ودي :

– هالو مارتي ، هل أكلت ؟ تعال وكل معنا سمكاً وبطاطا ...

– سآتي إذا كان معك بعض النقود .

كان رجلاً ضخماً برأس كبير لا شعر ينبت في مقدمته غير خصلتين متناثرتين من الزغب تتطايران فوق أذنيه . وأوقعني صوته في حيرة ، فهو عالٍ أشبه بالزعيق . وخيل لي أنه مثقف يحاول تقليد العامة في الحديث . كانت ثقافته تظهر واضحة من بين فجوات كلماته ، وكتفاه مكتنزتان هابطتان ، ورأسه منحن إلى الامام كمن يطلب عطية .

عرّفنا جيمس قائلاً :

– مارتي روبرتس من أمهر لاعبي الشطرنج في أوربا .

ولاحظت انه رغم البرد، لم يكن يضع معطفاً او سترة على كتفيه، بل اكتفى « بكنزة » صوف سوداء ثقيلة ووشاح قذر ، وبنطال رقيق وسخ ملتصق جداً بقفاه العريض . وسار إلى جانبنا ويداه في جيبي بنطاله الوسخ ، وسأل جيمس :

– ما مقدار ما تحمل من نقود ؟

– استدنت عشرة شلنات الآن، وأنت مدعو للحصول على نصيبك الشرعي منهـا .

ومررنا بجانب مطعم فخم ، وبالقرب من بابه كانت سيارة « ديملر » ضخمة

---

١ – السمك والبطاطا المقلية المعبأة ضمن أكياس ورقية تعتبر الوجبة الشعبية الرخيصة في انكلترا ، مثل الفلافل في بلادنا . (م . ه)

تقف بالإنتظار ، وقبل ان يصل البواب لفتح باب السيارة والإنحاء الذليل ، قفز مارتي وفتح الباب . واقفاً باحترام جم بإنتظار من فيها ، وهبطت امرأة تشع من عينيها إبتسامة ألفة جذابة ، يزيدها جاذبية معطفها من الفرو الثمين . وحيّته بعظمة غير متكلفة ، وإبتسمت له إبتسامة ساحرة . وهمست :

– شكراً أيها الرجل .

ولدهشتي ، انحنى مارتي واضعاً يده على فمه ، وزحفت الكلمات من بين شفتيه قائلاً للمرأة بلهجة عامية :

– الثورة قادمة إلى هنا، عليك أن تتخلصي من ثروتك بسرعة ، ولا أظنك تعشقين الإعتقال ولديك ما لديك من هذه الأشياء الغالية الثمن .

ذهلت المرأة ، وقالت بغضب :

– كيف تجرؤ على مخاطبتي بهذه اللهجة ؟

غمز مارتي بعينيه وقال :

– هذا يكفي ، كفى .

وأدار ظهره لها وتبعنا . فانطلق جيمس ضاحكاً حتى الموت ، وقال من خلال ضحكة :

– سيقبض عليه في يوم من الأيام .

تضايقت جداً من مارتي لأنه أفسد على المرأة إبتسامتها الساحرة .

– وما هو السبب ؟ (إختفت اللهجة العامية تماماً) .

– لقد أعجبت بمنظرها ، وأود ان تقبض عليها الثورة وسراويلها هابطة إلى الأسفل .

قال جيمس وهو يلعق شفتيه :

– أنا أود ذلك .

ودخلنا شارعاً فرعياً فسرنا حتى وصلنا مطعم السمك . كان مكتظاً بالناس ، مما جعل جيمس يلعن ويجدف ويشتم كل شيء وصل إليه لسانه ، فزجره مارتي قائلاً :

– أظن انك لا تريد ان تحرم « الرفاق » من نصيبهم اليومي ؟

أطبق الخرس على جيمس . ثم تبدلت ملامح وجهه بإشراقة باهرة وهتف :

– وجدتها ، سنذهب إلى مطعم « أوسكي » على الناصية ، ولو كان الثمن هناك عبارة عن بضع قطع نحاسية أكثر من هنا . ولكن لا بأس . لنذهب .

تدحرجنا في ممر ضيق حتى دخلنا باباً؛كان جيمس في المقدمة،وكانت الأحرف تلمع ، مطعم للسمك من الدرجة الأولى ، الطابق الأول . كان بشعاً قذراً .

الجدران مطلية بلون أحمر داكن ، ست طاولات غير مغطاة يشغل بعضها رجال بثياب رثة ، كان العجوز الذي شاهدته صباح هذا اليوم يصنع الأقراط ، جالساً وحيداً حول طاولة خاوية . واندفع نحونا رجل قصير تمرح السعادة على وجهه البدين ، وسألنا بلهجة إيطالية :

– ماذا تأكلون ؟

قال جيمس :

– ثلاثة صحون من السمك والبطاطا يا أوسكي ... آه ثلاثة فناجين شاي .

ولكزني جيمس بمرفقه قائلاً :

– ادفع الحساب الآن ، وسوف أحاسبك بعد ذلك .

فأخرجت عشرة شلنات التقفها أوسكي وصرخ مردداً طلباتنا ، ثم هبط درجات المطعم بضجة حاملاً معه شلناتي العشرة ، قال أوسكي قبل أن يذهب :

– قد تنتظرون بعض الوقت ، فالطهاة مشغولون جداً .

إبتسم له جيمس وغمز بعينيه :

– لا بأس يا أوسكي ، أنا أعلم ان طابوراً من الناس ينتظر في الخارج .

وتابع حديثه لنا :

– عندما أفتتح أوسكي مطعمه هذا ، كان لا يملك في جيبه أجرة الطاهي ، ولهذا استخدم عنده غلاماً صغيراً ، فإذا ناداه آمراً باحضار سمك وبطاطا ، أسرع الغلام الى مكان مجاور واشترى الطعام وعاد به ليطبخه أوسكي ، ولهذا يصر على دفع الثمن مقدماً .

قال مارتي :

– إنه غبي لا يفهم في طرق التجارة . عليه ان يحتفظ بكمية قليلة من النقود تكفي لشراء ما يحتاجه من الأسماك ، حتى لا يسأل الزبائن أن يدفعوا النقود سلفاً .

جاء الشاي الحلو حالاً ، وقد ُغلي لتوّه . ولم أحبه وقد تفحصت مارتي باهتمام ، وأدركت ان لديه قوة كامنة ، ولاحظ فضولي وإهتمامي فسألني بود :

– ماذا تعمل ايها الشاب ؟

أريد أن أكتب .

– وما هي آراؤك السياسية ؟

لطمني السؤال وأحرجني ، الا أنني لم أشأ ان اخترع جواباً يريده هو ، فتمتمت بكلمات أفهمته بها أنني جاهل في السياسة لا أعرف منها شيئاً .

فقال مؤيداً :

– هذا صواب ، فهذا أفضل من أن يكون رأسك مليئاً بالدعاية الشيوعية .

– ألستَ شيوعياً ؟

– لست عضواً في الحزب بل انا « بابوفي » .

– أنت ماذا ؟

– أحد اتباع غراتشوس بابوف ، واحد من كبار المفكرين الاشتراكيين الأوائل .

ولمعت عيناه حماسة وهو ينحني على المائدة ليقترب مني :

– فكر يا شاب ، عندما سارت الإشتراكية في الاتجاه الخاطىء فالسبب أنها واصلت بناء السفن الصناعية الكبرى وغذتها ، وماركس وانجلز هما سبب المتاعب . فقد آمن المفكرون الإجتماعيون بإيجاد جاليات صغيرة يتعلم فيها الشعب كيفية تنظيم نفسه في مجتمع نظيف غير معقد . ثم جاء ماركس وقال ان المدن الكبرى جزء لا غنى عنه للحضارة الاشتراكية ، وعلى العمال ان يتولوا شؤونها ، وفي وسعك ان ترى ما يحدث .

– إنها ُتفرّخ الأمراض التي تسبب القضاء عليها نفسها ، لأنه لا يوجد شيء

إسمه اشراف العمال على المدن ، ومتى حُشر عشرة ملايين إنسان في مدينة واحدة ، فانهم يصبحون في حالة أسوأ من النمل ، فهم لا يشعرون بهذا الاشراف ، وقبل كل شيء ما هو هدف الشيوعية ؟ أن تجعلنا نشعر بأننا أحرار ، ولكن لن تشعر بالحرية إذا أصبحت مجرد نملة بين عشرة ملايين نملة أخرى ، هل تشعر ؟

مست هذه الكلمات ناحية حساسة في قلبي ، فقد تذكرت إحساسي عندما واجهت لندن وحيداً ، فسألته :

– وما هو جوابك ؟

– التخلص من المدن ، فهي تسحق الانسان ، ومسحها عن وجه الأرض ، ولنرجع إلى رأي بابوف في المجتمعات القروية الصغيرة ، ولنؤلف مجتمعاً هدفه الوحيد ابراز العبقريات وتشجيعها .

وارتفع صوت صخّاب يقول .

– عفواً .

فنظرنا جميعاً إلى الرجل المنتصب على رأس مائدتنا وشعره الأبيض الطويل يتهدل إلى منكبيه حتى يتصل بجاكيتته الحمراء ، وأجاب مارتي بغير اغتباط :

– هالو جاك .

وتحمس جيمس قائلاً :

– دعني أعرفك به . ايرونفوت جاك ملك البوهيميين غير المتوج .

تلعثم جاك بلكنته العامية :

– رعاياي امتنعوا عن دفع الضرائب في المدة الأخيرة . وانا لا أملك ثلاثة بنسات ثمن فنجان شاي .

فتطوعت لأدفع له ثمن فنجان واحد ، وجلس شاكراً لي ، واستبد الغضب بمارتي، وَهلّ الطعام من بعيد فتلاشى غضبه العنيف . وانهمكنا في تناول الأكل الشهي وتركنا جاك يثرثر كما يحلو له ، وقد ذكرني باحدى شخصيات رواية « سجين زندا » بربطة عنقه القذرة المتهدلة يزحف عليها دبوس نحاسي ، هدّه

الزحف فتعلق في وسطها . كان طويلا، له كتفان تشبهان كتفي مصارع متقاعد، والغريب الواضح هذا التناقض بين جسمه الضخم العملاق ، وبين صوته الناعم الذي يشبه صوت امرأة عامية متقدمة في العمر . كان يأتي مرتجا مخلخلا كأنه سيبكي بعد قليل ، ناثراً اللعاب اللزج من فمه على مائدتنا ، مما جعلنا ننقل أطعمتنا ونبعدها عنه ما أمكن ، وعلى الرغم من صوته المتلجلج الذي يشعره بالأسف ، فقد كانت تتألق من فمه إبتسامة شفافة رقيقة تبين مدى صراحته في الحديث .

قال متمهلا بطيئاً :

– اغفروا لي تدخلي بينكم ، لكني لم أستطع صم أذنيّ عن سماع أحاديثكم: وعليّ ان أبين لكم الخطأ الذي يسير فيه عالمنا اليوم ، وهو غير موجود هنا ، لأننا نفكر كثيراً ، ولا نفقه الكثير عن « كارما » (وخرجت الكلمة الأخيرة من فمه مفخّمة كأي راهب هندوسي يقول « أوم ») ولدي الآن كتاب صغير الحجم يناقش هذا الموضوع .

وهنا أخرج من جيب سترته كتاباً صغيراً ، وانتقل الى جانبي فاستطعت ان أرى أنه أحد كتب « آني بيرانت » عن الصوفية . وفتح الكتاب وبدأ يشرح لنا ما فيه من جداول عن مناطق الحياة ومراتب النجوم .. وغير ذلك . وكان مارتي مستمراً في تناول طعامه ، وجيمس مصغياً بأدب جم ، وانا اتطلع الى وجه الرجل باهتمام . وكانت كلمة « كارما » تشحن في كل جملة من حديثه ، وقد فهمت من قبل أنها تعني « القدر » . أما جاك فظنها تمثل كل سحر الفلسفة الهندوسية والحكمة القديمة ، وهز رأسه ببطء موافقاً على احدى الجمل ، ثم هتف أخيراً :

– ما نريده هو « كارما » .

ووافق جيمس على هذا مؤكداً انه سمع رئيس اساقفة كنتربري يردد الكلمات نفسها من فوق منبره . وحمل جاك حديث الرجل محمل الجد فقال بعصبية :

– لقد سرق هذه الفكرة مني ، أنا لا أعتقد بدين ، فكل الديانات سواء ، مسيحية كانت أم بوذية ، كاثوليكية أم بروتستانتيّة ، فماذا درستموها بوعي

وجدتموها تهدف الى غرض واحد .

فتح راحة يده ، ثم وضع سبابة يده الثانية في وسطها ، وقال بحرارة :

– الهدف هو « مازوما » .

وعندما انتهى مارتي من التهام السمك والبطاطا ، تأهب لمغادرة المكان ، وقال قبل ان يذهب :

– عليّ ان أترككم الآن ، وسنتحدث مرة أخرى ، شكراً على وجبة الطعام ، سأدعوكم يوماً ما .

وانحنى لجاك . ثم غادر المكان دون ان ينتبه جاك إلى تحيته الباردة .

ولوح له « الخطيب » بيده ، كأنه ملك يأذن لرعاياه بِالانصراف ، ثم اتجه إلينا بدفء وقال :

– أما وقد ذهب ، فسأريكم شيئاً يثير اهتمامكم .

وأخرج من جيبه محفظة مكتظة بأنواع مختلفة من الأوراق – لا نقود فيها– وراح يبسطها أمامنا ببطء ، بينما كان جيمس يحدق بعينيه كأنه يريد الخروج ، وأخيراً قال :

– علينا ان نذهب الآن يا جاك .

لم يعبأ جاك بهذه الملاحظة ، واستمر يبحث في أوراقه ، ثم ابرز قطعة مشوهة كالحة كان قد اقتطعها من جريدة وكانت بعنوان « ملك البوهيميين » تحتوي على حديث قصير مع جاك ، قام بكتابتها مراسل جريدة تصدر في شمال انكلترا ، وكان يتحدث فيه عن الأيام الغنية السالفة في حياة سوهو ، وهمس كأنه يهمس بسر خطير :

– كنت تستطيع العيش كملك عظيم ، فثمن دزينة من البيض ثلاثة بنسات فقط ، وقطعة من الجبن ببنس واحد . ورغيف الخبز الطازج يكلف بنساً واحداً فقط ، وبمبلغ ضئيل تقيم مأدبة عامرة . (وخيل لي ان الصحفي المسكين حاول جاهداً ان يلمّ بلهجة جاك الغريبة) وكنت تدفع خمسة شلنات أجرة لغرفة واسعة في الدور السفلي من بناية ، وكانت الغرف واسعة بحيث يمكنك دعوة

عددٍ كبيرٍ من الاصدقاء ليناموا فوق أرضهـــا ، لأن السجاجيد كانت سميكة وفاخرة ، والمخدات متوفرة فيها .

وأخرج قصاصات أخرى ، أدركت من النظر إليها بسرعة انهـا تتحدث عن اصطدامه مع القانون ، وحكايات اخرى تتحدث عن جاك كبوهيمي يسرح في سوهو طيلة ايامه ، ورأيت صورة رسمها أحد المصورين المشهورين في المجتمع ، جعلته على شكل أسد نبيل بعينين حالمتين تنظران في الفضاء الواسع ، وكان مزيجـــاً من ويليم بليك . وملك للمتشردين . وقال وانا أرد إليـــه قصاصات الورق :

– لم تعد الحياة تعاش ، لم يعد فيها روح ، وصار رأس المال المتعامل بـــه أندر فأندر .

ثم اخـــذ يبحث في جيوب بنطاله ، وأخرج مقصاً صغيراً وقـــال وهو يقدمه إليّ :

– خذه لعله ينفعك ، ثمنه خمسة شلنات فقط .

ووضعه في جيبي ، ثم طلب على الاثر فنجان شاي آخـــر . واغتنم جيمس فرصة توقفه عن الكلام ، فهب واقفاً على قدميه . وأشار إليّ ان اتبعه .

والتفت قائلاً لجاك :

– متأسفون لتركك يا جاك .

– لا بأس ، من دواعي السرور في هذه الحياة ، التحدث مع جماعة أذكياء لا مع صديقكما (وكان يعني مـارتي) الذي يظن أن في وسعه تغيير أحوال المجتمع . إنه عندما يبلغ عمري ، فسيعرف المجتمع بصورة أوسع . إن كل مـــا نطلبه في الانسان ، هو ان يحمل روحاً متحررة ، مثلي ، وعندئذ يعمل ليعيش ولا يعيش ليعمل ، ومن المؤكد ، انـه من الأفضل ان تعيش دون ان تؤدي أي عمل على الاطلاق .

أجاب جيمس بفتور :

– هذا صحيح يا جاك ، الأفضل ان تذهب ،اسرع وإلاّ تأخرنا عن موعدنا ،

سنراك فيما بعد يا جاك .

وغادرنا المكان ، ولوّح أوسكي بيده مودعاً ، ولما بلغنا نهاية الدرجات ، قال جيمس :

– تعال وألقِ نظرة على المطبخ .

وفتح باباً لغرفة واسعة خالية ، فرأيت ولداً صغيراً جالساً قرب المدفأة يقرأ قصة رعب مصورة ، وأعلى المدفأة مغطى بصحون كثيرة ، لتجفيفها . قال جيمس مخاطباً ولد المطبخ .

– هالو رودي !

ثم أدار عينيه الى البالوعة الموجودة في زاوية الغرفة وسأل :

– أما يزال هناك ؟

فأجاب الولد :

– لقد أخرجوه وغيّروا فيه ، وأخذ « نيبر » تسعين جنيهاً ثمناً له .

وأعطاه جيمس لفافة تبغ ، تقبّلها بلهفة . وخرجنا ، وبدأ جيمس يقص لي قصة « نيبر » النشال الذي دخل المطبخ وهو يقبض على معطف ثمين من الفرو وكان رجال الشرطة في أثره ، فتولى أوسكي مهمة إخفائه في البالوعة ، وجاء رجال الشرطة ليبحثوا عنه ، فطلب منهم ان يفتشوا في كل مكان – ولم يكن لديهم إذن بذلك – ولم يفكر واحد منهم في النظر الى البالوعة التي أخفاها عن العيون البخار الكثيف المتصاعد ، وبقي معطف الفرو أكثر من اسبوعين ، ثم أُخرج في أسوأ حالة ، ومع ذلك فقد بيع المعطف بتسعين جنيهاً ، وقد كانت صفقة رابحة جداً .

كانت السماء تهطل باستمرار ، وسألني جيمس عن حالتي ، فأجبته بأنني متعب جداً من التجوال اللاهادف المستمر في سوهو . وكنت أتمنى لو ان جيمس تركني وحدي ، لعلي أجد زاوية مظلمة في أحد المقاهي لأنام ولأقرأ بهدوء ، ثم إنه كانت هناك معضلة إيجاد غرفة لي .

ولدهشتي ، فقد عارض جيمس في السعي للعثور على غرفة ، وأصرّ على أنه

سيجد لي مأوى للاسبوع القادم ، فسألته بحيرة :

– ماذا سأصنع ؟

– اصغ إليّ . لن نستطيع الكلام تحت هذا المطر ، تعال الى هذا الممر .

احتمينا بين صندوقي قمامة ممتلئين ، موضوعين أمام مدخل حانوت متهدم ، كنت مبتلاً ، متعباً ، لا أدري أين أذهب ، وخيل لي انني بلا مأوى منذ سنة على الأقل .

سألني جيمس :

– ما هو مقدار النقود التي معك ؟

– نحو اثني عشر جنيهاً . (ورغم تعبي احتطت ، فأنقصت نحو خمسة جنيهات .)

– لديّ اقتراح . هل تريد ان تعمل ؟

– كلا .

– ليكن، ان اثني عشر جنيهاً تكفيك اسبوعاً. او قل عشرة ايام، صحيح؟

– صحيح !

– هاك اقتراحاً : سنعيش على نقودك في الأسبوع القادم ، وانا أعرف كيف يمكن التوفير في إنفاق النقود ، ثم ستعيش على حسابي مدة اسبوعين .

– كيف ذلك ؟

– سنؤلف عصبة للتعاون المتبادل .

– ولكنك لا تملك شيئاً من النقود .

– هذا صحيح ، إلا اني أعرف كيف أعيش دون عمل ، ولن أجد صعوبة في الإنفاق عليك .

ورغم ان حالتي لم تصل بي الى هذا الموقف الحرج ، فقد سألته :

– وماذا سنفعل بعد انتهاء الاسبوعين ؟

– بعد انتهاء هذه الأيام ، ستصبح قادراً على الاهتمام بنفسك وسط صحراء هذه الحياة . فقط راقب عمك جيمس وتعلم منه .

– اتفقنا ، سأغامر .

لم يكن لديّ ما أخاف عليه ، ثم إنني لسبب ما وثقت بجيمس وتعلقت به ، لا لأنه عاجز عن الخداع ، بل لأنني تأكدت من عجزه التام عن عمل شيء واضح مثل إنفاق نقودي ثم الإختفاء .

قال :

– أنت رجل حكيم . لن تندم على ذلك ، والآن ، ما الذي تريد ؟

– لا شيء ، غير أني تعب .

– هل تريد ان تنام ؟ حسناً ، سأجد لك غرفة .

– أين ؟

– على مسافة عشر دقائق من هنا ، تعال معي .

اجتزنا شارع اكسفورد ، متجهين نحو طريق راثبون ، ثم وصلنا شارع برسي ، وهنا التقط جيمس مفتاحاً من جيبه وفتح باباً أمامياً ، فسألته .

– هل أنت متأكد من أنّ هذا ما تريده ؟

– أتم التأكيد ، هذه غرفة فتاة تعمل نموذجاً طيلة النهار ، ولا تعود أبداً قبل المساء .

صعدنا درجاً إلى الدور العاشر ، وكانت الغرفة مثل غرفتي في كورتفيلدغاردنز تحت السقف تماماً ، وكانت الدرجات الأخيرة مظلمة جداً ، ولكننا اهتدينا إلى طريقنا . وأخرج جيمس مفتاحاً ثانياً ، ودخلنا غرفة صغيرة ، فيها أشياء مبعثرة ، وأسرع بإشعال الغاز . فسألت :

– لنفترض أنها جاءت .

– لن تحضر الآن ، هي تأتي هنا في السابعة مساءً ، وإن جاءت فقل لها إنك صديقي ، ولا تخف ، فلقد ساعدتها عدة مرات .

– وأين ستذهب الآن ؟

– إلى المتحف الوطني ، سألتقط فتاة من هناك ، وسألتقي بك بعد ساعتين. نم الآن ، وعندما ينتهي الغاز ضع ستة بنسات في هذا الشق ، سنتقابل

فيما بعد .

وجـــدت فنجان شاي بارداً ، عليه بقع من أحمر الشفاه ، وجلست على السرير غير المرتب ، فالكرسي تعلوه كومة من الثياب الوسخة. أصبحت الغرفة كالفرن ، فأطفأت النار . ووجدت شفرة حلاقة على حافة النـافذة ، فقررت أن أحلق ذقني . فشفراتي قـــد ظلـّت مع امتعتي التي تركتها أمانة في محطة « توتنهام كورت رود » . سخنت ماء فحلقت ذقني ثم غسلت وجهي ، وجففته بفوطة أشبه بخرقة بالية . وشعرت بإنتعاش ، فحاولت ان انام ، ولكن منظر اغطية السرير ضايقني ، فحاولت ان اقرأ نيتشه ، فاستحال عليّ ذلك . أخذت أطالع كتاباً بعنوان « ماذا فعلت كيتي في المـــدرسة » ومضت ساعة ونصف الساعة. ثم سمعت أصواتاً ووقع خطوات، فأسرعت بالوقوف ووضعت حذائي. وقد بدت الغرفة مهملة بشكل بشع ، فأشفقت على الفتاة التي تسكنها ، ووددت لو استطعت أن أقوم بغسل الصحون والأواني القذرة وكان جيمس هو الذي فتح الباب وبرز فجأة فسألته :

– من معك ؟

أشار إليّ بأن أصمت ، وأغلق الباب بحرص ، ثم قال بصوت منخفض :

– اسمع ، معي فتاة صغيرة ، هل يمكنك ان تتركنا بعض الوقت ؟

– بالتأكيد .

وأخذت سترتي .

– سآتي بها . لقد قلت لها إنك قد تكون نائمـاً ، وأنا لا أريد مضايقتك . قل إنك مضطر لتخرج الآن ولمـــدة ساعة . وقل لها إن الغرفة غرفتك . موافق ؟

– موافق !

فتح جيمس الباب ، ونادى بصوت حلو :

– اصعدي يا حلوتي ، إنه مستيقظ .

دخلت فتاة الغرفة ، وقدم أحدنا الى الآخر :

– هاري ، هذه جينفر .

كانت الفتـاة في نحو السابعة عشرة من العمر ، ملابسها نظيفة كالملابس التي ترتديها فتيات الريف يوم الأحد، ولما تكلمت لاحظت ان لهجتها بلدي، فسألتها :

– هل انت من المقاطعات الوسطى « ميدلند » ؟

– من نوتنغام ، جئت الى لندن لمدة يومين فقط ، وسآخذ القطار عائدة الى بلدي بعد ساعتين .

زجرني جيمس بعينيه ، فقلت :

– آسف لأنني مضطر الذهاب مدة ساعة ، ولكن ابقيا هنا ، واشربا بعض الشاي ، واعتبرا الغرفة كأنها غرفتكما .

– هل أنت متأكد ، من ان لا مانع في بقائنا ؟

– نعم . يؤسفني انني مضطر الى الاسراع .

– أهذه غرفتك ؟

كدت ان أقول نعم ، لولا انني لاحظت انهـا رأت الثياب الداخلية الارجوانية الملقاة على الكرسي بإهمال ، فأجبت :

– انني اشترك فيها مع صديقة .

وبدا عليها الاهتمام ، فأرادت ان تطرح أسئلة أخرى عن عملي ، وخمنت ان جيمس أخبرها بأنني أحد الكتـاب الذين سيكون لهم مستقبل باهر في لندن . وشعرت بأنه يريد الانفراد بالفتاة . فلبست معطفي وخرجت . وقـد حسدته على الفتاة ، فقد كانت جذابة ، ولمـا وصلت إلى آخر الدرج ، تذكرت فجأة المرأة التي تواعدنا على اللقاء معها في الحانة ، فهتفت :

– جيمس لا تنس الموعد مع النيوزيلندية. هل تذكرها ؟ الفتاة التي اجتمعنا بها ليلة الأمس ؟

– أوه ، لقد نسيت هذا . سأحاول المجيء ، اذا لم أستطع ، فاذهب معهـا وحدك .

استقبلت الشارع والبهجة في قلبي ،وددت أن يبقى جيمس مع الفتاة لساعات.

الفصل الثالث

مشيت في شارع « توتنهام كورت رود » متجهاً نحـــو شارع اكسفورد ، وهبّت عليّ عاصفة ذهنية ، وقد حدثت هذه التجارب معي في فترات متقطعة خلال حياتي . إحدى هـــذه العواصف الذهنية التي أذكرها بوضوح ، حدثت عندما كنت في السادسة عشرة من عمري يوم مغادرتي المدرسة واستلامي وظيفة كرهتها فيما بعد ، وشعوري الكئيب بالضيق وعقم الحياة . وذات يوم ، أثنـــاء شربي الشاي ، قرأت جملاً رائعة « لشو » عـــن أنصار واغنر . كانت حقيقـة مرعبة ، وحشيّة ومخيفة ، وعصرنا هـــذا مذهل ، آثاره في حياتنــا الاجتماعية شاحبة ومدمرة ، فنحن لم نعد نعرف كيف نقتطع السعادة من حيواتنا ، إنـه الشاعر وحده ترفده رؤياه عن الحياة ، ولو كنا من الشعراء ، جميع أهل الأرض ، لوضعنا حداً للحياة ، قبل انتهاء هذا القرن البائس .

وجلست وقتئذ ، مثل القديس بولس ، زائغ العينين نصف أعمى . وشعرت بدبيب عجلات قاسية في داخلي ، كأن تعديلاً غريبـــاً داهمني . ثم نظرت إلى المصنع — الذي كنت أعمل فيـــه — بعينين جديدتين ، فكرهته أكثر من أي وقت مضى ، لكني لم أعد أشعر بعقم حياتي . بل على النقيض ، شعرت برغبـة

جامحة أصبحت نقطة الإنطلاق في الأسابيع التالية التي قضيتها في المصنع ، ولم أعرف على وجه التحقيق ما هي مهمتي الحياتية ، وكان من الصعب القول بأنني أنتمي الى طبقة من الشعراء ، لكني خصصت بعض الوقت لمحاولة توضيح رؤياي عن « الحياة كما يمكن أن تكون » وعادت عليّ هذه المحاولة بفهم جديد للأهداف الحياتية وبتركيز ذهني مفيد .

خفت حدة «العاصفة الذهنية» وانا منزرع في شارع «توتنهام كورت رود». لم تكن عيناي زائغتين ، اذ ضايقتني حركة السيارات المتواصلة التي جعلت من المستحيل عليّ اختراق الطريق . ولا شك ان حسدي لجيمس كان له الدور في عدم رضائي . وفي النهاية وقفت عند واجهة مكتبة مضاءة ، ورحت أنظر إلى عناوين الكتب الفنية الغالية الثمن ، وقد صُمم منتصف الواجهة بقصد الإغراء لبيع كتب جديدة . كانت هناك آلة ميكانيكية تفتح الصفحات الموضوعة في إطار معدني ، وكان في كل صفحة صورة ، وظهر أمامي صورتا تمثالين مصريين ، الأول – كما أظن « لميسيرنوس » وزوجته الملكة ، هاجتني دقة صنعها فتسمرت أتطلع إليها ، وانفتحت صفحة اخرى ، فكانت صورة تمثال من حجر البازيلت الأسود لرجل جالس . كان نحته رمزياً بحيث بدا لي أنه مكعب الشكل. وقد غُطيت ركبتاه وقواعد كرسيه بالكتابة الهيروغليفية، فازداد اضطرابي وحدقت فيه وكأنني أريد التهامه . ولما انقلبت الصفحة سرت في طريقي تتملكني رؤيا حسابية تامة مصنوعة من مادة حية ، وفهمت سبب كراهيتي للندن ، فالحياة التي يعيشها الناس في هذه المدينة مصاغة لتقف حائلاً جدارياً بين الرجل وروح الإتقان والدقة .

واستعدت ذكريات الأربع والعشرين الساعة الماضية برغبة وحنين . جيمس مع دورين ، جيمس مع ميرا ، جيمس مع جنيفر .

والسيدة التي كانت تتحدث مع وكيلها في الحانة ، والأسف السخيف على ترك الغرفة في كورتفيلد غاردنز » وجاك وحديثه ، وسوهو وحياته ...

كل هذه الأشياء القيت الآن في عالم المرئيات ، وشعرت بالخجل منها ، حتى

أن احتمال مقابلة فتاة نيوزيلنده كان مخجلاً ايضاً ، فهـذه المدينة لا حقيقية ، نكران للحقيقة بُني بأسمنت مسلح هائل عملاق ، فلو كنا من جبابرة الأخلاق ، بدلاً من أن نكون من الأقزام ، فماذا نفعل ؟ نحطمها !!

وتذكرت مارتي وحديثه عن تدمير المدن الضخمة . وبدت الفكرة معقولة.

انحرف ذهني ، وأنا أسير في شارع اكسفورد ، إلى مجهود آخر ؛ إلى مجهود ناجح كالمجهود العضلي الذي يبذله المصاب بالزكام الحاد عند تنظيف أنفه واسترداده لتنفسه الطبيعي . وهنا انتهى اشمئزازي وأنا أفكر في ظروفي الحياتية ، وفهمت أن معضلتي هي أن أتعلم « كيف أقبض على الاشياء » فالحركات العضلية تدفعنا إلى الامام . إن من المستحيل إعادة الإهتمام بالمعضلات الحقيقية ، فهذه المعضلات تستبد بنا بصورة لا يمكن تفسيرها كالضغط على الرئتين ، فمن الصعب أن نتنفس . ولكننا لن نقدر أبداً على حصر اهتمامنا بها مدة كافية لرسم خطة للخلاص منها . ومحاولة حصر الأهتمام يشبه الولع بالحصول على مادة مجهولة، على حافة ميدان رؤياك وتصوّرك. إنك تدير رأسك بعنف للامساك بها ، لكنها تظل في منأى عنك ، تتحرك ذات اليمين أو الشمال وتأبى أن ينظر اليها أحد ، والتجربة لا يمكن الإمساك بها بالطريقة ذاتها . ان الواحد منا يستطيع أن يحمل قطة من عنقها بحيث تعجز عن استخدام أظافرها وأسنانها مهما أدارت رأسها ، اذ تظل اليد القابضة على عنقها بعيدة عنها .

هذه هي حياتي أنا ، لا يمكن تنظيمها على نحو ما ، ومن المستحيل تدبير شؤونها ، فأنا أعرف كيف اتغلب على الصعوبات الطارئة ، إذ في وسعي أن أجد مكاناً لأنام فيه ، ووظيفة وطعاماً ، وإمرأة عند الضرورة . لكن هذا يختلف عن المعضلات الحقيقية ، الضغط على الشهوة الغامضة ، الشعور بالتراجع الجبان عن العالم ، انتظار هجوم عليك ، الخوف من الانهيار في النهاية .

ولا بد من وجود طريقة لمهاجمة العالم ، لكن قائد العدو يفضل حرب العصابات ، فلا ترى القوات المعادية لك ابداً ، ولن تستثار همتك للمقاومة ، والشكوك تأخذ من نومنا ، الا انها لا تنظم نفسها حتى تراها وتخطط لهزيمتها

التامة . هذه الأشياء والتمثالان المصريان ، أعطتني دليلاً جديداً لحياتي ، ولعلّي أن أكون قادراً على استعمال أسلحتي ، وتحديد الخطأ المنبثق في حياتي بدقة . فقبول الأمر الواقع هو الطريق الأكيد للانحدار نحو الهزيمة ، ووفــاة جدي أنقذتني من قبوو « وظيفة ثابتة » والمعضلة الآن هي كيفيــة اللاإنحـــدار مرة أخرى بطريقة باتة حاسمة .

وصلت الى هذه النتيجة عند وصولي الى الحانـــة الواقعة على ناصية شارع « أولد كومبتون » . ودخلت المكان وشعور بالثقة والزهـو ينبت في نفسي . كان المكان خالياً تقريباً ، وطلبت كأساً من البيره ، وجلست في زاوية ، وعلى الأثر انفتح الباب ودخلت دورين ، وبان عليها السرور لرؤيتي . وكنت قـد نسيت بأنها ساحرة جذابة . واشتريت لها قدح « شيري » وجلست بقربها .

قالت :

– كنت انتظرك في الشارع قريباً من هذا المكان ، وقـد شاهدتك وأنت تدخل الحانة فجئت لأراك في الحال .

– ولِمَ انتظرت في الشارع ؟

– أكره الجلوس وحدي في الحانات ، لكن الإنتظار في الخارج أسوأ ، إذ تعرض لي ثلاثة رجال .

– أنا آسف ، إذ لم ادرك بأني تأخرت .

– لست أدري إن كنت متأخراً ام لا ، فقد نسيت موعدنا على اللقـــاء ، ولذلك فضّلت ان آتي مبكرة .

امتلأت سروراً بلهفتها على ان تكون حريصة على الموعد . وجفّ هـــذا السرور فجأة عندما سألت عن جيمس لأنها تريد رؤيته .

قلت بأسف :

– من المحتمل أن يتأخر ، فلديه بعض الأعمال :

– هل رأيته بعد ليلة أمس ؟

شرحت لها ما حدث مذ رأيتها ، وأغفلت ذكر الفتاة ميرا . فامتعضت من

سلوك صاحبة البيت الذي كنت أشغل احدى غرفه وقالت :

– هل تعني أنها طردتك لأنك سمحت لصديقك أن ينام فوق الأرض ؟ ما أقذر هذا العمل ! وما هي خطتك للعثور على مكان تنام فيه ؟

تجاهلت السؤال . لكنها حملتني على أن أروي لها إتفاقي مع جيمس ، واستمرت تلقي علي أسئلة طويلة عريضة ، كالقذائف ، شلت حركة لساني ، وكانت هذه ، هي أول مرة أصدم فيها بتوجيه استعماري ، ولكن رد الفعل الذي صدر منها أدهشني أكثر ، فقد قالت :

– لعلك لا تعني أنك ستثق به وتعطيه نصف نقودك ؟

– ولِمَ لا ؟ لم يبق لدي الشيء الكثير على كل حال . هل تظنين أنه سيخدعني ؟

– وكيف تعلم وقد قابلته الليلة الماضية فقط ؟

أذهلني هذا السلوك ، وكنت على يقين بأن جيمس أثار إعجابها ، فقلت :

– انا أعرف ، ولن اخسر كثيراً ، كما اني لا أريد عملاً في الوقت الحاضر .

– ولكنك مضطر للعمل حالاً أو فيما بعد ، ولا اظنك ستعيش متسولاً .

– لا أدري . ثم ألا توجد وسيلة للعيش في هذا العالم غير العمل ثماني واربعين ساعة في الأسبوع ؟

أنهيت ما في الكأس من بيرة ، فأصرّت -رغم إحتجاجي- على ان تشتري لي مشروباً ، وقالت :

– سأشرب كأساً من « الشيري » وأنت لا تستطيع الاستمرار في دفع ثمنه .

راقبتها وهي تقف بجانب حافة البار ، فالفتاة الانكليزية تعطيك النقود وتسألك ان تذهب لشراء المشروب .

وانفتح الباب فغاص قلبي ، اذ توقعت ان أرى جيمس ، ولكن القادم كان رجلاً آخر . وقد سررت لذلك ، وكنت سعيداً جداً بالحديث معها ، ولم أرغب في ان يستأثر جيمس بها . وكان واضحاً أيضاً أن إهتمامها بشؤوني لم تكن له علاقة بأية رغبة جنسية ، والواقع ان سلوكها احتوى على نوع الأخت الكبرى

المسيطرة . كنت شاكراً وفرحاً لاهتمامها بأموري ، ثم تذكرت ذلك الرجل الذي انتزعها منا ليلة أمس ، فسألتها عنه ، فقطبت جبينها وعبست :

– تخلصت منه بصعوبة ، حاول ان يعرّيني من ثيابي في التكسي ، فسألت السائق ان يوقف السيارة ، وغادرتها وانا خائفة من ان يلحق بي . لكن السائق طلب أجرته فاستطعت ان اختفي في شارع جانبي قبل ان يبدأ البحث عني مرة ثانية .

– هل يعرف عنوانك ؟

– كلا ، انه يعرف رقم تلفوني فقط ، ولن أجيب على مخابرته إن اتصل بي!

تناولت قدح المشروب لأخفي ابتسامة نبتت على وجهي . وقلت :

– في صحتك .

فابتسمت بعذوبة . ثم سألت فجأة :

– ماذا ستفعل مع صديقك جيمس ؟

– ماذا تقترحين ؟

– لِمَ لا نغادر المكان الآن ؟ لن يعرف أين سيجدك ، ولا حاجة لرؤيته مرة أخرى .

– ولكنه سيجد مكاناً أنام فيه هذه الليلة !

– في لندن ، الكثير من الفنادق الرخيصة ، وإذا شئت فأنا أدعوك لقضاء هذه الليلة في غرفتي ، فوق أريكة ، ولكن دون وسائد .

الإغراء قويّ عمّق شعوري نحوها ، فإن اليوم الذي قضيته متسكعاً في سوهو أرهقني وشل حركتي ، وأرعبني التفكير في قضاء شهر كامل على هذه الشاكلة . ولكن فكرة قضاء الليل مع دورين هذه – التي خيل لي بأنها ستصبح من ممتلكات جيمس – في غرفتها ، دغدغني وراقني ، فهي اكثر جاذبية – كصديق – من جيمس ، ورفقتها كإمرة أروع من تسكعي اللامجدي برفقة جيمس ، إلا انني ما زلت متعلقاً به ، ولن اتخلي عنه ، فأنا احبه ، ولن أبيع صداقة بإغراء سيموت سحره يوماً ما . وهززت رأسي وقلت :

– انا آسف ، لن أشاركك غرفتك الليلة ، إن جيمس ما زال صديقي . ولم يفعل شيئاً يدعوني لسحب ثقتي به ، فلايمكنني قطع الصلة معه .

– ليكن هذا ، إنها جنازتك ، ولكن عليك أن تجد عملاً لك ، عندما تنفق نقودك .

– هـذا صحيح ، ولكني لا أعشق العمل في مكتب من مكاتب المدينة ، مقابل خمسة جنيهات في الاسبوع ، انا أبغض ان اعمل .

– وأي الاعمال تريد ؟

وبدأت أسرد عليها حكاياتي عن وظائفي السابقة ، وعن عملي في حفر الطرقات ، وانتقالي من بلدتي الصغيرة ، وهجرتي الى هـذه المدينة التي أمقت . وكانت مصغية مبهورة بأحاديثي ، مما شجعني على متابعة شرح افضل افكاري ، التي تتعلق بوجود جماعة من الفنانين والكتّاب يفجرون طاقات مواهبهم ليعاون أحدهم رفيقه بمجرد انزلاق قدمه في دربه الحياتي . ليمنع استعبادهم للعمل عند الآخرين ممن يملكون المال ، ولا يملكون الموهبة . واشتدت حماستي وانا أعيد شرح الموضوع .. آه لو وجدت قلوباً اكثر عطفاً ، لأمكن شراء بيت قديم لتحويله الى دير للفنانين ، ونقسم العمل عليهم : فبعضهم يصنع الموبيليا وغيرهم يزرعون الخضروات او يربون الدجاج ، وسيقسم العمل بينهم بالتساوي ، فسيعمل البعض لمدة ساعات يومياً على تأليف الكتب او رسم اللوحات الفنية وبمجرد طبع أحد الكتب ، او بيع لوحة فنية لأحد الفنانين ، يُقدم جزء من الثمن للجماعة . ووصلت قمة الانفعال عندما قلت :

– كل ما نحتاج إليه ، هو وجود أرواح عطوفة تعترف بمصالحها ، وتتعلم وسيلة إيجاد شيوعية خاصة بها .

وابتسمت وهي تقول :

– وكيف ستعثر على هذه الارواح المختارة ؟

– في هذا الشارع ! انا استطيع العثور على عشرات منهم في هذه اللحظات.

وخيل لي أنها اقتنعت بالفكرة ، فقلت :

– هل ترغبين في مغادرة هذا المكان ، والذهاب الى المقهى الملاصق ؟ قد نلتقي بأحد الأصدقاء !

أردت بعملي هذا ان اؤجل موعد رؤية جيمس ، خوفاً من سحره الطاغي عليّ . وشربنا مشروبنا ، ودرنا حول زاوية الشارع ، ودخلنا المقهى . ولقد رأينا جاك جالساً في أقصى المكان ، بقبعته الغريبة المستديرة ، ومعطفه الفضفاض ، فلمحني ولوح بيده ، فسألتني دورين :

– من هذا ؟

أجبت دون اكتراث :

– سأعرّفك عليه !

واخترقنا الطريق بصعوبة حتى وصلنا الى طاولة جاك ، فصرخ :

– أنت من ابحث عنه،انا في حاجة الى أربعة بنسات لشراء بعض السجائر، فهل يمكنك ان تقرضني أربعة بنسات ؟

وألقى على الطاولة ما لديه من قطع نحاسية.فأخرجت من جيبي اربعة بنسات أضفتها الى نقوده . ثم عرّفته على دورين ، فهب واقفاً وصافحها بإحترام عميق، وقال بصوته المرتعش :

– انها فتاة جميلة جداً ، آمل ان تكون من المثقفات .

قالت دورين :

– احدى المثقفات ؟

وتأوهت صامتاً ونظرت حولي طالباً النجدة ، لكني تأخرت ، فقد أخرج جاك محفظته المزدحمة بقصاصات الجرائد ، وراح يخطب بنا . وكان يردد :

– التثقف يعني فهم فكرة « كارما » . اجلسا مدة دقيقة واحدة،لنتحدث عنها، ولكن اسمحا لي بشراء سجايري أولاً (وهي من ارخص انواع السجاير) .

في هذه اللحظة رأيت (الكونت) داخلاً من الباب فقلت بسرعة :

– لحظة يا جاك ، فقد رأيت رجلا كنت ابحث عنه منذ زمن طويل ، وسأعود بعد قليل .

قبضت على ذراع دورين ، وسحبتها معي ، فسألت :

– هل تشرح لي هذا ؟

– سينفق عدة ساعات معنا ، يثرثر فيها عن (كارما) ، تعالي الآن ، سأعرفك على صديق آخر .

كان دي بروين يقطع الوقت في ثرثرة عادية مع رجل جالس وراء صندوق النقود ، وأشرق وجهه بإبتسامة لما رآني . وقال :

– هالو هاري ، مضى زمن طويل على إجتماعنا ، كيف الدنيا معك ؟

– بخير ، شكراً .

إختلست نظرة إلى صديقه . كان رجلا قصيراً متلفعاً ، ذا لحية وشاربين ، وقد استوى واقفاً ليأكل دورين بعينين لامعتين ، وقال الكونت :

– دعنا نذهب الى مكان آخر للحديث ، لديّ عدة امور سأناقشها معك .

والتفت إلى صديقه ذي اللحية وقال :

– اتسمح لنا بذلك يا راءول ؟

– لن اسمح لك قبل ان تعرفني إلى صديقيك الجميلين !

وكان يلقي نظرات على دورين ، قد تصفها المؤلفة « ماري كوريللي » بأنها « نظرات محرقة ». وظهر لي ان « الكونت » كان منزعجاً ، وقدمت دورين إليه ، ولاحظت فجأة ان الرجل الملتحي كان يحمل (شيئاً) بيده اليمنى .

وبعد ان تم التعارف قال الكونت كمن يود التهرب :

– هذا الرجل هو راءول مونتوبان .

انحنى الفرنسي محيياً ، بطريقة سينمائية ، ووضع (الشيش) بصورة عمودية الى جانبه ، فبان الضيق على وجه إمرأة كانت تعتقد كرسياً بجانبه ، قال :

– تشرفت بلقائكما ، أما الشيء الذي أهمل صديقي ذكره ، فهو أنني ابرع لاعب سيف في فرنسا .

فأجبناه بأننا مسروران بالتعرف عليه . وحاول دي بروين أن يتجه نحو الباب ، لكن فيضاً جديداً من الزبائن حال دون قصده ، وظل الفرنسي يتكلم

قبل ان نتمكن من الاعتذار لإضطرارنا الى الخروج ، قال :

– انا ابحث عن رجل يسدي إلي معروفاً ، لأنني سأبارز رجلاً بعد ظهر الغد ، فهل أستطيع ان اقنع أحدكما بأن يكون شاهدي !

أجابه الكونت مسرعاً :

– في مناسبة أخرى يا راءول !

– قد لا تسنح فرصة أخرى ، قد أصاب بجراح قاتلة ، وفي هذه الحالة أفضل بأن يكون صديقي إلى جانبي ، فهل تتكرم بذلك يا سيدي الكونت ؟

– آسف ، هذا مستحيل !

نظر إليّ الفرنسي وقال :

– أرغب ان تكون منفذاً لوصيتي في حالة وفاتي ، فماذا تقول يا سيدي ؟

أجبت بلهجة الشاكّ :

– لست أدري ، ولكن ... ما نوع الوصية ؟ وماذا تقتضي مني ؟

– اسمع ، أريد أن أدفن في أقرب مكان من ميدان سوهو ، دون زهور ، أريد شاهدة متواضعة توضع على قبري ، تحفر فيها الكلمات التالية :

« هنا يرقد راءول دومونتوبان ، أعظم لاعب سيف في أوروبا ، خافه ونبذه عالم غيور ، الشرف فوق كل شيء . »

وجدت صعوبة في تصديقه ، لقد كانت أقواله غير جدية ، فعلى الرغم من حركاته المتواصلة ، كان في وجهه شيء يدل على انه محتال ، كأنه يود أن يخفي تفاخر نفسه ، ولم يرق في عيني دورين ، إذ سألته مشيرة إلى الشيش :

– تعني حقاً أنك تحسن إستعمال هذا ؟

– أمس ، دعاني دوغلاس فيربانكس إلى استديوهات وارنر إخوان ، وقال لي : « راءول ، لقد علمتني كل ما أعرفه عن طريق استعمال السيف ، أنت بحق أمهر لاعب سيف قابلته في حياتي ، وأود ان أعطيك دوراً في فيلمي القادم ، ولكنك ستطغى علي وتكسفني . » وعلى هذا رفض إشتراكي معه في التمثيل ، وعلى كل حال قدم لي غذاء دسماً . وهو يعرف طبعي ، فأنا لا اتحدث إلى

الصحف أبداً ، تلاميذي مقدسون عندي ، أحبهم جداً .

وفي هذه اللحظة أمسك دي بروين بذراعي ، او بالأحرى دفعني نحو الباب ، وقال :

– راءول . إننا نفخر بشجاعتك ، سأحزن كثيراً إذا قتلت ، أو جرحت في هذه المبارزة ، علينا ان نذهب الآن ، وسنراك فيما بعد .

فاجاب بحزن مصطنع :

– لن ابارز في هذه الليلة ، إذ عليّ ان اغسل الصحون في مطعم « ليونز » .

واتجهنا نحو الباب ، بينما كان يتطلع الى دورين بنهم مخيف ، راعتذر دي بروين قائلاً :

– أنا آسف على ما حدث ، فهو أكبر ثرثار في سوهو ، يتكلم ويتكلم دون إنقطاع لساعات طويلة .

فقالت دورين :

– على العكس ، فقد وجدته لبقاً ، حلو الحديث .

– إسمحي لي سيدتي ان اقول انك تكشفين عن ناحية النقص في العقل النسائي ، فلم يعرف احد حتى الآن سبب تفاخر راءول بهذه الطريقة العجيبة ، لأنه لم يوجد بعد من يوقف تدفق كلماته ، حتى لمدة قصيرة ، وكما علمت فهنالك طريقة واحدة للنجاة من ثرثرته المتواصلة ، وهي ان يتكلم جليسه بكلمات مفهومة وغير مفهومة ، بقذف سيل من الكلمات الكبيرة ، عندها يتوقف راءول لأخذ نفس طويل . اذكر عندما جئت إلى سوهو لأول مرة ، أنه لم يحذرني احد من راءول، وبعدما استمر في الحديث معي مدة عشرين دقيقة دون إنقطاع ، وجدت نفسي أذوب عطفاً عليه . وهو يكتشف هذا بسرعة ، فإذا رأى جليسه مضطراً إلى هز رأسه علامة الموافقة ، انتحى به جانباً وراح يحدثه دون إنقطاع عن مبارزاته وغزواته مع النساء .

وكنا في هذا الوقت بجانب الحانة ، فدفعت الباب ، ورأيت جيمس جالساً في صدر المكان ، وقلت للكونت :

– لِمَ لا تدخل ؟ سأرى صديقاً هنا ، فأنا على موعد معه .
– ومن هو هذا الصديق ؟
– فنان اسمه جيمس ستريت .
– أفضّل في هـذه الحالة عدم الدخول ، فقد حدث ان اختلفنا مرة او مرتين . سأراك فيما بعد !

وانحنى لنا ، وسار بعيداً دون ان يلتفت ، فقالت دورين وهي تضحك :

– ما أغربهم من أصدقاء ! إنهم يتحدثون كأشخاص الروايات .
– هذا ما افكر فيه الآن ، لندخل وننضم الى جيمس .
– هل تمانع إذا لم آتِ معك ؟
– كلا ابداً . ولكن لماذا ؟
– الحانة مزدحمة ، وعليّ ان اذهب الى غرفتي لأغسل شعري .
– حسناً ، ومتى سأراك مرة ثانية ؟

أخذت ورقة صغيرة من حقيبة يدها ، ودوّنت عليهـا أحرفاً وارقاماً ثم قالت :

– إليك رقم تيلفوني ، اتصل بي متى أردت ، اعتذر لصديقك عني ، قـل بإنني مصابة بصداع شديد .

وانصرفت قبل ان أعرض عليهـا مصاحبتها الى مسكنها ، وشعرت بخليط من الارتياح والقنوط ، الارتياح لأنها لم تكن راغبة في رؤية جيمس كما فكرت ، ولأنها لم تكن متعلقة به ، ومع هذا فلم اكن واثقاً من رغبتها في مقابلتي ، فقـد أقنعت نفسي بأنها سجلت لي رقم تيلفون مزوّراً ، وهي لا ترغب في لقائي مرة ثانية ، وعلى كل حـال فهذا الأمر لا يهمني . لن يتفتت قلبي ويتحطم ، وكتبت رقم التيلفون في مفكرتي قبل دخولي الحانة . لوّح جيمس بيده وقال :

– هالو ، اين الفتاة ؟
– لم تستطع الانتظار ، رافقتها الى محطة النفق .

وبادرته بسؤال سريع لأمنعه من توجيه أسئلة اخرى :

– أين كنت كل هذا الوقت ؟

– أداعب جنيفر واغازلها ، فهي لذيذة جداً .

– واين قابلتها ؟

– في المتحف الوطني للوحات الفنية ، وهي موظفة عادية في مكتب بمدينة توتنغهام ، وستتزوج في الأسبوع القادم ، ولهذا وفدت الى لندن لتشاهدها عن قرب قبل ان تسجن مدى الحياة في بيت الزوجية ، وزوجها المقبل هو رئيس كتبة في بلدته. وقد ألقيت عليها محاضرة تحتوي على موعظة ، ان الزواج سوف يمتص حياتها ، ويسرق حريتها ، وستقضي الحياة كلها وهي تشاهد وجهاً واحداً لا يتغير ، وبدا لي أنها آمنت بما قلته لها ، وقد احمرت وجنتاها واهتاجت عندما اكتشفت انها ما زالت عذراء ، فقلت لها ...

– وماذا كان شعورها في هذا الشأن ؟

– كانت فرحة وممتنّة للاقتراح ، لكنها اشارت الى انها مضطرة للسفر بالقطار بعد ساعات ثلاث ، والقضية تحتاج الى وقت طويل ، فقلت لها إن الأمر لا يتطلب وقتاً طويلاً ، وعندما تم كل شيء أخذتها بسرعة الى شارع برسيفال لتلحق القطار .

عدت بالقدحين ، وجيمس غارق في تفكير عميق ، وعند عودتي قال :

– انا أؤمن بالحرية ، آه ما أروع ان تكون حراً . انها الشيء الذي لا يفهم معناه هؤلاء البورجوازيون الخنازير . خذ رئيس الكتبة اللعين ، لديه كل الامكانيات التي تظهره في المجتمع ، وظيفة جيدة ، وراتب تقاعدي عند بلوغه الستين ، وبيت جميل تحيط به حديقة في الضواحي ، وهذا كل ما تحلم به المرأة . ومع ذلك فقد اختارتني جنيفر ، وفضلتني على رئيس الكتبة ، هل تشرح لي هذا ؟ انا أقول انها اشتمّت في شخصي رائحة الحرية التي لا يمكن وصفها ، هل تعرف ما قالته لي قبل سفرها ؟ قالت ان امنيتها بأن تحمل مني لأنها تفضل ان يكون ابنها مني انا ، لا من زوجها القادم رئيس الكتبة !

وحلقت به الثقة عالياً ، فعجزت عن مقاتلة ضحكة علقت في وجهي ،

ورغبت أن اعيده الى ارض الواقع الذي يتمرغ فيه . فقلت :

– وماذا تنفع حريتك إن كنت لا تعرف أين ستجد وجبة طعامك المقبلة ؟

– إنني أعرف بالتأكيد ، فأنت من سيدفع ثمنها !

ولم أستطع المقاومة ، مقاومة منطقه المرح فقلت :

– هيا بنا للبحث عما نأكله .

* * *

في الساعة الحادية عشرة والربع خرجنا من الحانة متوجهين الى شارع وايتهول، وبرزت مشكلة إيجاد المكان الذي سنستلقي فيه للنوم، وكانت معدتي تعوم فيها كؤوس البيرة الكبيرة ، والاستعداد عندي يقوى ويشتد للنوم على ضفة نهر التايمز ، وقال جيمس :

– التنبؤات الجوية حسنة جداً ، انا سأختار مكان النوم .

– وما هي العلاقة بين التنبؤات الجوية ومكان نومنا ؟

– هذا سرّ ، سترى الآن .

وتسكعنا في طرق عديدة ، طريق القديس مارتن ، ثم انحرفنا الى شارع شافتزبوري ، ثم الى ممر ضيق صغير . وأخيراً قادني الى طريق لا منفذ لها ، وأشعل عود ثقاب ، فاستطعت ان أرى عدة صناديق قمامة واكواماً من الأوراق البنّية السميكة . فقال كالمرشد :

– اجمع ما تقدر عليه من هذه الأوراق ، إنها تستعمل كالمخدات .

وبدأ جيمس في عملية جمع الأوراق ، منظماً إياها بدقة على شكل حزمة . وجاريته في العمل فنظمت أوراقي ، وكانت الاوراق كما يظهر للف الحاجيات وأخذ جيمس يبحث عن شيء ما، واخيراً وجد خيطاً طويلا ربطنا به رزمتينا ثم قال كقائد جيش :

– والآن إلى محطة واترلو .

اجتزنا كوفنت غاردن حتى بلغنا محطة واترلو ، وبدأ المطر ينهمر بغزارة . فقال :

– يا للجحيم ! كم تمنيت لو كانت التنبؤات الجوية صحيحة .

– لماذا ؟ هل صنقضي ليلتنا في العراء ؟

– كلا ، بالتأكيد ، فسوف ننام في القطار .

– وهل يباح هذا ؟

– هذا مباح ان كانت لديك تذكرة سفر،فالقطار يصل عند منتصف الليل.

وهذا ما حدث. فقد ذهب جيمس واشترى تذكرتين، ووقفت أتطلع إلى رزمتي الورق ، وسرنا حتى نهاية أحد الأرصفة . كان قطارنا في الإنتظار ، ووصلنا الى عرباته الأخيرة التي لا ينتظر ان يشغلها احد ، واحتللنا عربة من الدرجة الثالثة ، وبسرعة أغلقنا الباب واسدلنا الستائر . وشرح لي جيمس الطريقة المثلى التي أضع بها الأوراق تحت قميصي لشحني بالدفء ، ومنع البرودة من التسلل إلى جسدي .

وتفننت أكثر ، فربطت وشاحي حول الأوراق . ثم استلقيت بهدوءواضعاً رأسي فوق ذراع الكرسي القطاري المبطن ، ونمت وانا أرتدي معطفي الفضفاض .

صحونا عند الفجر ، وكانت الدنيا ساكنة ، والقطار بدأ يتحرك ، والمفتش يسأل عن التذكرتين . وعندما ألقى نظرة فاحصة على التذكرتين ، دمدم قائلا:

– تذكرتان إلى ستينز[١] .

وأدار المفتش الوقور ظهره لنا . وهنا بدأت عملية جديدة ، فرفعنا الستائر وقمنا بمسح البخار عن زجاج النوافذ ، فلم نر شيئاً . كان الظلام ما يزال دامساً ، خارج العربة . وقال جيمس :

– أخشى ان يكون الوقت غير مناسب لجولة الفطور . عليك ان تمارسها في

---

١ – ضاحية قريبة من لندن ، ثمن التذكرة لا يتعدى الشلن .

فصل الربيع فهي ممتعة للغاية، فالقبرات في الجو، والقواقع في الشباك،والعصافير تشدو وتغني، والأبقار في المراعي . وما إلى ذلك مما يستطيع وصفه شاعر، ومن دواعي السرور ان تكون مشرداً .

رحنا ندخن بشراهة بينما كان القطار يقف في مقاطعة ميدلكس كل نصف ميل، ووصلنا أخيراً الى محطتنا، محطة « ستينز » .

وبحثنا عن مكان خال لننزع الأوراق من تحت ملابسنا الداخلية، وقد كان جيمس على حق، إذ انها تدفىء الجسم كأنها معطف ثان ؛ وألقيت الأوراق تحت مقعد في الشارع . وبدأ الصبح ينبلج، وكانت الساعة السادسة والنصف، وسألت :

– وماذا نفعل الآن ؟

– سنشرب شراباً دافئاً . ولو كنا في منتصف الصيف لذهبنا سيراً بمحاذاة النهر، ولكن لا لذة في ذلك قبل وضوح النهار .

ومشينا نصف ميل حتى وجدنا مقهى خالياً . أدخلنا الدفء إلى أجسادنا بفنجانين من الشاي، واشترينا علبة دخان . ومكثنا وقتاً منتظرين اشراقة الشمس، فأطلت علينا طالبة منا المسير على محاذاة النهر الذي بدا كالفولاذ تحت اشعتها اللامحرقة، وكانت الحشائش مغسولة بالندى، وأنفاسنا تتصاعد كأنها غيوم صغيرة . أخرج جيمس « سجقتين ساخنتين » من جيبه، كان قد إشتراهما من المقهى . فأكلناهما ببطء، وكان طعمهما من أشهى والذ الأطعمة التي تذوقتها في حياتي . وقد لاحظ ذلك وسأل :

– هل حافظت على نصيبي من الإتفاق ؟

فأجبته بحذر :

– حتى الآن . نعم !

اعتمد عليّ . فلم يطبق المعجبون عليّ لقب « ساحر » عبثاً .

ومعنى ذلك انني أتدرب على يدي «ساحر» . أضحكتني الفكرة، وشعرت بالزهو والإنتعاش حتى كاد كل شيء يضحكني . وتوهج وجهي احمراراً ونحن

نفسي ، وهج الحياة الحرة غمر قلبي ، وشعرت بأنني مخلوق جديد .

بعد عشر دقائق قال جيمس وهو يشير إلى رقعة من الأرض :

- هذه « رانيميد » حيث وقعت وثيقة « الماغنا كارتا » .

حاولت ان اتصور الملك جون محاطاً بالبارونات في هذه الرقعة ، ولم يك ذلك صعباً عليّ ، لأسباب عديدة . وسألني فجأة :

- هل ستأسف يوماً على حياتك في سوهو ؟

كنت أستطيع ان أخمن ماذا يقصد بسؤاله هذا، إنه يريدني ان أعترف بانني وجدت الطريقة التي ترشدني الى الحرية،ويريدني ان أقول أن حياتنا هذه ، هي الدرب الوحيد الذي يقود إلى تفهم معنى الحرية . وكان هذا ما يؤمن به . أما أنا فلم أؤمن بهذه الطريقة بعد . نعم إني ما زلت أحس بحرارة الود نحو جيمس وقلت له إن لندن تجربة كبرى لي ، واشتدت حماسته ، وانفعل وهو يقول :

- عليك ان تكتب رواية عنا ، سمّها «المنبوذون أو المشردون» وبيّن فيها كيف يعادي مجتمعنا الرجال الذين لا يأبهون لعيش النفاق ، وكيف لم يستطع المجتمع إرغامنا على الإنحناء بخنوع . ان المجتمع يرهب جانبنا ، يخاف منا ، خذ مثلاً ، كيف يعامل البرجوازي العاهرات ، فهو يضاجع امرأة منهن ، ولكنه يخاف أن يعرفها على زوجته وبناته ، حاول يا هاري ان تظهر الفساد والتخلخل في جذور حياتنا ، أعني الحياة التي يعيشها معظم الرجال في عالمنا . قلت بإنفعال :

- والرجال ذو الشجاعة الكافية هم الذين يفهمون معنى الحرية .

واختفت ملامح السأم في وجهه عندما أجابني قائلاً :

- هذا صحيح ، معظم الناس منافقون مدلسون يقضون الحياة جرياً وراء مال جديد ، ليشتروا به اجهزة تلفزيون وآلات غسيل . هم يستطيعون شراء كل شيء ، ولكنهم لن ينالوا الكرامة الانسانية ، انهم يعجزون عن شرائها ، فالعبد خال من الكرامة . ولهذا فهم لا يطيقون طبقتنا ، هم يعرفون أننا نرفض ان نبيع انفسنا للوهم الأكبر ، ولن نساعد في عمليات التزييف البشعة ، وسنبقى

مصدر لوم عنيف لهم .

ومضى يروي قصة قصيرة عن حادثة جرت له مع صديقين ملتحيين وكيف طردوا من حانة في سوهو لا لسببٍ خاص ، فقد جاء مدير الحانة وطلب منهم الخروج ، فلما رفضوا أرسل الساقي ليستدعي شرطياً .

لم افهم القصة بجذافيرها ، ولكني خمنت انه يريد ان يصور الخوف الأساسي وعداء البورجوازيين للبوهيميين ، وحسبت ان من المحتمل ان يكون لدى صاحب الحانة سبب قوي ، حتى أراد طردهم . لم اشأ ان اقول هذا لجيمس ، لأنه كان غارقاً في تفكير عميق .

ثم اخذ يسرد حكاية أخرى ، عن صديق له قذف بكأس البيرة في وجه ساقي الحانة ، ثم وقف بجانب الباب وألقى خطاباً على الجمع المحتشد قال فيه بإنفعال :

– ايها الجبناء ، هل تدركون معنى الحرية ؟ انتم تسحقون حقوق الانسان وحريته .

فلم يجبه احد ، وفي النهاية امسك جيمس بذراع صديقه واخرجه وهو يهمس في أذنه :

– ألا تفهم ؟ هؤلاء الناس ينظرون إلينا كأفاقين ، نربي شعورنا حتى تتدلى قرب اكتافنا ، نرتدي ثياباً ملونة مضحكة ، وهم لا يستطيعون تغيير هذه النظرة ما داموا تحت تأثير التلفزيون والصحافة .

وبدت في صوته رنة البطولة وهو يكرر قوله . ومن الغريب أنه ثار لأول مرة على السخط الاخلاقي مما جعلني اهز رأسي متحمساً وقلت :

– الموضوع يصلح لرواية ممتازة .

– الشيء الذي لا يفهمه الناس ، هو ان المصلحين الكبار كانوا من المتشردين والرعاع الذين لم يقبلهم المجتمع ، هل يمكنك ان تتخيل المسيح او القديس فرنسيس يطوف في سيارة كاديلاك ؟ لا . كانا مثلنا هائمين على وجهيهما في الحقول .

وضاع اثر الجملة الأخيرة إذ بلغنا وندسور . واقتربنا من احـــد المقاهي على قارعة الطريق ، وشعرت بالجوع لطول المسافة في تجوالنا .

أنفقنا شلنات قليلة للسندويتش والقهوة ، ونسي جيمس سخطه على الأخلاق وشرح لي طريقته الخاصة للحصول على وجبـة مجانية من جيب سائح او سائحة اميركية ، وبعد تناولنا الطعام اخذنا الباص الى بلدة مجاورة تسمى « سلاو » . ثم أوقف لنا سائق بدين سيارته « اللوري » وكانت مزدحمـة بأنابيب المجاري ، وأذن لنا بأن نتخذ مكاناً لنا في المؤخرة . قفزنا فرحين ، ودخنّا آخر سيجارة متقاسمين التدخين بالتناوب ، وانهمر مطر غزير فوق رأسينا وساعدت الأنابيب في عملية تجميد ظهري، وكانت ساقاي خدرتين عندما وصلنا الى « شبردبوش ».

نظرت الى جيمس ، فوجدته فرحاً مغتبطاً ، وقال بسرور :

– فراش وفطور لكلينا بأقل من عشرة شلنات .

فقلت له وانا ارتعش البرد :

– وماذا نفعل الآن ؟

– لنفكر قليلاً ، كم الساعة الآن ؟

– العاشرة ، في وسعنا ان نذهب الى المتحف الوطني .

– لا . عندي فكرة رائعة ، سنذهب الى حي « ناتنغ هيل » لزيارة بعض الأصدقاء ، علّنا نجد طعاماً عندهم .

ومر باص عابر ، فقفزنا بخفة ، وعند وصولنا الى الموقف الثاني قبض جيمس على ذراعي وحملني على القفز ، إذ سمع وقع خطوات قاطع التذاكر ، ولم أكن اعرف ان افضل طريقة لمغادرة الباص ، وهو يتحرك بسرعة ، ان تجعل ظهرك بعكس اتجاهـه ، وكدت ان اقع تحت دواليب سيارة شحن مثقلة بأكياس من الفحم الحجري، وقد ساعدني جيمس للوصول الى الرصيف المقابل، متجاهلا شتائم راكب دراجة انحرف فجأة لئلا يصطدم بنا ، وحاولت ان ادلف الى مكتبة تتعاطى بيع الكتب القديمة ، فعارضني رفيقي قائلا :

– ما الفائدة من إختلاس أجرة المواصلات كي تشتري كتباً مضيعاً نقودك

وعندك من الكتب ما يكفيك ؟

إجتزنا طريق « لادبروك » ووقفنا بعد دقائق أمام بيت كبير يقع على ناصية شارع تحجبه أشجار ضخمة عن عيون كثيرة . وكان الحي من أفضل الأحياء اللندنية ، لذا أصابتني حيرة وأنا أسأل :

– انت واثق بأن هذا هو بيت الأصدقاء ؟

– بالتأكيد ، هيا بنا الى الداخل .

وبإقترابنا من البيت ، ماتت حيرتي ، فالباب الأمامي صُبغ بلون سماوي قذر ، ونوافذه كانت مغطاة من الداخل بألواح خشبية لا زجاجية . وطرق جيمس الباب ، ولما لم يسمع جواباً ضرب احد الألواح بعنف ، ونزعه . ثم مرق من الثغرة وفتح الباب ، وكنا في ممر خال من الحركة ، وقد خُيل لي لأول وهلة أن البيت خال من الأحياء ، فأوراق الجدران قد أزيلت ، والأرضية مهترئة ، والدرجات عارية باردة ، ودرابزين السلم متخلخل أو مفقود ، والممر مشع من تأثير نافذة كبيرة ، زجاجها ملون بألوان زاهية ، وقد تكسر من الواحها الكثير ، مما اتاح للمطر ان يغسل درجات السلم ، واكتظت القاعة بأشياء غريبة مدهشة . ابريق شاي أثري ، قطع من الجبس ، ثياب عتيقة ، وكرسي مكسور . والعلامتان الوحيدتان اللتان تعلنان عن وجود سكان في البيت ، هما دراجة مرتكزة على أحد الجدران ، وطباخ كهربائي جعله الطعام ذا لون بني ، يرتكز في زاوية ، وكان الصحن الذي يغطيه ساخناً جداً ، كما كان البخار يتصاعد من فوهة ابريق ضخم .

وسار جيمس في الطليعة ، يقودني الى المكان المجهول . وقد عثرنا بفرشة مفتوقة برزت حشوتها . فاضطررنا الى القفز من فوقها ، وماءت قطة عند رؤيتنا وتمسحت بساقي ، وأدار جيمس أكرة الباب وفتحه دون ان يطرقه . وكانت الغرفة مظلمة كقبر .

وقال صوت ناعم : من هناك ؟

– رجل الغاز ، جئت لأقرأ العداد .

– إنه في الدور الأسفل !

– لا تكن سخيفاً، فأنا أعرف أنك تحتفظ بأخطبوط حيّ في برميل الحمام ولن أذهب الا بصحبة رجل من الشرطة لحمايتي .

وارتفع صوت آخر من الغرفة يقول :

– أغلق هذا الباب اللعين ، فمجرى الهواء شديد بارد .

أغلقت الباب ، وأشعل جيمس الكهرباء ، فبدت الغرفة مكتظة بالأسرة وبأشخاص نائمين ، ولاحظت أن الرجل الذي تحدث مع جيمس كان في ثياب النوم ، وكان سريره بجانب الباب ، وتنبت على ذقنه لحية سوداء ، وكان رأسه أصلع ، وكان بالقرب منا سرير مزدوج ينام فيه ثلاثة اشخاص ، وفي منتصف الغرفة فراش مزدوج منفوخ بالهواء ، وتعلق شخص آخر فوق سرير مخلخل وكانت نافذة الغرفة مغطاة بقطعة من « الكاكي » يتسرب النور من خلال خروقها المتعددة ، وتتوسط الغرفة مائدة غريبة الشكل وعدة مقاعد خشبية ، وكثير من الزجاجات الفارغة والأقداح والفناجين .

وارتفع احد الرؤوس من السرير المزدوج ، وكان رأس فتاة بوجه شاحب ، وشعر أسود طويل . قالت :

– العمى، انه الرجل الفقير لورنس أوليفيه، اذهب واعمل لنا بعض الشاي،

فقال جيمس :

– العملية سهلة للغاية ، فالماء في ابريق الشاي يغلي منذ مدة .

وهنا قذف الرجل ذو اللحية السوداء بجملة :

– العمى ! لقد نسيته ، فقد وضعت ابريق الشاي على النار منذ ساعات ثلاث ، فاذهبي وانظري اذا تبخر الماء تماماً .

وتدحرجت الفتاة من على السرير ، ووقفت قليلاً ، كانت عارية إلا من غطاء يحجب النهدين ، وترنحت بين الأسرة ، وفوق البطانيات ، حتى وجدت شيئاً كالمعطف، وضعته على جسدها ، ثم اتجهت نحو النافذة ، وتشبثت بحافة المائدة، وبعنف جذبت قطعة الكاكي ، فهبطت . وعم نور النهار الباهت أرض الغرفة .

وتمطت الفتاة كقطة ، ثم فركت عينيها ، وقالت :

– اذهب يا جيمس . واعدّ لنا بعض الشاي ، هناك بعض الحلويات إذا اردت ، ألديك لفافة تبغ ؟

– مع الاسف ، لقد دخنا آخر ما لدينا من السجائر .

ومشت عبر الغرفة حافية القدمين ، وفتشت كل الجيوب ، حتى عثرت على علبة سجاير ثم وخزت احد النائمين في سرير مزدوج ، وقد غطى المسكين وجهه ببطانية سميكة وقالت له :

– افسح لي مكاناً فسأعود الى النوم حتى يعدّ جيمس الشاي .

ولاحظتني لأول مرة ، إذ كنت اقف خلف جيمس ، وقالت :

– اوه ! لم ارَ صديقك ، فمعذرة !

قدمني جيمس لها ، فلم يبد عليها انها تضايقت او تأذّت ، لكنها فرّت هاربة لتنزلق الى السرير قبل ان تخلع المعطف ، لتلتحف بالبطانيات ، ثم قذفت بالمعطف بعيداً عنها . وفجأة استيقظ بعض النائمين ، وكانت الفتاة التي تغط نائمة فوق الفراش المنفوخ بالهواء ، معروفة لعيني بشكل غامض باهت ، فوجهها صغير وعيناها كبيرتان رماديتان . وقد نهضت من السرير وبان نصفها الأعلى المكسو بكنزة صوفية حمراء فضفاضة جداً ، وتبين لي ان الاثنين اللذين ينامان فوق السرير المزدوج رجلان ، احدهما ذو لحية كثيفة ، ضخم الجثة ، والثاني متوسط القامة لم يمرر شفرة الحلاقة على وجهه منذ ايام ثلاثة . ووجد جيمس ابريقاً فأخذه ، وذهبنا الى الطابق الارضي لنعدّ الشاي . فسألته :

– من هؤلاء ؟

– سأعرفك بهم عندما يستيقظون جميعاً ، ان معظمهم طلاب فن ، والرجل النائم بمفرده على السرير ، هو صحفي غير مقيد بجريدة ما ، انه يكتب في معظم الجرائد ، ويكسب مبلغاً كبيراً من كتاباته .

وذكر اسم الرجل . وتذكرت انني قرأت له كثيراً في الصحف ، فقلت :

– كيف يرضى هذا الرجل بمثل هذه الحياة ؟

– إنه يعشق هذه الحياة ، يحب الجنس والشراب والحشيش ، وقد خطّت السنون على وجهه علاماتها ، فأخذ يمتص الحيــاة قبل ان تجف في عروقه ، وهو الوحيد هنا الذي يملك نقوداً ، ولا يمانع الآخرون من صحبته ، لانه ينفق النقود عليهم ، ويدفع لهم اجرة السكن .

– وماذا عن الفتاة ذات الشعر الاسود الطويل ؟ هل هي عشيقته ؟

– فيرا ؟ كلا . هنا لا إيمان بالاشياء الخاصة التابعة « للانا » . هي تنــام مع من ترغب ، وقد ترغب او لا ترغب ، وأحدهم ذكاء هو الرسام « ريكي بريلاتي » الشيوعي المؤمن الذي يعيش في الدور الاعلى ، اما عن الفتيات هنا ، فلهن الحرية للنوم مع اي انسان ، وللرجال ايضاً الحرية نفسها .

– وماذا سيحدث لو اشتهى رجلان ان يناما مع فتاة واحدة ؟

– سيعطى حق الاختيار لها . اما فيرا فإنها تنــام مع الاثنين على التعاقب .

وافرغ جيمس نصف علبة من الشاي في الابريق ، وتناول قطعة قماش بالية فأمسك بها الابريق الحار ، وتسرب الماء من انبوبته البنية اللون . لم أقل شيئاً ، فقد ادركت ان غلي ابريق من هذا الحجم يحتاج الى ساعة ، وعلمت انهم يضعون الشاي فيه لعدة ساعات ، وصعدنا معاً الى غرفتهم ، كان الماء يندفع على شكل نقاط مدورة من فتحة الابريق المهشمة ، على الدرج . وانهمكت فــيرا في غسل الفناجين في الحمام وارسلوني لمساعدتها ، كانت تلقي حثالة الشاي في وعاء كبير ، وكانت اوراق الشاي تزن كيلوات عديدة .

وبدأت تشرح لي :

– انا لا اقذف بهذه الحثالة في بالوعة الحمام حتى لا تسدّه ، اذهب والقهــا في المرحاض .

وكان المرحاض في الغرفة المجاورة ، ولم يكن فيه خزان ماء ، فقالت :

– لا تخف ، فعروق الشاي لا تسبب ضرراً ، سنصب عليها ماءً . فأحــد السكارى جذب السلسلة بعنف فسقط الخزان فوق رأسه وفقد وعيه لمــدة ساعتين ، وقد تعوّدنا على القاء سطل ماءٍ فيه .

وعدنا اليهم محملين بالفناجين المغسولة ، كان الصحفي الكهل يشرح قطعة خشب بسكين صغيرة حادة . انني سأطلق عليه اسم هوفان ، منامته ارجوانية اللون ، وله طريقة بسيطة في اشعال نار الموقد . إذ هو قد قذف سائلاً من صفيحة تتسع لغالونين فوق كومة الخشب والفحم الموضوعة في الموقد . ثم أخذ الصفيحة ووضعها في ركن منعزل من الغرفة ، وابتعد . ثم قذف بعود ثقاب مشتعل إلى الموقد ، فحدث دوي هائل وامتد لسان النار إلى الأرض ووصل الى قطعة مربعة مهترئة يسمونها بساطاً ، وانحسر اللهيب واخذ الحطب والفحم في الاشتعال .

سألت هوفمان :

– هل توقدون ناركم بالبنزين دائماً ؟

– إن لم يكن لدينا مادة اشد إنفجاراً . نحن نؤمن بالحياة وسط الخطر ، إنها تستحق المشاهدة ، أليس كذلك ؟

وتدخلت فيرا ضاحكة :

– إنه يضللك ، لا تصدّقه ، فقد اكتشف تومي أن مضخة البنزين في الكراج المجاور يمكن استعمالها ليلا وبدون نقود ، ولهذا فنحن نأخذ البنزين مجاناً . ولكني أفضل استعمال الكاز .

وتحمس جيمس قائلا :

– ليس على المضطر أن يختار !

وقدر لي وانا في وسط الغرفة بأن ألم بها ، فقد كان لها ملحق يكاد يبلغ نصف مساحتها يحتوي على مائدة مستديرة ضخمة ، تسندها رجلٌ عملاقة مزينة ، بدت غريبة جداً في هذا المحيط ، ورأيت أيضاً سريرين كأسرّة جنود المعسكرات . وكان السريران مشغولين بالأجسام الراقدة ، ففي أحدهما امرأة مهدلة الشعر نصف شعثاء ، وفي الثاني شاب معروق كأنه مصاب بالسل الرئوي . وكان شعره الاشقر الطويل يتدلى على كتفيه ، وعيناه غائرتان في حفرتين في وجهه الباهت ، وقد احتوى ملحق الغرفة على حبلين علقت بهما ثياب داخلية مهلهلة

وفوطات شاي خلقة .

صبت فيرا قدح شاي لكل منا ، ووضعت سكراً وحليباً ، وقامت بعملية التوزيع على الأسرة ، وبدأنا ندخن . وهنا تسنى لي أن أرى الشاب الذي ينام تحت النافذة ، كانت له لحية كالآخرين، خجولاً لأن كلماته تخرج مبعثرة، ومؤدباً ايضاً . ودارت فيرا بنشاط أعجبني ، واخرجت رغيف خبز وقطعة ضخمة من الجبن ، واضخم زجاجة من المخلل المتنوع رأيتها في حياتي . وقامت بتشريح الرغيف الى اجزاء وضعتها على جريدة فوق المائدة ونادت الجميع قائلة :

– ليأخذ كل واحد ما يريد ، لن أنتظر احداً .

وقبل جيمس الدعوة التي خيل اليه انها تشمله ، وتناول قطعتين كبيرتين من الخبز والجبن واخرج عدة بصلات مخللات بواسطة إبرة طويلة وهمس :

– ساعد نفسك وخذ ما تشاء ، هيا .

كنت فرحاً ، وغمرت الجميع شراهة الطعام ، واعلنت فيرا على الجميع :

– هذا كل ما تبقى لدينا من طعام، وعلى « تيلي وديسموند » زيارة مخازن « اخدم نفسك » [1] مرة ثانية اليوم .

فاجاب الشاب الخجول وفمه مملوء بالجبن :

– لمَ لا يذهب شخص آخر ؟ انهم يعرفونني في المخزن الواقع في شارع ماريلبون .

قال هوفمان بخشونة :

– احلق لحيتك .

وتدخلت تيلي قائلة :

– لقد شاهدت مخزناً جديداً من هذه المخازن قرب « شبردبوش » لنجرب أنفسنا وحظنا هناك .

---

١ – في معظم المدن الأوروبية وفي عواصم بلادنا ، توجد مخازن يتولى الزبائن خدمة أنفسهم فيها .

قال ديسموند :

– هل تستطيع ان تسلفنا جنهين يا هوفمان ؟ فقد تعبت من سرقة المـــواد الغذائية ، ولن أبالي بسرقة الكتب فهي اسهل من خطف الطعام .

فاجابه هوفمان :

– لو قبض عليك يوماً وانت تخطف كتباً فسوف يحكم عليك ان تقضي في السجن ثلاثة اشهر . ولكن إذا قبض عليك وانت تسرق طعاماً ، ففي إمكانك ان تزعم بانك لم تأكل شيئاً منذ ثلاثة ايام ، ولن يقدمك احد للمحاكمة . ان سرقة الطعام أنجى وأسلم :

قالت تيلي بجدة :

– أنت بخيل ، لِمَ لا تعترف بهذا ؟

فأجابها هوفمان بصوت كئيب :

– أنا من اشترى الحشيش الذي دخنتموه ليلة أمس .

قالت فيرا :

– حسناً ، سأذهب لأقف في بيكاديللي [1] .

وتجهم وجه هوفمان وأخذ يغوص بيده باحثاً في جيوبه عن نقود ، وأخيراً أخرج جنيهين وقذف بهما فوق المائدة ، وابتسمت فيرا ، وقبلت جبينه وقالت:

– هذا حلو منك !

وانسابت أنغـــام غيتار عذبة . كان الرجل الملتحي يداعب قيثاره .

وجلست هناك وشعور بالألفة يفعم نفسي . فأنـــا لست غريباً عن هؤلاء الغرباء . وأحسست بـــأني اعوم سعيدا بينهم ، وخصتني تيلى بإبتسامة شهية ، إبتسمت بسخافة لها ، وفكرت ان معضلة هؤلاء الناس هي الحرية ، وهم يبذلون ما في طاقاتهم لحلها ، واتضح لي بأن عظمة التاريخ الإنساني اخفت عن النـــاس اننا نعيش كالمتسولين على إحسان الزمن ، ولكن على الأقل ، هؤلاء الناس بدأوا بثورة متسولين .

---

١ – النساء اللواتي يقفن في ساحة بيكاديللي في لندن ، عاهرات يلتقطن الزبائن من هناك .

ومر بنا الشاب الأشقر الشاحب فقدمني جيمس له وقال :

هذا روبي ديزارت أعظم شعراء انكلترا بعد ديلان توماس .

هز رأسه بخجل . ثم خرج من الغرفة ، وبعد دقائق اعتذرت ولحقت به آملاً أن اتبادل معه بعض الكلمات ، وتبين لي انه مزيج خليط لا يوصف للشاعر الإنكليزي ، من شيلي إلى فرنسيس تومسون .

وعلا صوته من غرفة الحمام البارد وهو ينشد اغنية بصوت يشبه صوت ييتس في بعض اسطواناته التي سمعتها . وذكرني برجل عيونه ضيقة قديمة وبأخلاق فقدناها ، وصوت الماء البارد يلسع جسده النحيل في يوم بارد ، مما زادني شعور بأني مذنب في التلصص عليه ، والتعرض لصلاة خاصة يؤديها عابد . وعدت مرة ثانية الى الغرفة. وكانت فيرا تداعب بيدها جنيهين، فاتجهت نحوها والقيت ورقة بنصف جنيه وقلت :

– أرغب في ان اساهم معكم في نفقات ... اعني نفقات ادارة البيت . فقد تناولت طعام الفطور هنا .

اكلتني بنظرة دهشة وقالت :

– قطعتا خبز وجبن لا تساويان نصف جنيه .

اجبت ببلاهة :

– سأعود مرة ثانية لآكل قطعة اخرى .

وكان جيمس ينظر اليّ بعينين متألمتين ، وقالت امرأة تضع رداء قذراً وتطوف ارجاء الغرفة دون هدف ، موجهة الكلام الى جيمس :

– اوه ؟ انها التفاتة حلوة ، انا احب صديقك ، فهو كريم معطاء .

قدمني جيمس اليها . ثم غادرت الغرفة .

قال جيمس :

– شكراً على الطعام يا فيرا ، سنرجع الى سوهو لأني مرتبط بموعد مع رجل في المتحف الوطني .

وخرج مسرعاً ، فلحقت به ، وصادفنا الشاعر الشاب اثناء نزولنا ، فسأله

جيمس عن المدة التي قضاها في هذا البيت . فأجابه :

– انا لا اقيم هنا ! انا ضيف ليلة واحـدة فقط لأن صاحبة البيت طردتني يوم امس .

وعندما صافحنا وجه الشارع قال جيمس :

– كان عليّ ان اخرجك من البيت قبل ان ترتكب حماقة جديدة ، فلمـاذا اعطيتهم نصف جنيه ؟

– اردت ... ان اريهم اعجابي بطريقة حياتهم .

– كان عملك سخيفاً لعدة اسباب . الاول اننا في حاجة الى نقود . والثاني ان الناس يفكرون بأنك مليونير مجنون ، ولن تستطيع ان تخطو خطوة دون ان تصادف رجلاً يطلب منك نقوداً كسلفة . متى عشت في سوهو ، فالنـاس هناك يرغبون في معرفة مقدار نقودك .

– ان لم املك نقوداً فلن يحصل احد على نقود .

– لن تملك نقوداً اذا بقيت على هذا الحال .

وصمت قليلا ليفكر ثم قال :

– لا بأس . لكن تذكر ما قاله « برناردشو » فهو لم يبال بأن يمنح نقوداً ، الا ّ انه كان يصر على عـدم نشر اسمه عند مساهمته في مشروع احسان . لأن بقية الجمعيات سوف تتكالب عليه كما يتكالب الوحوش على فريسة جريحة . قم الآن ، وقدِّم نصف جنيه في وسط غرفة غاصة بالناس !

– انا آسف . ولكنها نقودي قبل كل شيء .

كلا . انها ليست لك ، فنصفها لي منذ تأسيس شركتنا .

واعترف بأنه على حق ، واخرجت خمسة شلنات (ربع جنيه) من جيبي وناولته اياها قائلا :

– اليك هذه ! هذه شلنات عشرة من مالي الخاص .

لا . فـلو تقاسمنا لكان نصف الشلنات الخمسة ملكاً لي قبل ان تعطيني اياها .

وبحثت مرة جديدة حتى عثرت على خمسة شلنات اخرى ، وقدمتها له .

وضعها في جيبه وقال :

– شكراً يا هاري . لن نتحدث في هذا الموضوع مرة ثانية ، ولكن سأعلمك الحساب كما اعلمك الاشياء الأخرى .

قفزنا الى باص عابر في بداية شارع « كانزتكن تشيرج » وعاد الى جيمس مزاجه المرح العادي .

الفصل الرابع

كان الباص مزدحماً بالقامات البشرية، مما حمل جيمس على ان يجلس وحيداً ، بعيداً عني . ووجدت مقعداً خالياً خلفه ، فجلست لأفكر طويـلا في صلابتي لمواجهة الحقيقة . انا في لندن ، قد قذفت بنفسي في مباهج سوهو ، باحثاً عن حرية اسطورية اريد ان امتصها واعيشها بعمق . وعلى الرغم من كل هـــذه الاشياء ، ما زال القلق يفعم نفسي ، انا بلا مكان اذهب اليه . بلا مأوى ، بلا غرفة ، وقد أصبحت متعباً ، وجماهير لندن بوجوهها المتعبة العديدة ترهـــق اعصابي وتصمني بكآبة غريبة ، انني ارغب في وحدة اعيش فيها ، فقد مررت في اوقات كانت فيها الرغبة في الانعزال تحزّ قلبي ، وكانت تشبه ما يعانيـــه المدمن على شرب الكحول وتناول المخدرات ، هذه الرغبة تسيطر عـليّ بعنف طاغٍ . وقد اسفت على اتفاقي السخيف مع جيمس : فلولا تفاهة هذه «الشركة» لكان لي غرفة خاصة آوي اليها، اعدّ فيها اقداحـــا لا تحصى من الشاي واقرأ كتاباً رائعاً . وافكر افكاراً قـد تكون غريبـــة . انني ارغب في ان انفرد بنفسي . ومكتبات العالم منتشرة حولي ، ورفوفها تمتد وتتطاول الى مسافات طويلة . وهي تحتوي على عصارة افكار الانسانيـــة . وتشمل كل ما تعلمّـــه الانسان من بدء الحضارة حتى اليوم . فالمعرفة مثـــل الطاقة الذرية قادرة على تحويل الانسان العادي الى سوبرمان او الى قديس. وهذا ما احتاجه وانا اتجول

بلا هدف مع جيمس ، اقابل اشخاصاً عابثين ، واعيش تجربة لا جديد فيها .

ولكن قد تزول رؤيا الهدف الثقافي بمجرد حصولي على عزلتي وتصرفي في المكتبات المنتشرة،قد اركب اول سيارة تأخذني الى سوهو باحثاً عن جيمس!! ومع ذلك فقد وعدت جيمس بان انفق عليه نقودي . والطريقة النبيلة للانسلال من هذا المأزق ان احدثه بصراحة صادقة عن فسخ عقد شراكتنا . واعطيه نصف نقودي مقدماً وهي ليست كثيرة الآن ، تقارب ستة جنيهات . ومن ثم سأجد بما تبقى معي غرفة رخيصة أعيش فيها لمدة اسبوع .

وشعرت بالارتياح بعد هذا القرار ، وفي هذه اللحظة ترك الرجل الجالس بجانب جيمس مقعده ، فقمت لأجلس بقربه . كل ما في عقلي ، هو البحث عن غرفة في حي سكن نظيف . ولا حاجة للتسكع في سوهو وقتل الوقت فيه . وقد حاولت ان اشرح قراري له . فقلت :

– اسمع يا جيمس ، لقد برمت بحياة اللاجدوى ، هذه ، التجوال اللاهادف دون مأوى ، فهل تمانع في الغاء اتفاقنا وإيجاد غرفة لي ؟

فبدا كمن اصيب بصدمة غير متوقعة ، وقال :

– ماذا ؟ ماذا قلت ؟ انت في حاجة الى شجاعة وجرأة ، انا اضع تجارب خصبة لك ، لن تنساها ابداً . اعلمك كيف تعيل نفسك في لندن ، وقد قلت لي بأنك تعلمت شيئاً عن الحرية خلال الأيام القليلة السابقة، والآن تريد استئجار غرفة لأن قلبك بدأ يخور بضعف ، انا قادر على العيش دون اتفاق .

ـ الأمر ليس كما تتوهم . فأنا لم اعش مثل هذه الحياة من قبل ، واريد ان اكون وحيداً بعض الوقت وانا في حاجة الى الراحة والهدوء ، فهذا التسكع على غير هدى يرهقني ويسحقني . وقد سبق ان قلت لي بانك ستجعل نقودي تكفيني لعشرة ايام ثم تنفق انت لعشرة ايام اخرى،وها قد مرت علينا ثلاثة اسابيع . فاصبحت اشعر كأني مشرد قذر ، انا لا اريد التهرب من دفع ما عليّ لك .

ـ لا تريد ؟

– كلا . لكنني أريد ان أواجه احتمال البقاء دون غرفة خاصة بي خلال الاسابيع الثلاثة القادمة .

حك جيمس ذقنه – وكانت بحاجة الى حلاقة – وراح يتطلع من النافذة . ثم قال اخيراً :

– سنهمل اتفاقنا السابق . ولن آخذ شيئاً من نقودك . وسنعقد اتفاقاً جديداً ، سأنفق عليك اليوم وستنفق عليّ غداً . اي بالتعاقب ، وإذا رغبت في تغيير رأيك فاعطني فرصة يوم . او نقود ذلك اليوم . ولا حاجة لتثق بي حتى تنفق آخر بنس عندك . ما رأيك ؟

بدا العبء اخف . فلو وجد جيمس نقوداً لطعامنا اليوم ففي إمكاني الانسحاب من الاتفاق بإعطائه ما يكفي لوجباته غداً .

وسألته : – لنفترض انني سأظل على رأيي مساء غد ؟

واستطاع ان يستشف اقتناعي بالفكرة ولو موقتاً فقال :

– إذا اردت ان تبدل رأيك مساء غد فلن اطالبك بشيء . وإذا بقيت مصرّاً فسوف اساعدك في الحصول على غرفة .

– حسناً . انا موافق .

وادركت، عند تفكيري في القضية، بأن جيمس حصل على ما يريد في اتفاق هذا اليوم . فقد اعطيته نصف جنيه واشتريت له طعام الفطور . ولكنني ما زلت معجباً بروحه « الرياضية » التي تلقى بها قصة انصرافي عنه . فلديه ما يجعله قريباً من القلب الانساني . ولديه فكرة تحدي ترتيب الطبقات في مجتمعنا .

قد اعتقد بأنه مضحك لمدة قصيرة ، ثم ينقلب هذا الاعتقاد الى اعجاب خالص بشجاعته وثقته وعدم اهتمامه .

وغادرنا الباص في شارع « توتنهام كورت رود » وتلمّست ذقني . فاقترحت التوجه الى مكان عام لنحلق فيه[1] . فسألني :

---

٢ – في لندن مراحيض عامة . في بعضها اماكن خاصة للحلاقة وغسل الوجه مقابل مبلغ بسيط .

– هل في حقيبتك آلة حلاقة ؟
– نعم !
– اذن لا حاجة الى اضاعة شلن ، اذهب واحضر آلة الحلاقة ومنشفة .

وسمح لي المراقب على الحقائب ، بعد قليل من الاعتراض بفتح حقيبتي . واغتنمت الفرصة ووضعت كتابين جديدين في الحقيبة ثم سألت :
– والآن . الى اين ؟
– هل تريد غسل وجهك ، أم تريد حماماً صباحياً ؟
– وهل تعرف حماماً قريباً ؟
– نعم . في بناية جمعية الشبان المسيحية الواقعة في مواجهة الشارع تماماً ، ولكن افضل ان نؤجل الاستحمام الى وقت متأخر قليلاً ، ولانني يجب ان ادفع ثمن الغداء فيجب علينا ان نبدأ منذ الآن .

سرنا نحو المتحف البريطاني ، وكانت مجموعة من الطلاب والطالبات يجلسون فوق المقاعد ، وفي ايديهم سندويشات منوعة يتخاطفونها بمرح ساذج . والشمس تسطع على الشوارع الواسعة ، والحمام الابيض يخفق بأجنحة قصيرة فوق رؤوسهم ، واحياناً تسقط نقاط بيضاء مائعة تتناثر فوق الدرجات . وكانت فناجين الشاي الساخن تتخاطفها الايدي . قال جيمس .
– كثيراً ما فكرت يا هاري بأن شيلي قد نسي ان يبين اللذة الكبرى في ان يكون الانسان قبرّة ، وقد شدد بروفوس كثيراً في ذكر الزحار اللاشعوري ، قد تضحك عندما اقول بأن هذه الاشياء هي احسن سبيل للاعراب عن عدم الرضا عن البورجوازيين .

ودخلنا من الباب الدوار ، فشعرت بالمهانة لوجودي في المتحف البريطاني ، المنزل الروحي المقدس لكارل ماركس وصموئيل بتلر وبرنارد شو ، في ثياب قذرة يعلوها الغبار ، وتطلعت بقدسية واعجاب نحو تمثال « جزيرة عيد الفصح » المنزرع فوق الدرجات ، ولكن جيمس جذبني بعنف وقال :
– اسرع يا هاري ، فالحارس غير موجود الآن . اسرع !

واخترقنا الأبواب الزجاجية فطالعتنا كلمات بـــأحرف كبيرة « غرف المطالعة . ممنوع الدخـــول بلا تذكرة » وتابعنا سيرنا بإتجاه الجهة اليمنى ، ثم هبطنا درجاً جانبياً يقود إلى المراحيض الخاصة بالرجـــال ذات الرائحة الطيبة المنبعثة من سائل « اللاوندر » المعقم ، وقال جيمس :

ـ هذه أروع مراحيض خاصة في لندن . وهي خاصة بالمطالعين المثقفين الذين يفدون الى المتحف للمطالعة .

وعلق سترته ثم خلع قميصه وصدريته ، وملأ الحوض بماء ساخن وراح يدعك ذراعيه وصدره ، وخجلت . لم انزع سوى سترتي والبولوفر [١] . وبدأ جيمس يغني أغنية من تأليفه :

لو كنت قبّرة
لطرت في شوارع المدينة
وجعلت كل سماسرة الأسهم
مثل اشجار السنط
ولقعدت فوق تمثال
وعلمت كل اشباه الحشرات
ان يظلوا بعيدين عن النظر

وتوقف ليقول :

ـ هذه أبيات جاءت من القريحة .

وهنا وصلنا صوت من داخل المرحاض !! فعلق قائلا :

ـ ايها الخنزير الجالس هناك ! هل تفهم ما معنى الشعر الجيد ؟

وبعد ان حلقت ذقني اعطيته الآلة ، وخرجنا بعد دقائق شاعرين بالارتياح والغبطة ، ولكننا اصطدمنا بعيني الحارس الذي جاء وبدا على وجهه تعبير يدل على اننا دخلنا خلسة ، همست لجيمس بهذا فقال باسماً :

ـ ولِمَ تهتم ؟ إذهب الى المكتب وقل لهم أنك تخطيت الواحدة والعشرين

---

١ ـ كنزة صوفية سميكة .

وتود أن تدرس شاعراً مغموراً ، وهم لا يحبون ان يتحركوا من خلف مقاعدهم لصرف بطاقات جديدة، وعليك ان تقنعهم بأنك لم تجد الكتب التي تريد في المكتبات العامة .

وثبت ان جيمس كان على حق ، فقد قلت للرجل المتربع فوق كرسي خلف مكتبة بأنني أعد أطروحة عن « بوهيم » واريد ان اراجع ترجمة «سبارو» فاعطاني ورقة وقمت بتعبئتها . وقال كآلة :

ـ تعال غداً لأخذ البطاقة .

سألت جيمس :

ـ لِمَ لا تحصل على بطاقة ؟

ـ لا نفع لها . فأنا لم أدخل غرف المطالعة على الاطلاق ، وهم لا يصرفون بطاقات لدخول مراحيض الرجال .

ودقت الساعة الثانية عشرة ونحن ننسحب بسلام من المتحف ، وسرنا بإتجاه شارع « توتنهام كورت » ثم أخذنا الباص الى ساحة الطرف الأغر ، وهاجمني جوع عنيف وأنا أقتعد كرسياً في الطابق الأول من الباص ، اما جيمس فقد قذف بقطعة نقود فضية في الهواء وقال :

ـ إذا جاءت صورة الملكة فسنذهب إلى المعرض ، وإذا جاء الوجه الآخر فسوف نأخذ طريقنا إلى المتحف الوطني .

وكالعادة فقد إنتشر الطلبة على الدرجات يأكلون سندويشاتهم بشراهة، وكان حارس الباب يرسل أنفه الطويل الذي يشبه أنف « سيرانودي برجراك » الى جيمس ويقول له :

ـ ألم تحصل على عمل بعد ؟

فأجابه جيمس :

ـ أنا بانتظار موتك لأحل محلك .

ورمى جيمس عينيه في الوجوه المحتشدة امام بائع الصور حيث وقفت عدة فتيات ثم قال :

– لقد تفتحت الزهور قبل أوانها .

واخــــذ يحشر نفسه بينهن ، وتبعته ، ولكنه استطاع ان يصل الى الصور والمجلدات الفنية ليطالعها بدقة ثم يعيدها إلى مكانها بنظام وترتيب ملتفتاً الى بين الحين والآخر راسماً على وجهه علامات لم افهمها ، وكل مـــا عرفته انه يراقب حشد الفتيات . وحاولت فتاة بدينة تلبس معطفاً ابيض الوصول الى المكان الذي وضعت الصور عليــه للصحول على صورة للرسام « روبن » فابتسم لهـــا جيمس وناولها الصورة التي ترغب في الحصول عليهـــا . ومرت لحظات وناولها جيمس صوراً جديدة ، ثم اختار صورة له ودفع ثمنهـا ، ومن ثم بدأت كلمات قصة جديدة تدور في عقله ، مخرجاً اياها الى الفتـاة رغم الرؤوس البشرية التي كانت تقف حاجزاً بينهما .

لم أستطع سماع حديثهما ولكني رأيت ورود الغبطة تتفتح على وجه الفتاة ، وتشاغلت بأن فتحت حقيبتها لتدفع ثمن مـا أخذت ، وبسرعة صوب جيمس عينيه الى حافظة النقود ليعرف مدى غناها، وتفرقا، واشار إليّ جيمس بطرف خفي ان أتقدم ليعرفني على « لينا » ذات الوجه الجذاب اللاجميل .

قالت : – انا من أمستردام .

مشت الفرحة على وجه جيمس عندما لفظت « أمستردام » .. وقال :

– لقد عشت هناك .

– في اي حيّ ؟

– إنها صدفة غريبة ، فقد كنت اعيش في الحي الاجنبي .

وبدأت الفتاة البدينة تسمعنا بأن رامبرانت وسبينواز عـاشا هناك ايضاً .

وسرنا ثلاثتنا عبر القاعة الواسعة نتحدث كأصدقاء قدامى . سأل جيمس :

– اتودين مشاهدة اللوحات في المتحف ؟

– لقد رأيت كل شيء . اريد ان اتناول طعام الغداء في مطعم .

– هذا عجيب ، فهدفنا مشترك ، هل تحبين مرافقتنا؟

وقالت بصوت هامس :

– انا لا ارغب في ان يدفع عني احد .

لم يلتفت جيمس الى ملاحظتها ، ورآنا صاحب الانف السيرانوي ، فغمز بطرف عينه ووضع ابتسامة ساخرة . رآه جيمس فرفع يده راسماً علامات النصر التي لم ترها الفتاة . استأذنت « لينا » وذهبت لتضع مسحوق التجميل على وجهها . وما كادت تغيب حتى بادرت جيمس بسؤال أكل عقلي :

– ما هذا الذي نفعله ؟

أجاب ببرود : – سنذهب لتناول الغداء .

– وكيف ؟

– القضية بسيطة جداً . حافظة نقودها مليئة بخمسات الجنيهات !

– ولكننا نحن الذين دعوناها .

– صبراً يا بنيّ ، فسأقول لها اننا ذاهبان الى البنك لاستلام النقود التي ارسلها أبي من باريس . فقد قلت لها سابقاً انني كنت هناك منذ مدة قصيرة . وسأذهب الى البنك المجاور وأجري بعض الاستعلامات ثم اعود والخيبة على وجهي . فأبي لم يرسل شيئاً بعد وسوف نعتذر . وستدعونا هي لتناول الغداء على حسابها . القضية في غاية السهولة . أليس كذلك ؟

– ولكن هذا سيكلفها مالاً كثيراً !

– ابداً يا غبي . فسوف تحظى برفقة ممتعة في لندن ، ولكن يكلفها ذلك اكثر من غداء لاثنين . اضف الى ذلك بأنني لن ادعها تأخذنا الى مطاعم غالية . إلا إذا اصرّت على ذلك !

– لنفرض انها بدأت تتحدث عن امستردام . فهل عشت هناك حقاً ؟

– قضيت عطلة الاسبوع هناك ، وهذا يكفي .

عادت الفتاة وسرنا معاً الى ميدان الطرف الأغر ، واعتذر جيمس ليدخل أول بنك قابلنا . فانشغلت بالحديث مع « لينا » وبرقت في عقلي فكرة فاعتذرت لها عن عدم تمكني من تناول الغداء معها لإرتباطي بموعد آخر . لم يضايقها اعتذاري . رأيت جيمس يقف في نهاية الطابور الطويل امام

محاسب البنك .

ألقيت نظرة سريعة على ساعتي متظاهراً بأني تأخرت بعض الشيء ثم قلت للفتاة قبل مغادرتي إياها :

ـ أرجو ان تخبري جيمس بأني سأراه بعد ساعتين في المحل الفرنسي .

أعادت الفتاة اسم المكان مرات عديـــدة . ثم ودعتها مصافحاً . كانت بدانتها وسذاجتها التي كأنما تضاعفت قد أفسدتا شهيتي ومنعتاني من أ كل نقودها تحت إدعاءات كاذبة ، ومع هذا فسوف ينال جيمس وجبة كبيرة معها. ودخلت حانة في ميدان ليستر ، وطلبت بعض السندويشات مع قدح من البيرة ، وقـد هيمن التشاؤم عليّ . وهـذا أغرب ما في الإنسان ، إنها من النواحي الإنسانية التي تجعـل الانسان يشعر بأن أفكار الفلاسفة تجاه هذا الكون غير جـــديرة بالتصديق .

إن وجودي في سوهو برفقة جيمس خلق فيّ شيئاً جديداً ، فعـالية حملتني على أن أخلص حباً لما حولي،وأنا لست خائناً وجباناً لأنقض وعدي مع جيمس. وليس الحذر الا ّ وسيلة فاشلة يتحصن خلفها الضعفاء . وذكرني هذا بالخـــذلان الذي انتـابني لساعات مضت ، وشعرت بمنّـة جيمس عليّ حين غـيّر تفكيري وجعلني أرضى بالبقـاء معه ، إنه على حق . فليس على الانسان الا ّ اللاإنتماء لمجتمع ما حتى يثور عليه . وهـــذا صممت على العودة الى المحل الفرنسي قبل تلاشي هـــذه الفعالية . إجتزت الميدان (حيث كان أربعة عازفين يعزفون مقطوعة جاز تقليدية اسمها « السقف النحاسي الأزرق ») ماراً بشارع تشيرنغ كروس . وفجأة رأيت دي بروين عند منعطف جادة شفتسبري يحاول عبـور الشارع ويتحدث إلى رجـل أنيق أبيض الشعر ، فحييته ، ورد التحية بحرارة صادقة مما جعلني أنجذب إليه كصديق قديم . وهلل في وجهي قائلا :

ـ ايها العزيز هاري ، انها لفرصة رائعة ان أراك .

ولا أدري ان كانت كلماته تعبـــيراً مترسباً في القاع ، يشعره بالإثم للعمولة التي تقاضاها من الميجر نويه . أم هي الخمرة الشيطانية التي شربناها معاً ؟

وتابع الكونت حديثه قائلا :

ـ أقدم إليك سير ريجنالد بروبتر .

ثم التفت إلى السير ريجنالد قائلا :

ـ هذا الشاعر الشاب صديقي .

ولما كنت واثقاً بأنه نسي اسم عائلتي ، وخوفاً من أن أحرجه فقد ذكرته له ، وتساءلت وانا اتلفظ باسم عائلتي هل هذا الرجل يحمل لقب « سير » أم أنه كلقب الكونت الذي يحمله دي بروين ؟

قال الرجل بأدب :

ـ هل ترغب في تناول كأس من البيرة بصحبتنا ؟

نظرت الى دي بروين ـ لخوفي من ان اكون متطفلا ـ ولكنه أصر بحرارة على قبولي الدعوة. وصلنا الشارع اليوناني فقادنا سير ريجنالد الى ناد صغير احتشد فيه اناس كثيرون رغم الضوء الخافت الذي يوحي بأن الفجر سيشرق عما قريب.

اغتنمت فرصة ذهاب ريجنالد لشراء المشروب لأسأل الكونت :

ـ أهو حقاً سير ؟

ـ بالتأكيد . فقد كان كاتبـــاً شهيراً منذ عشرين سنة ، وقد قضى معظم حياته في أميركا ، وهو يؤمن بأفكار دينية غريبة جداً .

ـ هل يكتب شيئاً في هذه الأيام ؟

ـ إنه رئيس تحرير مجلة هندوسية دينية في هوليود .

عاد ريجنالد وقدم لي كأساً من البـــيرة ، وكأساً من الويسكي لدي بروين ، بينما شرب هو نبيذاً أحمر ، وشعرت بسعادة طاغية ، وبطيش خبيث ، وأجبت عندما سألني ريجنالد عما أكتب :

ـ أكتب عشر مجلدات عن طبيعة الحرية .

وبان على وجهه إهتمام غريب ، وتطلعت الى وجه دي بروين فرأيته يبتسم بهزء وسخرية كأنه يهنئني على سرعة بديهتي ، وقـد أزعجني هـــذا الشعور . فأنّى له ان يعرف ان هذه هي أفكاري القديمة التي أعيش فيهـــا ؟ وأسرعت

بالشرح ، فالمجلد الأول يتحدث عن المشكلة الاساسية ، مشكلة الحياة ، هـل هي جديرة بأن نحياها ، أم نكون أكثر عمقاً وتفهماً فنغادرها دون حسرة. إنه يبدأ بالتشاؤم الاغريقي الشرقي وينتهي بالرومانسية الألمانية الحديثة ، وأحاول فيه أن أبين أن التشاؤم ليس الا" إنعكاساً أصيلاً وانحرافاً حياتياً لجميع المفكرين تجاه الوجود الانساني كله .

وكان ريجنالد يصغي إليّ باهتمام عميق مما جعلني أحس بالخجل وأصمت كالقبر ، وبدأ هو يسأل ، فقد تشابكت عليه الكلمات . قلت :

ـ كل ما قصدت قوله هو ان التشاؤم انحراف واضح ومباشر للذين يمتازون بحساسية مرهفة نحو الوجود ، انا لا اؤمن أبداً بالتشاؤم العميق لأنه إحساس سطحي يعوم على السطح ويبرهن على إنهزام الانسان الخامل والمنفعل أيضاً .

أما ريجنالد فقد ظن أنني أتخذت موقف العدميين ، ولهذا فقد أكد بحرارة صادقة بانه فهم ما عنيت ، ولكن هـذا يقود الى اللاإنتماء ، الى الضيـاع . وكان شوبنهور على حق حين قـال « ان الحياة والزمان شر بذاتها والكفاح الانساني المتواصل أعمق شراً منها ، فالانسان يرغب في الخير ، وخطـأه هو البحث عنه في صفحات التاريخ ،وخير مايقوم به الانسان هو ان يكون مسالماً ،لأن القادة ورجال الدين والسياسة قد أغرقوا عالمنا بمستنقعات دموية حمراء ، والخير لا نجده الا بين الحيوانات أو في الخلود ، ومن العبث ان تعمل خيراً على مستوى إنساني ، فالخير يسكن الحقيقة المنعزلة خارج نطاق الزمن . »

واعترض الكونت قائلاً :

ـ ولكن ما هي الحقيقة ؟

كنت افكر بأن الكونت أراد ان ينتزع خمسة جنيهات من سير ريجنالد ، ولكن الرجل اعجب بالسؤال وبدأ يشرح :

(إن الحقيقة هي خير لازمني يعرفهـا القديسون والمتصوفون . وممارسة الحقيقة تعتمد على الحرية من خلال الذاتية الإنسانية والشوق البشري » .

لم يكن ريجنالد مضحكاً . كان صاحب شخصية تبهر العينين . عيناه ثاقبتان

وشعره الأبيض يضفي عليه هيبة صارمة . ولكنني رغم حماسه العلمي ، لم اقدر على مواصلة الاستماع له . وعمت مع أفكاري وإن تظاهرت بالاستماع إليه ، ولم ألبث غير قليل حتى عدت ادراجي استمع إليه . فريجنالد عليم بالشهوات الانسانية ، جائع للمعرفة ، ناقم على الغطرسة الذاتية التي يركض وراءها الناس ، ومع هذا فقد قلت في داخلي « هراء » لقد تحدث عن خبرته الشخصية. إنه يمقت الجنس ولا يحب الالقاب والمتغطرسين . لهذا كان الزمن شراً ، وكان على العالم ان يرقى بسرعة . وقد علمتني نظراتي التي دارت في الحانة بأن الانسانية هي الصدع الوحيد في هذا العالم . ولكننا ننتظر قدوم السوبرمان الذي سيهب عالمنا نوعاً آخر من البشر يدرك بأن الخلود والزمان شيء واحد وان الحياة شيء جدير بالعيش . وسيموت الشر ولن نعرفه . واما الحقيقة فهي الطاقة الكامنة والمحرك العظيم الذي يقودنا نحو « جامعة يكون العمل فيها هو اللعب . واللعب هو الحياة » ، وأنا افضل « بيتر كيجان » على سير ريجنالد رغم ايمان كيجان بان عالمنا هو الجحيم . وما ان انتهى شلال الشرح الفلسفي حتى بادرتها قائلا :

ـ هل بامكاني ان اشتري لكما مشروباً آخر ؟

أجاب دي بروين :

ـ لا يمكنك ذلك فهذا النادي يسمح للاعضاء بان يشتروا فقط ، ولو كنت احمل نقوداً لتقدمت بنفس العرض ولكن سوء الحظ ..

وأخرج ريجنالد جنيهاً وناوله للكونت بحركة لا شعورية ، فقام الكونت ، وأسرعت أنا الى القول :

ـ علي ان اذهب الآن ، وقد شربت ما فيه الكفاية .

قال ريجنالد ضاحكاً :

ـ اية كفاية ؟ الكفاية من المشروب . ام كفاية من آرائي ؟

إن ما قلته يثير الاهتمام .

وفجأة انحنى ريجنالد فوق الطاولة وقرب وجهه من وجهي ثم قال :

– ماذا تعمل لتعيل نفسك ؟
– انا لا اقوم بعمل مـا في الوقت الحاضر . وعليّ ان اجد عملاً في الاسبوع القادم .
– هل ترغب في ان تعمل معي ؟
– وما هي نوعية العمل ؟
– انا رئيس تحرير مجلة وتستطيع العمل في المجلة، فهل لك ان تأتي لنتحدث في هذا الموضوع ؟ هذه بطاقتي .
ناولني بطاقة ثم وضع يده في جيبه واخرجها مغلقـة وتطلع الى الكونت خوفاً من ان يراه . ولكن الكونت كان ينظر باتجاه آخر . وقال :
– إليك جزءاً من راتبك فأنت بحاجة الى نقود .
رفضت اخذ النقود . ولكنه اصر بعناد واضعاً المبلغ في جيبي . ثم عاد الى جلسته الاولى حين لمح دي بروين يتقدم حاملاً المشروب لنا . وضع كأس ويسكي امامي وبدت لي كميته مضاعفة فقلت :
– انا لا ارغب في شرب الويسكي ، فقد كنت أشرب البيرة .
قال دي بروين غامزاً بعينه :
– اشربه . فإنه ينتزع البرد من جسمك .
ولم يحاول إرجاع بقية الجنيه الى ريجنالد بروبتر .
قلت : لا برد في هذا المكان !
– ولكن الصقيع في الخارج . ألم تقل ان عليك ان تذهب ؟
كان يريدني ان اشربـه ، فالنقود من جيب السير . فشربت الويسكي على جرعات ثلاث دون ان تنفر دمعة عينيّ ، ووقفت متمايلاً . وقلت :
– الى اللقاء سير ريجنالد . الى اللقاء ايها الكونت .
وقبل ان اقذف بنفسي خارج المكان ، ألقى عليّ سير ريجنالد نظرة متآمرة ولفحتني ريـح باردة فتمايلت كغصن صغير ، وشعرت بالمرض . استندت الى حائط مستغرباً من نفسي : سينظر إليّ المارة في شارع « دين » ، فقررت أن

لا امرض . وما هي إلاّ لحظات حتى خف مرضي ، ودحرت الغثيان في داخلي وتابعت سيري ، ومع هـذا فقد كنت اعوم مخموراً . ان من الغباء ان يسكر الانسان في منتصف النهار . وقد تشجعت ، ورفعت كتفيّ وجاهدت لأسير بلا اهتزاز ، ونسيت موعدي مع جيمس في المحل الفرنسي، وآمنت بأني إذا دخلت اي مكان فسوف أصاب بالغثيان . اجتزت شارع « تشيرنغ كروس » وهدّني التعب فوجدت مقعداً في صحن كنيسة القديس « جيلز » لأتكوم عليه . وقد كان مدهشاً منعشاً ، فالسماء ترسل رذاذاً من المطر ، وانا اناضل لأنزع فكرة المرض من عقلي ، وآمنت بأن العجوز ريجنالد كان على حق حين قال بأن الذات هي صنو الغثيان . وعندما حولت مجرى افكاري عن احشائي اللعينة الى موضوع لا ذاتي كالمطر مثلاً ، ذهب مرضي .

وحين عدت الى التفكير في نفسي عادني المرض ، ومع هـذا فأنا لست من الذين ينسون انفسهم،وبرزت فكرة النقود التي دسها ريجنالد في جيبي فأخرجتها لأجد ورقتين من فئة الخمسة جنيهات قد افتا معاً . إنها المرة الأولى التي احمل فيها خمسة جنيهات – فالخمسة جنيهات القديمة كانت ورقة كبيرة مربعة صُنعت من ورق أبيض رقيق – وحدقت جيداً غير مصدق ، وافقت على رجل طويل غير حليق الذقن يقف بجـانبي ويلتهمني بعينيه . وقبضت بعنف على النقود التي اصبحت لي ، ونظرت إليه مدافعاً عن نفسي . فقال :

– من اين لك هذا !

احسست بأنني عاجز عن استجماع حنقي . فقلت :

– هذا من شأني انا !

قال بسخرية :

– لقد خطفتها ، اليس كذلك ؟

– دعني وشأني .

– ولماذا أتركك وانا املك حقاً في مالك ، وما رأيك لو ناديت ذلك الشرطي ؟

ـ هذا لا يهمني .

وهاجمني المرض من جديد ، وعجزت عن السيطرة على الموقف . إن عليّ ان أهب هذا الأفاق كل نقودي ، فهو ممن يملكون الحاسة السادسة . وقد لاحظ حالة السكر العنيفة التي هاجمتني ، ورأيت دورين تسير بالقرب من درجات سلم الكنيسة فتلاشى مرضي وصرخت :

ـ دورين . دورين .

وركضت نحوها متوقعاً ان يقبض عليّ هذا الرجل ، ولكنه تركني امضي بسلام . وتوقفت دورين تتلفت حولها ، بينما نزلت درجات السلم والعرق يتصبب من جبيني ولسعات من الحرارة تلفح جسدي رغم عنف البرد .

قالت :

ـ ماذا الم بك ؟ لم اتصور ان اراك هنا يا هاري .

ـ لقد كنت غبيّاً ، انا مريض وسكران .

وخارت قواي فتهاويت على الأرض وغطيت وجهي بيديّ .

سألت بحزن :

ـ هل وجدت غرفة يا هاري ؟

هززت راسي قائلا :

ـ اردت ان ابحث ولكنني وعدت جيمس .. !

ـ ولمَ تهتم بجيمس ستأتي معي الى البيت حتى تشفى ، هل استدعي سيارة اجرة ؟

ـ لا ، كم يبعد بيتك ؟

ـ عشر دقائق من هنا !

سرت بجانبها متمتماً :

ـ هذا رائع وجميل منك يا دورين .

كان شعوري بصدقها وعملها الطيب لا يوصف ، فقد إجتزنا شارع اكسفورد وانحرفنا الى شارع جانبي واحتوانا المصعد . وجاهدت لأدحر المرض .

واسرعت الى الحمام في شقتها ووقفت احدق بالمرحاض كمجنون ابله ، وكم كانت رائعة حين أعتطني مشروباً فواراً قائلة :

ـ اشرب هذا فإنه سيهدىء من ألم معدتك .

جرعته على مضض . وفعلا هدأ الألم واستولى عليّ النعـــاس . فلاحظت دروين ذلك وأخذتني الى غرفتها وقالت :

ـ عليك ان تنام هنا .

خلعت حـــذائي وألقيت بنفسي فوق السرير ورحت أغوص رويداً رويداً في نوم عميق هادىء . وعندما استيقظت بعد ساعات لا اعرف عددها ، وجدتها قد دثرتني بمعطفها الليلي ، وقد كانت الشقة في ظلام داكن . ودورين خـــارج المكان وانا وحدي هنا . وتوجهت نحو المرحاض ثم عدت إلى فراشي مرة ثانية ، ومن الغريب اني لم اعد أشعر بالثمالة او السكر . وكانت رائحة عطرة تنبعث من الوسادة . فقبلتها ونمت ثانية . وبذلك عوضت عما فاتني من نوم في الليلة السابقة . ولم يمض وقت طويل حتى سمعت صرير البـــاب الخارجي وصوت امرأة عجوز يفرقع في الشقة :

ـ آنسة تيلر ، هل أنت هنا ؟

فلم أجب . وأغلق البـــاب مرة ثانية ، وأفقت على نور الكهرباء الذي عمّ الغرفة فرأيت دورين تقف امامي والمطر يبلل معطفها . ثم قالت :

ـ كيف انت الآن ؟

ـ انا على خير ما يرام ، شكراً لكِ . كم الساعة الآن ؟

كانت حوالي الحادية عشرة ليلا . قلت بدهشة :

ـ يا إلهي ، هل نمت سبع ساعات ؟

ـ هل انت جائع ؟

ـ قليلا .

ـ هل يمكنك أن تأكل بيضاً وشريحة من لحم الخنزير ؟

ـ لا ، فلست قوياً لآكل هذا .

كم تمنيت لو تذهب وتتركني وحيداً وتكف عن تحديقها الطويل . إذ كنت أشعر بانني كفراش مبعثر . وقالت :

ـ عليك ان تنهض من فراشك وتاخذ فنجان قهوة .

ـ لا . سابحث عن جيمس . وساجده في محطة واترلو نائماً في قطار اجنهام.

شعرت بالاثم والذنب . فانا قد واعدته على اللقـــاء . ولكن لفظي لاسم جيمس لم يعجبها فقالت :

ـ لا يمكنك الذهاب الآن . اقضِ ليلتك هنا ، فجيمس يستطتيع العنايـة بنفسه أكثر منك أنت .

استطعت أن اجمع فتات نفسي وأسير الى الحمـــام لأغسل وجهي ، علّني اشعر بالإنتعاش ، ولكن دورين قالت :

ـ اتود ان تستحم؟ فالماء ساخن. والمستأجرون لا يستحمون الا في الصباح.

ـ أعترف بانني ارغب في هذا .

ـ إذن لا تمكث طويلا ، فسأعدّ القهوة :

وبينا انا ألعب بالماء وأستمتع بحمامي كطفل صغير إذ بالجرس الخـــارجي يُقرع . وخفت ان تكون المرأة العجوز التي أيقظتني مـــن نومي . ولكن الصوت الخشن الضوضائي المضمخ بالسعادة الساذجة بـدد ظنوني واسرعت في تجفيف الماء عـن جسدي ، راجياً ان لا اصطدم بصديقها الرياضي الذي سيبدأ شجاراً من لا شيء . وجاء صوت نسائي آخر . فخفّف هذا عني . سرحت شعري وخرجت لأقابلهم . كان الاثنان في لحظة عاطفية يجلسان متلاصقين على الاريكة العريضة . وقد دلت نظراتها على ان دورين لم تخبرهما عـن وجودي . وقدمتني دورين الى تامي ورود . وكانت دورين قد التقت بتـــامي على ظهر الباخرة التي اقلتها من نيوزيلندا . امـا رود فقـــد جاء من اسكتلندا . احمر الشعر كبير الجثة . ووقف ليصافحني ثم عاد سريعاً الى مجلسه كانما ملت قدماه من حمل جسده العملاق . وتناول « رود » زجاجة الويسكي ومزق سدادتهـــا بعنف ثم صب كؤوساً لنا ، واعتذرت موضحاً بأنني لم أفق من سكري الا منذ

وقت قريب .

وأيدتني دورين ، فلم يرضَ رود بهذه الأعذار السخيفة . وألحّ بجذل وقال بمرح :

ـ الخمرة لا تُرفض مهما كانت الظروف .

ودفع اليّ بالكأس ، فأخذتها وذهبت الى المطبخ بحجة واهية وهي احضار الماء ، وألقيت بكمية كبيرة من الويسكي في المغسلة وعوضته ماء ، وكانت دورين تحضر بعض السندويشات لنا . فقالت لي :

ـ إنهما ثملان ، ولم أخبرهما بأنك صديقي خوفاً من أن يذهبا بسرعة .

وانسابت أنغام راقصة من الغرفة المجاورة ، وحملت طبق السندويش وعدت اليهما ، لأجدهما يرقصان حالمين متلاصقين . ولم تكن الموسيقى لتنسجم وحالهما ، فقد كانت قطعة موسيقية صاخبة من تأليف « بني جودمان » وهذا مما أجبرني على الرجوع الى المطبخ لمساعدة دورين في تحضير القهوة ، وعلمت من دورين أن رود مهندس سفن كان على ظهر الباخرة ، وقد سأل تامي أن تتزوجه .

حملت القهوة لهما وأقنعناهما بالجلوس والأكل وقد كانا في قمة النشوة والسعادة ، واستطاعت دورين أن تخفض صوت الحاكي قائلة :

ـ إن صاحبة البيت فاجرة .

وحدثتها عن المرأة التي أيقظتني من رقادي . فصرخت دورين :

ـ يا إلهي ، إنها صاحبة البيت ، فهي تسكن الشقة الواقعة في الطابق الثاني ، هي واحدة من رواد الكنيسة البلهاء الذين لا يعجبهم العجب . وهي تحتفظ بمفاتيح اضافية لجميع الشقق وتبيح لنفسها الدخول بين الفينة والفينة حتى ترى إذا كان المستأجرون يشربون المسكرات .

وثار رود واعلن بغضب بأنه يجب تقديم هذه المرأة للمحاكمة لتدخلها اللامشروع . واثنت دورين على ذلك . وتذكرت بأن الشقق الخالية نادرة الوجود ، ومن يحتج عليها فسيلقى به الى الشارع ، وتواردت القصص عن صاحبات البيوت . وروت لنا تامي قصة لها مع صاحبة بيت كان تعيش فيه في « وست

بورت » وسرد علينا رود قصته في « أبردين » واتخذنا قراراً إجماعياً بأن صاحبات البيوت وباء معدٍ لا يمكن التخلص منه الا على يد طاغية محسن !

وكرعت دورين الويسكي اللاممزوج على دفعتين ودهشت انا ، وشربت قهوتي ثم حاولت ان اشرب كأسي ، بينما غيَّر رود القطعة الموسيقية بأخرى من تأليف « بيربك » وحاول اقناع تامي بالرقص معه ولكن عينيها كانتا ناعستين ذابلتين ، فتحول الى دورين، وفجأة دوى جرس الباب فبان الاستياء على وجهها الجميل ، وخرجت لنسمع نقاشاً حاداً لم يمكث طويلاً . وعادت دورين كئيبة الوجه . وقالت :

– لقد احتجت صاحبة البيت على الموسيقى الصاخبة التي حرمتها من النوم ، فاضطررت الى القول بأن اصدقائي سيغادرون حالاً .

واصبحت الموسيقى انغاماً خفيفة كأنها آتية من مكان بعيد،وجلسنا نتحدث حتى علا صوت رود واسترسل في الحديث عن حياته التي بدت لي تافهة سخيفة صاحبها انسان ضئيل اخلاقياً . فقد عمل كشرطي سير في ولاية نيويورك واخذ الرشوة من السائقين حتى لا يحرر فيهم مخالفات غرامتها مرتفعة ، ومرةً اطلق النار على شاب صيني ضمن حشد جماهير إجتمعوا ليبصقوا عليه . واتضح لي اخيراً بأنه « منفاخ » كبير كجثته الكبيرة ، وقد شجعه استماعي إليه ليسترسل في قصصه السخيفة . وحين نظرت الى دورين وجدتها تشعر مثل شعوري نحو حكاياته . أما تامي فقد ذهبت في رحلة نوم متقطعة على كتفه ، وكانت تستيقظ بين الحين والآخر تبتسم ابتسامة ولهانة ، وتمرغ وجهها في وجهه . كانت قصة حب تجري أمام عيوننا وعلينا ان نشاهدها حتى نهاية الويسكي من الزجاجة .

واخيراً جف الويسكي في الثانية صباحاً وبدا الضنى على وجه رود ، اما انا فلم أحس بأي تعب ، فقد نمت سبع ساعات من قبل ، وتمايل رود واقفاً على قدميه وسأل بصوت ثمل :

– كم تبعد منطقة « أنجل » من هذا المكان ؟

أخرجت خريطة لندن لأبحث عن « انجل » وانضمت إليّ دورين لتشاركني في البحث ؛ ومضت خمس دقائق عرفنا خلالهـا كيفية الوصول الى « انجل » واردنا ان نخبر « رود ولكنه ذهب لينام بجانب تامي . وحاولت ان احول دون نومه ، ولكن دورين قالت بحيرة :

ـ دعه يا هاري فالمسافة بعيدة ولن يجدا قطاراً أو باصاً ليأخذاه الى هناك !

ـ ألا يمكننا استدعاء سيارة اجرة ؟

ـ يمكنه ان يبقى هنا مع تامي وسأطلب منه أن يغادر بهدوء في الصباح ، أليس بوسعي ان أُبقي اصدقائي في شقتي إذا اردت ذلك ؟

ـ وفي اي مكان سأنام انا ؟

ـ كل ما استطيع تقديمه ، هو ان تنام على كرسيين .

دثرنا النائمين بمعطفيهما ونمت على الأرض، بعد ان منعني من النوم على الكرسيين انكاري التام للموضوع ، وجلبت دورين بعض الأغطية ولفّتنا بها ، وهمست :

ـ تصبح على خير .

انحنيت على يدهـا ولكنها أسرعت وقبلتني ثم اطفأت النور . استلقيت لأستعرض الأحداث التي مرت بي ، واستمع الى رشات المياه الآتية من الحمام ، وزار جيمس عقلي . منذ يومين كان جيمس مع ميرا . وكيف مرت عليّ الأيام الثلاثة الماضية ، وشخير رود الذي يشبه قطاراً سريعاً . باب الحمـام يفتح ، بساط من نور فرش الغرفة ، ودورين امامي بقميص نومها . قلت :

ـ ماذا سنفعل وشخير رود يُجفل النوم في عينيّ ؟

وهزته دورين ليمنع الشخير من الانطلاق، ولكن كلما هزته ازداد شخيره . تقدمت نحوه ـ وكنت نائماً بثيابي ـ محاولاً القبض على رسغه العريض ، فأمسك بيدي وضغطها على شفتيه ثم عاد الى نومه . وضحكت دورين لهذا المنظر . وقد استطعت ان أخلص يدي وأضع يد تامي في يده . وبدا شخيره يعلو ثانيـة . وقالت دورين :

ـ إنك تحسن صنعاً لو نمت في فراشي .

لم أكد اسمع كلماتها حتى حملت أغطيتي وألقت بنفسي في الفراش قبل ان تبدل رأيها .

أغلقت الباب وزحفت قربي . قلت :

ـ أين سأنام ؟

ـ هل تستطيع ان تسيطر على نفسك ؟

قلت بوقار :

ـ بالتأكيد !

ـ إذن نم تحت غطاء الريش على السرير .

استلقيت على السرير لا يدثرني الا غطاء الريش وملحفة واحدة ، بينما نامت دورين تحت الأغطية البيض وأطفأت النور . لم يكن بي شهوة جنسية . وقد استراحت يدي حول جسدها ، وعطر شعرها في أنفي . انني احب طريقة النوم هذه . وبدأ عقلي يركض بسرعة ، انا أحس بعاطفة نبيلة تجاه دورين في هذه الليلة . انني لا أحبها ، ولا أود الزواج منها ، إنها حيوية صادقة سامية تنبع من عبادة للانوثة نفسها . وعشت في احساس صادق تجاه الحياة ، وبدا لي ان الايام الثلاثة الماضية وما حدث لي فيها قد قادني الى لحظة الرؤيا هذه . ووجدت أن الحياة الفوضوية البوهيمية جافة مملة . ولو أننا عندما نطالعها في كتاب نتمنى لو نعيشها . وعندما نقرأ أمثال هذه الروايات نضيف اليها حوادث عاطفية ونشحنها بطاقة حرة طليقة . أما الحقيقة فهي ان مثل هذه الحياة جوفاء تقود الى لا شيء .

لماذا اذن يبدو رقادي بجانب دورين أمراً مختلفاً ؟

إنه لم يكن ليبدو شيئاً لو ان دورين من طراز ميرا . فالجنس المحض يبدو عقيماً كالسكر .

ولا معنى للحياة إذا لم نتجه الى اشياء سامية تحمل في طياتها حياة موسيقية هادئة . انا بجانب دورين . ولم اشعر بشبق جنسي . وهذا ما علمني بأن نظام العيش مواز لذبذبة محطة القوة في الانسان . وما خلفت بلدتي ورائي إلا لأعبّ

من هذه المعرفة . فقد كانت قريبة مني يوماً مـــا ، حين كنت اعمــل في سلاح الطيران الملـكي .

ونامت دورين كطفل رضيـع من تأثير الويسكي ، وبقيت مستيقظاً الى أن جاءني ضجيج السيارات . واخترق ضوء صباحي نافذة الغرفة ولا ادري كيف استسلمت لإغفاءة خفيفة حلوة .

صحوت بعد مدة قصيرة على صوت الباب . ورأيت رأس امرأة عجوز يبرز من شق الباب ، وتغسل الغرفة بعينيها . ونظرت إليها كالمصعوق قبل ان تغلق الباب . واردت ان اخبر دورين بهـذا ، ولكنها كانت مستغرقة في نوم عميق . فانسللت من السرير وفتحت الباب لأرى ان المرأة قد غادرت، وكان رود وتامي نائمين بكامل ثيابهما إذ ان معطفيهما قد وقعـا على الأرض . وارتفع ثوب تامي الى خصرها كاشفاً عن جواربها الحريريـــة وعن فخذيها . عدت لأندس في الفراش مطوقاً خصر دورين بيدي واضعاً شفتي على وجههـــا الناعم ، وكانت نائمة على ظهرها ملقية بيدها اليمنى خارج السرير . ونمت .

بعد ساعة وقفت دورين بمعطفها البيتي حاملة صينية القهوة . وقلت مغمغماً :

– هل استيقظ الآخران ؟

– لقد ذهبا !

أعطتني القهوة وجاءت بجانبي في الفراش دون خجل .

قلت : من الأفضل ان انهض .

أجابت بجفاء : لا عليك ، فقد ُطردت من هنا .

– يا إلهي . انا المذنب .

– هذا لا يهمني فقد مللت هذه البقرة العجوز . واجرة الشقة مرتفعـة فأنا أدفع تسعة جنيهات اسبوعياً .

ثم سردت علي قصة صاحبة البيت وكيف اتصلت بها هاتفياً منـــذ عشر دقائق – ففي كل شقة هاتف خاص – ووقع شجار ونقاش بينهما .

– ما هي المدة التي اعطيت لك لاخلاء الشقة ؟

ـ تلك هي المصيبة . فقد صعقت حين علمت بأنها جاءت مثل لصة . عليّ ان أغادر اليوم .

وبينما كنت أرشف قهوتي سألتني بعذوبة :

ـ هل نمت بجانبي طيلة الوقت ؟

أخبرتها بحادثة صاحبة البيت . قالت :

ـ كان عليك ان توقظني لأقذف بشيء في وجه تلك الفاجرة ، أنا أعتقد أن صاحبات البيوت الانكليزيات أخبث الناس .

وتذكرت البيت الفوضوي الواقع في « ناتنغ هل » وانا احلق ذقني في الحمام ، وبدا لي من غير المعقول أن ترضى بالسكنى فيه ، وقررت طرح الامر عليها . وذهبت الى المطبخ وسألتها عن المكان الذي ترغب فيه . وحولت السؤال عليّ قائلة :

ـ اقترح .

فحدثتها بتفصيل عن البيت الذي زرته مع جيمس ملقياً في روعها بأنني احد الوجوه المعروفة هناك ، ودهشت حين أجابتني على الفور :

ـ لا بأس ، إذا كنت تعتقد بأن لا مانع عندهم .

وفرحت ورقت نفسي من السعادة وأنا اتناول فطوري ، فسأرى دورين بجانبي دائماً ، وغمرتني سعادة دافئة لم أشعر بها من قبل في لندن .

الفصل الخامس

قالت دورين انها بحاجة الى ساعات حتى تلملم ثيابها . وانطلقت لابحث عن جيمس. أنا لا ادري لِمَ تحتاج النساء ساعات وساعات لوضع ثيابهن في الحقائب. فانا لا أحتاج أكثر من خمس دقائق لمثل هذا العمل. وأصابني شعور غريب بالثقة، وكنت واثقاً من كل شيء . لم أفكر في الأشياء التي ستحدث فيما لو لم أجد مكاناً في ناتنغ هل. وماذا لو رفضت دورين البقاء بعد رؤيتها للبيت وشخصياته؟ ولكن المصاعب لم تعد ترعبني ، فالقدر زغرد في وجهي ومنحني دورين كهبة رائعة . وتذكرت قول « سكوت فتزجيرالد : « ليست الحياة الا شيئاً يمكنك السيطرة عليه إذا كنت تملك اية فضيلة » الحيـــاة خاضعة للذكاء والجهد ... وسأعترف بان كاتبنا غيّر آراءه بعد كتابته لهذه الكلمات ، ومع هذا فأنا اؤمن بما قال . انك تسعى في الحيـــاة كالمجنون وعليك أن تسلم بان الآلهة أرادت بك خيراً .

كان جيمس في الزاوية كما توقعت يشرب الشاي . والمكان قد احتشدت فيه شخصيات سوهو الكرتونية الذين قضوا ليلة الأمس على مقعـــد جاف في ساحة حديقة . وتبلورت فكرتي الخاصة عن كل المتسكعين في سوهو . هم لا يحسون بالنهار . لا يعرفون لليقظة والسعي والحركة معنى. وإن ميزات التشرد يكتنفها الغموض ويفترسها الكسل . هم يعشقونها . لأنهم لا يعرفون شيئاً آخر يفعلونه .

كان رجل السيف راؤل يشرب الحليب الساخن. وكان الرجل الحديدي جالساً وما

زال منهمكاً في صنع اقراطه من بقايا السلك السحري الذي لا ينتهي. وقد توقعت ان يثور جيمس ، ان يغضب بسبب غيابي . ولكن ابتسامة طيبة عاشت على وجهه لرؤيتي وقال بفرح :

ـ آه هاري انا جد سعيد لرؤيتك . كنت خائفاً من ان لا أراك .

وكان كريماً كعادته . فقد طلب لي قطعة حلوى وفنجان قهوة . ورحب بي كثيراً . وتدفقت مشاعر حب صادقة نحوه . فحدثته بتفصيل عن مقابلتي مع سير ريجنالد بروبتر – لم اذكر له العشرة جنيهات – وعن ليلتي الشهية مع دورين . قال لي برقة مفاجئة .

ـ آه انت تجدها جذابة .

قلت متذمراً : ربما .

لم أرد ان اخوض معه موضوع دورين ، لذا تحولت الى حديث آخر فسألت:

ـ هل تعتقد بأنها ستجد مكاناً في بيت ناتنغ هِلْ ؟

ـ اعتقد ذلك ، وهي ليست مفلسة ايضاً .

ـ طبعاً لا ! فهي ستدفع لهم .

ـ هذا ما توقعته .

واخرج من جيبه علبة دخان فارغة وقال :

ـ هاري ، هل معك « شلنان ونصفٍ » ؟

فأعطيته ما طلب .

ـ هاري ، إذا اردت الانضمام الى دورين والعيش معها فلا داعي للاحتفاظ بشراكتنا .

ـ لا ادري . فالأشياء غير معروفة لي . لا تتحدث هكذا .

كان جيمس في حالة كرم غير عادية ذلك الصباح .

ـ لا عليك أيها الصديق . انا لا اريدك ان تشعر بأنك مقيّد .

سألته مغيراً مجرى الحديث عما فعل منذ أن تركته بالأمس . فقال :

ـ لا شيء . عائماً من مكان الى آخر مع الهولندية . وقد دعتني الى الغداء

وتواعدنا على اللقاء في المتحف الوطني هذا الصباح .

ـ في أية ساعة ستراها ؟

ـ لن أذهب فأنا لا اريدها ولا ارغب في زيادة مصائبي ، إنها ليست من طرازي .

طلبت فنجان قهوة لجيمس واتفقنا على اللقاء في الواحدة عندما أنتهي من دورين ، ثم غادرت المكان الى شارع بلومزبري . واجتاحتني رغبة جامحة لزيارة المتحف البريطاني ، لأسأل عن بطاقتي لدخول غرف المطالعة . وجذبني شيء حاد للدخول ولرؤية المكان من الداخل . وكم آلمني حارس الباب فلم يسأل عن البطاقة التي حصلت عليها ، كان منهمكاً في حديث هامس مع رجل آخر ، وسربلتني الهيبة كأنني أدخل كاتدرائية . وبحثت عن مقعد خال ثم تناولت كتاباً من على الرف ، وكان بعنوان « قاموس البِدَع » وجلست أفكر . كم من العباقرة زاروا هذه الغرفة وسلخوا أعماراً ندية فيها ! وكأنما أبى التاريخ ان يعيد نفسه . فهؤلاء الذين يطالعون بجانبي وحولي لا علامات للعبقرية على وجوههم . وهذا ما ذكرني برواد الكنائس الذين لا يبعثون في النفس أحاسيس دينية . لم يشدني وجه واحد للتفرس فيه هنا ، فرجعت للكتاب أطالع فيه وأُخذت بمصير المذاهب ، وهذا ما قذف بي للقراءة ساعة اخرى . وجعلني افكر بأنه من المرعب حقاً من وجهة نظر تاريخ الأديان ، ان الجنس البشري يتابع الاهتمام بأمر ذاته . وأقفلت الكتاب وانطلقت في هذا الصباح المنير من شهر كانون الأول محدقاً بتمثال جزيرة عيد الفصح الذي يحدق بلا إحساس بعيون لا ترى كأنه يقول :

« لا تعليق » .

كانت دورين تقف على الباب مستعدة للرحيل ، واربع حقائب جلدية تحيط بها . وقالت مستبشرة :

ـ كنت أفكر بأن جيمس أقنعك بالعدول عن العودة إليّ .

ـ أنت مخطئة ، فهو يعتقد ان انتقالنا معاً الى ناتنغ فكرة رائعة .

وسنراه في الواحدة لنتغدى معاً .

استدعيت سيارة اجرة ثم وضعنا الحقائب كأمانة في محطة «توتنهام كورت» وتابعنا سيرنا بعد ان اقنعتها أن لا تترك اسطوانة موسيقية في المحطة ، لأنها ستكون مصدر فرح للجميع في ناتنغ هل . وأخذنا الباص توفيراً للمصاريف .

شعرت بألم ممض في أحشائي قبل الوصول إلى عتبة البيت ، فقد كان من الأفضل لو جئت بمفردي مستكشفاً للوسائل عن امكانية قبولنا في البيت . وكانت دورين بمعطفها الجميل ووجها الجذاب توحي بالإحترام الكامل ، ومع هذا فقد تجولنا في المنطقة باحثين في الاعلانات الحائطية عن غرف خالية فلم نوفق . كانت الاعلانات تقول :

« عارضة أزياء جميلة مستعدة للعمل في أية ساعة من ساعات الليل او النهار» خبيرة في أوضاع غير عادية » « السيدة سويثم مدربة ، إخصائية في صحة البدن . » .

ماذا لو تركت دورين تنتظرني في مطعم ليونز وذهبت وحيداً لأقوم ببعض الاستعلامات ؟ هذه فكرة سخيفة . لقد قال جيمس انهم سيقبلونها هناك ، أنا لم أقرر بعد هل سأسكن معها ام لا . وذهبنا معاً ، جرس الباب لم يجب عليه احد . فمددت يدي وفتحت الباب ، وكانت القاعة كما هي ، خالدة في تبعثر الأشياء فيها ، وكانت زجاجات حليب فارغة تتكوم في زاوية صغيرة يرافقها صندوق من الشاي مليء أوراقاً مهملة وكان ملطخاً بالدهان .

صعدنا الدرجات – محاولاً أن لا أنظر إلى وجه دورين – وطرقنا الباب : لاأحد كالعادة، ودفعت الباب ففتح بسهولة، وكانت الاسرة دون ترتيب، والثياب الغفيرة في كل مكان، وكان ثمة حركة في الطابق العلوي وهرولت لأجد أبواباً ثلاثة مغلقة . ثم طرقت باباً على اليمين ، فإذا بصوت خشن يصرخ : « انصرف » .

وبكل وقاحة فتحت الباب مقدار قدم ونظرت الى الداخل فإذا بي أقابل الرسام الذي حدثني عنه جيمس ، لم أنس الأسم ، فهو يحمل اسم ذلك الراهب الذي طرد من الكنيسة وساعد « جيل دي ديز » في تجاربه الكيميائية .

سألته :

– السيد برلاني ؟

– نعم من أنت ؟

كان ضخماً بلحية ملتفة ، يرتدي سروالاً قذراً منتفخاً ، يشده الى وسطه رباط عنق وسترة مبقّعة بالدهان ، وكان يعتمد على ضوء ذي قوسين لرسم لوحته ، لأن ضوء النهار كان عتماً داكناً .

قلت بخجل :

– جئنا للبحث عن مكان للمبيت هنا ، ولم نجد أحداً لنسأله .

– من نحن ؟ من انتم ؟

وكان جوابي ان فتحت الباب على مصراعيه ليرى دورين وليعرف من نحن ! ولدهشتي فقد تغيرت دهشته في الحديث وقال :

– اعتذر لمعاملتي السيئة لك فقد ، جعلتك تشعر بأنه غير مرغوب فيك هنا ، كنت أظن بأنك واحد من المشردين المتسكعين الذين ينامون في الطابق السفلي ويأتون هنا للسؤال عن السجائر والشاي .

قدمت دورين ثم نفسي اليه فترك عمله وصافحنا ثم قال :

– أنتما تبحثان عن مكان للسكنى هنا ، الا يمكنكما وجود مكان أكثر احتراماً ؟

قالت دورين :

– لا مانع لديّ ، فأنا أحب هذا المكان .

انهمك في عمله مرة ثانية . وخيم صمت على المكان . ثم قال فجأة :

– اعذرا سؤالاً غير لائق ، ولكن هل تفكران في الدفع ؟

قلت :

– طبعاً .

– حسناً ، فهذا مما يشجعني . اسمحا لي بخمس دقائق ثم أريكما المكان .

واتجه الى دورين قائلاً :

ـ هل لك ان تضعي ابريق الشاي على النار أيتها العزيزة ؟

كانت ستارة المطبخ قد احترق نصفها من نار المواقد ، والجدران ملطخة ببقايا القهوة ، وقد وضعت خرق بالية لسد فجوة النافذة . وساعدتها على ملء الابريق ثم وضعناه على النار .

وبعودتنا الى الغرفة أتيحت لنا فرصة التامل في لوحته ، وأعلمتني ضربات فرشاته بأنه رسام رائع . فكل ضربة لها طابع غريب مميز . وقد إمتازت بالتجرد ، ومع ذلك فلم تكن توحي بالتجريد فكلها ذات وقع حسي لا مجال لإنكاره .

إنها صور لنساء وحيوانات ومقاهٍ ، وما كاد يترك فرشاة الرسم ليتوقف حتى سألته :

ـ هل أقمت أي معرض ؟

هز كتفيه قائلاً :

ـ انزلا .

وتبعناه الى الطابق الأرضي . قال من وراء كتفيه :

ـ لدي غرفة يسكنها رسامان سكيران لم يدفعا الأجرة منذ شهور ، ويمكنكما الحصول عليها .

ـ ألن يزعجها هذا ؟

ـ لا تهتم ، فهما لم يعودا منذ أسابيع .

كان الباب على يمين النازل في أسفل السلم قد حُصّن بقفل وتدي ، وقبض برلاتي عليه بيديه الضخمتين وهزه ثم فصله عن الخشب . لم يكن للباب مقبض وإنما كان هناك عوضاً عنه شريط طويل من البلاستيك وضع على شكل دائرة للامساك به .

دخلنا غرفة صغيرة عارية ، حوت على كرسيين وطاولة خشبية كبيرة ، وسرير عريض واسع، وقد اصطف على الطاولة عدد من زجاجات الخمر والوسكي الفارغة وعدد من شمعات لم يتم احتراقها بعد، إنتشرت في ارجاء الغرفة القذرة.

أما النافذة الوحيدة فقد كسرت احدى مربعاتها الزجاجية، واستبدلت بشمع . وسرى تيار هوائي شديد من خلال ألواح الأرض الخشبية ، وعيدان كبريت مستعملة قد غطت الأرض .

ـ يمكنكما الحصول عليها بثلاثين شلناً اسبوعياً .

أجبته بالموافقة ، سآخذها لنفسي اذا لم تعجب دورين . وكنت واثقاً بأنها أفضل من غرفتي السابقة في « الزكورت » وأخرجت محفظتي ونقدته اجرة اسبوعين مقدماً ، لكنّ أمراً واحداً أقلقني .

ـ لنفرض ان الرسامين عادا ؟

ـ اترك الأمر لي .

وصعد إلى الطابق العلوي ثم عاد وبيده ورقة طبع عليها « هذا المقعد محجوز » مزقها الى نصفين تاركاً كلمة « محجوز » التي ثبتها على الباب بسمارين صغيرين . وقال موضحاً :

إنني أحتفظ بعدد كبير من هذه الاوراق ، فقد كانت لي صديقة تعمل في الخطوط الجوية البريطانية سرقت كومة كبيرة منها .

ثم أضاف قائلا « الى اللقاء » وعاد الى الطابق العلوي . واسرعت بشرح الأمر لدورين :

ـ اذا لم تعجبك الغرفة فانا على استعداد لقبولها . ومن اجل هذا اخذتها .

ـ هذا حسن ، ولكن غرفة ايّنا هي ؟

ـ غرفتك طبعاً .

ـ وأنت ؟

ـ يمكنني النوم في الطابق العلوي ، وأغلب الظن بأنك ستملّينها . ويوم يحدث هذا فأنا على استعداد لقبولها .

ـ إنني مدينة لك بثلاثة جنيهات .

أعطتني النقود ثم تطلعت الى الغرفة وقالت :

ـ ان المكان يحتاج الى تنظيف .

تذكرت أني رأيت « مكنسة » في غرفة من غرف الطابق العلوي ، فبدأ تنظيف الغرفة بالماء الممزوج بالصابون ، ومضت عشر دقائق فإذا ببرلاتي ينادي دورين طالباً منها تحضير الشاي ، وذهبت لأشتري بعض الحاجيات ، ابريقاً وحلتين ومقلاة وقفلاً . وكانتَ دورين قد أحضرت علبتين كبيرتين من الشاي ، وضعناهما على الرف حتى لا يصل اليهما الغبار الذي أثارته المكنسة . وقالت دورين :

– يعجبني هذا الرسام ، فهو ذو وجه جذاب . لقد قال لي بأن أُناديه « ريكي » .

– أنا أعتقد بأن رسومه تنم عن ذكاء خارق ، إن لم يكن عن عبقرية .

– قلت له هذا الكلام ، ولكنه كما يبدو لا يود الحديث عن ذلك .

وبينما كنت اثبت القفل على الباب ، اذ بالشاعر روبي ديزارت وفيرا يدخلان من الباب . لم يبدُ عليهما الدهشة لرؤيتي ، وقالت فيرا بلهجة عادية :

– هل نقلت إلى هنا ؟

– نعم .

– حسناً، فقد قرفت رؤية السكيرين اللعينين وهما يعودان مع الفجر .

دلت الغرفة أن قاطينيها رسامان شاذان يرجعان إليها صبيحة كل يوم ليثيرا شجاراً مزعجاً في جميع أرجاء البيت (فلقد فوجئت لوجود الآنية الخزفية والزجاجات المهشمة ، ولكني عرفت السبب) . وجلست دورين أمام الطاولة تعد قائمة كبيرة حين رأت الغرفة نظيفة نوعاً ما ، وتضمنت القائمة خزانة لحفظ الأطعمة ، وأغطية جديدة (فالأغطية المفروشة على السرير قذرة مبقعة وممزقة) ووسائد وآنية خزفية وبساطاً، وكنا في حاجة شديدة لمدفأة كهربائية جديدة ، فبالرغم من المدفأة ذات العامودين التي نمتلكها الآن ، ظلت الغرفة باردة كالثلاجة ، فتيار الهواء الآتي من الأرض جعلها مسرحاً له . وكان السبب كما تبين لي هو بناء البيت العجيب ، فالغرفة قد ركزت على عدة قضبان حديدية تمكن الانسان من العبور خلالها الى الباب الجانبي من الطابق الأسفل ، ولا شيء

غيرها يثبت دعائم الغرفة ، وقد استعملوا الطابق الأسفل كمخزن للفحم ، أما سقفه فقد هُشّم ، وهذا ما يسمح للتيار الهوائي بالنفاذ إلى غرفتنا .

قاربت الساعة الواحدة فقررت، ان لا أذهب إلى المدينة لرؤية جيمس، وهذا ما أعطاني فرصة الذهاب بصحبة دورين الى المخازن المحلية القريبة لشراء بعض الأطعمة، وكانت وجبتنا باردة، عبارة عن بيض وجبن وشرائح من لحم الخنزير، وبينما نحن نأكل إذ بروبي يطرق الباب ويطلب علبة كبريت ، ورمى الطعام بنظرة جائعة ، فقدمت له دورين بعض الأطعمة ، فقبل الدعوة وهو يبحث عن مكان للجلوس ، وكان خجولاً جداً كفتاة صغيرة ، وقدم لنا نصائح عملية كثيرة لتأثيث غرفتنا، وذكر لنا أن خير مكان هو شارع بورتوبلو، وفي حالة شراءالعديد من الحاجيات علينا أن نأخذ عربة بائع الأقفال القريب من المكان ؛ ثم أخرج من جيبه التي حوت أشياء عجيبة ، منقلة باليد وأخذ مقياس أرض الغرفة . ولم تمض نصف ساعة حتى كنت ودورين قد استعرنا عربة بائع الأقفال (الذي رفض ان يقبل نقوداً منا) وقمنا بالتجوال على محال عديدة تبيع الحاجيات المستعملة ، وأشترينا ثمانية أقدام مربعة من المشمع ، وخزانة طعام وكرسيين خشبيين وأغطية ووسائد من مخلفات الجيش ؛ وتركتني دورين وذهبت لشراء أشياء أخرى ، وعادت بغطاء طاولة من البلاستيك وعدة مساند ذات ألوان براقة ، وكانت حمولة العربة فوق طاقتنا ، وبصعوبة وصلنا البيت فألقيت الأغراض في الحديقة الأمامية وأعدت العربة لصاحبها .

وبدت المهمة القاسية في نقل المفروشات إلى الغرفة ، ولكن روبي جاء وساعدني ، فرفعنا السرير إلى زاوية في الغرفة ثم بسطنا المشمع لنطأ عليه بأقدامنا فنجعله مستوياً ، وأعدنا الطاولة إلى مكانها الأول ، وكذلك باقي المفروشات . وقد مدت دورين غطاء الطاولة وأصلحت من شأن السرير الذي خلا من الشراشف البيضاء ، ونفضت الغبار المتراكم عن قطعة سجاد صغيرة حتى تغيّر لونها . لم أشك لحظة في أن شكل الغرفة قد تغير ، ولكن الى أي حد بلغ هذا التحول ، لست أدري ؟ فلم تزد هذه الأشياء جميعها – المشمع وغطاء الطاولة

والمساند – إلا على إظهار عيب مربع النافذة المكسور وعري الجدران الخالية من الطلاء ، وكان التيار الهوائي مـا زال ينفذ من ناحية او أخرى ، ومع هذا فقد بدت علامات الرضى على دورين التي ذهبت للتسوق وعادت بعـد نصف ساعة لتقوم بصنع فنجان من الشاي في إبريقنا الخاص وعلى موقدها الغازي ، ولم يكن هناك ما نفعله ، فرحنا نراقب احدنا الآخر ، وسحابة صامتة قـد خيمت على الغرفة ، يجب ان نعمل شيئاً .

قلت :

– إن خير ما نفعله هو الذهاب لإحضار الحقائب .

– حسناً . هل يمكنني الاحتفاظ بأحد مفاتيح القفل ؟

– عليك الاحتفاظ بهما معاً فهذه غرفتك .

– لا . احتفظ بواحد منهما لنفسك ، ولكن على شرط . .

– ما هو ؟

– إذا كانت هذه غرفتي فأنا لا أود ان أرى جيمس يمضي معظم وقته هنا .

– حسناً إنها غرفتك .

– هذا لا يدل على أني لا أحب جيمس ولكن ... انت تعلم !

لم أكن لأعلم شيئاً . وإن لم أقل ذلك . لم أناقش القضية ، فأنا تعب . فقد عملت بعنف طيلة اليوم . وكانت أعضاء جسدي تؤلمني ، وشربت مزيـداً من الشاي وألقيت بنفسي على السرير مغلقاً عينيّ ، سألت دورين :

– هل نذهب ؟؟

– أليس من الأفضل ان ننتظر ؟ إنها ساعة الزحام .

أطفأت النور وتكوّمت بجـانبي ، لم يفصلني شيء في العالم عنها ، انهـا ترقد بجانبي هادئـة ، وصوت السيارات المارة يدوي في المكان ، وأصوات الآخرين تأتي إلينا من القاعـة الكبيرة ، متحدثة ، وصارخـة ، وضاحكة ، وعامود المدفأة الكهربائية يظلل الغرفة بلون أحمر . كان التعب يغلفنا ، وكانت عيوننا مغمضة . فلم أستطع النوم . لقد أثارني وجودها بقربي ، إنها لي . ومـا

كدت أضع يدي في يدها حتى قبضت عليها ونامت ، ونمت انا كذلك .

وقرع الباب بعد مدة ، وصوت جيمس ينادي :

– هل أنت هنا أيها الصديق ؟

استويت قائماً ، وتوقف الطرق ، وسمعت صوت قدميه على السلم ، وفتحت الباب وعيناي تطرفان في الضوء . قال جيمس باسماً :

– عفواً لإزعاجك . سأذهب .

أغلقت البـــاب خلفي كي لا أزعج دورين ووقفت أدعك عينيّ وأنظر الى جواربي التي بدت مضحكة . قال جيمس :

– رأيت الغرفة مظلمة فلم أرد إيقاظك . أين دورين ؟

أشرت برأسي نحو الباب ، فهمس ضاحكاً :

– آه ، فهمت .

أفرحتني الفكرة الخاطئة التي عبرت عقله عنـــا ، وأشعرتني بالذنب لتركه وحيداً ، وحاولت ان لا أظهر له هذا ، فشرحت له باختصار مـــا حدث ساعة الغداء .

سألني :

– هل ستشاركها غرفتها ؟

– إذا قبلت .

هزّ رأسه موافقاً والأسى في وجهه ، فسألته عما سيفعل الآن . فأجاب :

– سأذهب ، فقد قضيت نصف ساعة هنا . اسمع هاري : هل تحب ان تأتي معي وتساعدني في الترفيـه عن الناس الذين ينتظرون دخول دورة العرض أو المسارح ؟

– كيف ؟

– سترى المعجزة ، بإمكاننا جمع نقود تكفي لشراء بيرة لنا .

قلت وانا أتذكر مسؤوليتي نحوه :

– أنا مدين لك بوقعة عشاء .

– لا تهتم بهذا ، فلديك واجبات اخرى الآن .

دخلت الغرفة لأسأل دورين عن بطاقـــة الحقائب التي تركناها في محطـــة « توتنهام كورت » ، ولم أفهم من همهمتها غير « حقيبة اليد » ودثرتها بالغطاء ثم قبلتها بعد ان أخذت البطاقة ، وتوجهنا نحو محطـــة « ناتنغ هِل » لأخذ قطار النفق إلى قلب المدينة . ومـــا زالت فكرة الترفيه عن شعب لندن تصيبني بالغثيان . سأقف بجانبه فهو صديقي . وهذا دين عليّ له .

قابلتنا جماهير المارة في توتنهام كورت رود . وعلمت من جيمس ان عملي يتلخص في جمـــع النقود من الواقفين ، وجيمس سيغني لهم ويلقي بسخرياتـه ، ليضحكهم . وبـــدأ الاضطراب في معدتي يشتد ، ولم تبد على جيمس علامات الاهتمام ، ونظر الى ساعته ثم قال :

– الساعة السابعة الآن . موعد رتل آخر جديد .

وما ان وصلنا المسرح حتى شاهدنا ثلاثـــة رجال يغنـّون بصوت عذب ويرقصون بانسجام عجيب وصفوف النـــاس تشاركهم الانسجـام ، وكانوا هم السابقين مما جعلني أشعر بالارتياح ، فوقفنا لمشاهدتهم مدة خمس دقـائق ، كانوا رائعين حقاً : فقد ارتدى اثنان منهم ملابس مخططة وقبعتين مستديرتين ، ثم خلعا سترتيهما والقبعتين ولبسا ملفحتين وعمامتين وبدأا يتلويان ويرقصان رقصةً هندية ساخرة ، وجاء صوت الأكورديون كمزمارٍ هندي ، ومـا كاد أحدهم يمر على الواقفين جامعاً نقوداً منهم حتى غادرنا المكان ، قال جيمس :

– سنذهب الى شارع سانت مارتن .

وجدنا رتلاً من النـــاس أمام المسرح يحلق السأم فوق رؤوسهم ، وانتصب جيمس بقامته الرياضية وأعلن بصوت ضخم عميق :

« سيداتي وسادتي اسمحوا لي ان أرفـّه عنكم قبل دخولكم المسرح » .

كنت أتوقع ان يقابل بالهزء والسخرية ، ولم يقل أحد شيئاً ، فتابع جيمس خطابه بنبرة صاخبة بلا اضطراب « لا شك انكم تذكرون ايها السيدات والسادة ان حظي في الحيـــاة هو الدراما من العصر الأليزبيتي ، كما أن بعضكم يقتني في

بيته انتاج مارلو الذي وضعته من أجل تدعيم الصحافة وجعلها حرفة محترمة . »

وضحك الجميع ، ونجح جيمس . لقد عرف كيف يسبر غورهم من خلال المسرحية التي سيشاهدون عما قريب ، كانت مسرحية أدبية مترجمة عن الفرنسية .

« يوم كنت طالباً ، لسوء الحظ ، في « رادا » أصيبت المدرسة بصاروخ حربي « V ٢٠ » لم أهتم مطلقاً لأنني فكرت بأن هذا عمل كربونات الصودا في معدة خاوية ، وحين عدت الى الحقيقة بعد قضاء يومين على سرير مستشفى لم أعد أذكر من أية مسرحية من مسرحيات شكسبير ولدت هذه السطور المختلفة ! أغلب الظن انني دحرت المصيبة ، وإلا فأرجو الصفح عن أخطائي الطفيفة ، أهم . أهم ..

وانهمر في إلقاء مبتكر عن كتاب المسرحيات في العصر الاليزابيتي . وبدأه بأن قال « إن نوع الرحمة » وصال لمدة دقائق الى أن قال بلهجة حزينة « ومرة أخرى في الأخدود أيها الأصدقاء الأعزاء » وتوّج كلماته بقول « ليحفظ الله بلادنا وهاري وسانت جورج » وعاد ليقول مفعماً بالبطولة « هذا هو الوجه الذي غزا ألف سفينة . » وخطف عدة سطور من مسرحية بيجماليون لبرنارد شو وتعملق وتطاول في خطابه ، فكان يقفز من مسرحية إلى أخرى . فيضحك الجميع بصوت مرتفع ، حتى وإن لم يكن قفزه ، مما يثير الضحك . وعلا التصفيق الحاد ، تجربة مثيرة . قال جيمس لهم :

– سيمر زميلي الآن بصندوق التبرعات أثناء المقطوعة التالية .

وبخفة مجنونة صنعت قبعة ورقيــة من بقايا صحيفة وبدأت بآخر الرتل ، بينما تابع جيمس قائلاً :

– أقنعت رئيسي في التلفزيون لاستخدام كلمات شكسبير في الاعلانات التلفزيونية ، وستسمعون عما قريب هذه الكلمات التي ستستعمل للدعاية عن مسهل شهير « أن تعصر أو لا نعصر فهذا هو السؤال » ..

وأكمل المقطع بكلمات وقحة وإن لم تكن مخجلة ، وصفق الناس ، وغمز لي

بأن أبدأ من أول الرتل المتحرك لدخول المسرح ، واستمر في إلقـاء مقطوعاته المسروقة التي اعتبرها من أروع مسرحية لبرناردشو « باشفيل المحبوب » .

وأخذ الرتل يتناقص ويتسرب الى المسرح والنقود في القبعة الورقية تتزايد، وبعد دقائق خمس كنا نقف وحدنا في الشارع ، فأخبرت جيمس بأنه كان رائعاً وعظيماً .

فإبتهج فرحاً ، وحين سألته عمن كتب هذا المزيج المتناقض من المقطوعات أجاب :

– كلها من تأليفي .

وانزوينا لنحصي مقدار نقودنا ، في حانة قريبة ، والبيرة أمامنا على الطاولة وكان المبلغ ثمانية شلنات كلها بنسات وأنصاف البنسات . سألته :

– وماذا ستلقي على الناس لو كانوا يقفون أمـــام مسرح يعرض تمثيليات هزلية ؟

– أغني لهم أغنية « اسكيمونال » أو أغنية عيد الميـلاد في « وركهارس » وإذا وجدتهم أمام « أولدفيك » فسأخطب بصوت فخم معرّفاً إياهم بكتاب الدراما ايام عهد الملكة اليزابيث . أو سألقي عليهم مقطوعات من « تامبورلين » لمارلو . أو من المأساة الاسبانية ، عليك فقط ان تعرف نفسية المستمعين . فمثلاً ما زال وليم ماكجونال المفضل لدى الطبقة المثقفة .

أدهشني هذا الرجل فهو يجيد أشياء عديدة لو قام بها لكسب عيشه بسهولة وقلت له :

– لِمَ لا تقوم بهذا العمل يومياً ؟

– ومن يريدني ؟ لو قمت بهذا العمل لما تمتعت به، إنها طفرة فقط ولن اتخذها مهنة ، ثم ان النـــاس لو سمعوني كثيراً فلن يشعروا بالمرح . أنا صاحب خمسين طريقة لكسب شلنات عدة ولو أردت أن تعرفها لإحتجت إلى أسابيع .

وعلمت بعد هذا أنه لم يمثل للناس الا من أجـــل جذبي اليه ، وإبعادي عن دورين. ومهما يكن فقد فضلت لو لم أره . لاحظت وجود بعض السندويشات في

الحانة فقمت واشتريت بعضاً منها مع قدحين من البـيرة ، وكان لنجاح جيمس في هذا المساء ردة فعل عظيمة ، فانهمر يحدثني عن فلسفة الحرية ، وتـأكدت أنه كان يعيش رؤياه . ولم يقم بهذا العمل من أجلي . وسألته :

– متى خطرت لك هذه الفكرة ؟

– حدث هذا عندما تركت الجيش وجئت لأرى حي سوهو العجيب ، وفي جيبي عدة جنيهات ، وفي الليلة الأولى تعرفت على فتـاة في احدى الحانات ، وعرضت عليها أن أرسم لوحة لها . كانت طالبة في مدرسة الفنون الجميلة ، وفضلت ان تنام معي بين غطائين ، وشعرت بالواجب يدعوني لتلبية رغبتها ! كانت المشكلة إيجاد غرفة للنوم ، فقد كانت تعيش مع عائلتها في منطقة «باهام» وكنت انا أفترش أرض غرفة مع صديق، وكان يمكنها الإدعاء بأنها قضت ليلتها عند صديقة في المدينة ، ولكن لم نجد مكاناً . تجولنا في شوارع المدينة ساعـة من الزمن ، وقابلت صديقـاً شرحت له المشكلة فنصح بأن نذهب الى شارع « توتنهام كورت رود » وندخل داراً للعرض ، لم نجد كرسيّاً واحداً في الدار فنمنا على الأرض. وكانت مشكلة فخرجنا لننام خلف الدار قريباً من مراحيض عامة . وانهمر المطر اللعـين فإحتمينا في المراحيض وسرقنا لفة ورق تستعمل لتغليف أنابيب الميـاه في الشتاء واتخذناها أسرّة وأغطية . كانت الفتاة رائعة يا هاري ، وعندما صحوت تركت الفتاة لتداوم على كليتها ، وخرجت وحيـداً أسير صبيحة يوم ممطر من أيام الصيف، أنت تفهم هذا يا هاري ، ووجدت خبزاً طازجاً أمام باب مطعم فسرقت شيئـاً منه ، ثم خطفت زجاجة حليب ، وجلست أراقب جماهير الناس الزاحفة إلى أمكنة عملهم تحت زخات من المطر الصيفي ، وهكذا بدأ الحادث ينمو .

سألت بإصرار :

– أي حادث ؟

لقد ملكني بإخلاصه وصدقه . إذ حاول بكل جهده ان يتذكر ، قـال :

– أولئك الذين يسعون لرؤسائهم ويصبحون آلات تخضع لآلات . هم لا

يعرفون جدوى الحيـــاة الحرة . فمنذ ولدوا وهم يعيشون سجنـاء ، لم تتح لهم فرصة المعرفة . إن مشكلتهم هي الثقـافة التي تحجّرت في عقولهم ، يقول لهـم كبيرهم بأن لذة الحياة في خدمة المجتمع والعمل من أجـــله ، ويمضي كبيرهم في سرد أحاديثه البراقة ، لقد غُسلت أدمغتهم وهم كسالى لن يعلموا شيئاً . ومـا هي الفائدة لفتح عقولهم ! دعهم يزحفون كل يوم ، أنا لا أحب ان أرى الجميـع من أمثالي ، نحن نحتاج اليهم كما نحتاج الى الخراف لطعامنا ، لا يا هـــاري لـن أنضم إلى هذه الفئة ، فأنا سأدافع عن حريق .

فقلت مقتبساً :

– على الا نسان ان يحرق قيوده ، فقد خلق ليكون حراً .

– هذا رائع يا هاري . أنا احب آراءك. نعم « على الانسان ان يحرق قيوده فقد خلق ليكون حراً » .

وتعلقت كلمات بلاغية أخرى على لساني ، فخفت ان أقولهـا ، واقترحت مغادرة المكان بعد أن أفرغت كأسي ، وسرنا الى سوهو في طريقنا الى المحـل الفرنسي الذي وجدناه يغصّ بالناس . وما كاد راوُل يرانا حتى اتجه نحونا دافعاً الناس ليفسحوا له الطريق ، فهربنا من المكان ، واقترحت الذهاب الى النـادي الذي زرته بالأمس وسألته عما إذا كان يعرفه فأجاب :

– « الكهوف » أنا أحد اعضائه ، دعنا نذهب ونتناول مشروباً إذا أردت

وعند مدخل النادي اصطدمنا برجلين ثملين يرددان أغنية « عنـــدما نعود ثانية الى ويلز » كان أحدهما طويلاً نحيلاً ، والثاني قصير القامة منتفخاً . وهمس جيمس :

– إنهما ديفيد وجونز الرسامان اللذان أُخرجا من غرفتهما لتحتلها أنت .

صعقت وأنا أنظر اليهما – كانا قد ابتعدا قليلا – فقد بدا لي الرجل الطويل كمنظف نوافذ مصاب بعلة مجهولة . إنه ضيق الوجه شاحبه ، منقاري الانف ذو عينين مشمشين،أما القصير فكان غريب المنظر ثقيله، أحمر الوجه مربعه لهشارب قصير مربّع وجفون كبيرة مغلقة، وحدثني جيمس قليلا عن تاريخ حياتهماعندما

اكتشفهما ناقد فني في كارديف منذ خمس سنوات وقدمهما لمجتمع لندن الفني ثم أقام لهما معرضاً ناجحاً ، وبعدها انغمسا في ثمالة لا صحو يعقبها .

قلت :

– هل تظن بأنهما سيسببان شجاراً ؟

– إذا تذكرا أين يعيشان ! إنهما لم يذهبا منذ أسابيع الى الغرفة وإذا عادا فقل لهما بأنهما مخطئان،وأخبرهما بأنك تعيش في تلك الغرفة منذ خمس سنوات.

وتجلى كرم جيمس عندما اشترى قدحين من البيرة وبحثنا عن زاوية لنجلس وفجأة رأيت سير ريجنالد بروبتر يحدث امرأة ضخمة ترتـدي معطفاً أزرق ، وابتسم حين رآني ، مما جعل جيمس يسأل بلهجة غير عادية :

– هل تعرف هذا الرجل ؟

فلم أجب وسرت بإتجاه مائدته فقبض جيمس على ذراعي وقال :

– هاري لا تذهب اليهما ، فالمرأة ألعن نساء سوهو ، انها مسيحية متعصبة تنتمي الى جيش إنقاذ النفوس ، انها خطرة كالوباء .

لم أستطع تلبية رغبة صديقي إذ ان ريجنالد أشار إلي فهززت كتفيّ عاجزاً وتقدمت نحوهما وهب ريجنالد واقفاً :

– مرحباً هاري . (شعرت بسعادة كبيرة حين ناداني باسمي كأننا صديقان قديمان) أود أن أعرفك على برباره كوليفكس ، فهي شاعرة مجيدة .

مدت المرأة يدها ذات القفاز ، وكانت دميمة الوجـه ، ذات أسنان بارزة كأحجار المقابر ، وقالت بصوت ضخم :

– أظن أننا تعارفنا من قبل !

– لا أعتقد ذلك !

– ألم تسألني مرة في نهاية إحدى محاضراتي عن الحياة الآخرة !

أكدت لها بأنها مخطئة ، فأنا لم أستمع اليها من قبل ، وبدت غير مصدقة :

– حسناً ، فما دام صديقي « ريجي » يريدني أن أتعرف بك ، فهذا يدل على أننا نشترك في بعض الأشياء .

قال ريجنالد :

– هذا صحيح ، فهاري يعد كتاباً عن مشكلة الإنسان الروحية المعاصرة .

– حقاً ! تفضل بالجلوس وحدثني عن كتابك .

التفت لأرى جيمس يقف وحيداً ، فقلت :

– انني آسف ولكن عليّ أن أعود لصديقي .

اتجهت بنظرها القصير عبر الغرفة وقالت :

– لِمَ لا يأتي إلى مائدتنا ؟

– سوف أسأله !

أشرت بيدي،وأنا في مكاني، إليه.فتقدم على كره،واتسعت عيناها بدهشة:

– هذا أنت أيها ...؟

– انه لمن دواعي سروري أن أراك مرة ثانية .

رفرفت بعينيها كأنه لطمها . وقالت بعصبية :

– أعتقد بأنني أستسيغ وقاحتك .

أجاب جيمس بابتسامة لطيفة مهذبة :

– إذن سأنقلها إلى مكان آخر حيث لا تستطيعين الإفادة منها .

ظهرت أمارات غضب منزعجة على سير ريجنالد وأسرع ليخفف الجو :

– دع عنك هذا فهي لم تقصد إهانتك .

وفي لحظة مكهربة قدمت جيمس إلى سير ريجنالد الذي بدت عليه علامات الاشمئزاز :

– الا تجلس ؟

هبت المرأة الدميمة بمهابة وقالت بصوت ذي صدى :

– سأغادركم !

وفكرت بأنها أرادت أن تضع حداً لما جرى ، ولكن كلماتها إنسالت علينا قائلة :

– إن صحبة الثرثارين البلهاء لهي أسوأ من عدم الصحبة .

تجاهلت محاولة ريجنالد لإبقائها معنا ، وتركت دون كلمة ، ونبعت علامات الرضى الكاملة على وجهه وهو يشيعها بنظرة مبهمة ، وتعلقت على شفتيه إبتسامة رقيقة وهو يسأل جيمس :

– ما الذي فعلته لها ؟

– لا شيء . حاولت مرة أن تجذبني إلى حظيرة الدين ، فقمت لأشرح لها نظريتي الفلسفية عن الحرية كما أفهمها .

– إنها ذات عقل عملي . (وكانت كلماته تنم عن قلة شأنها) .

– اعتذر لإفسادي جلستك معها .

كان يحاول بكلماته اصطياد معلومات جديدة عن المرأة الدميمة .

– لا ، لم تفسد جلستي معها، كنت أقنعها بكتابة مقال عن طقوس «ميثراز الدينية » فهي خبيرة في هذا الموضوع . ولكني فشلت معها ، فهي تؤمن بأن البوذية لا خير فيها ، ولا تحمل ديناً في تعاليمها ، وشعر كل منا بأنه غير مطمئن للآخر .

– ستعود بعد خمس دقائق لتعتذر بلطف .

– هل تعتقد ذلك ؟

– نعم فأنا أعرفها معرفة تامة .

– الأفضل أن نغادر المكان .

جرعنا بقية البيرة وخرجنا جميعنا. لقد عرفت الآن ما الذي عناه جيمس عن صداقة تلك المرأة ، وأشار ريجنالد لسيارة أجرة عابرة في شارع دين . فقلت :

– من الأفضل ان نتركك الآن .

– إذا كان عندكما شغل ضروري فاذهبا ، وإلا فلنذهب إلى مكان آخر وتشرب شيئاً .

حشرنا أنفسنا في السيارة ، وأخبر ريجنالد السائق بأن يتوجه إلى ميدان فيتزور .

وسأله جيمس عن مكان سكناه .

– في كلانريكارد غاردنز .

– إنه بالقرب من مسكن هاري الجديد ، ما رأيك لو جئت معنا وشربت شيئاً هناك ؟

حدقت في عيني جيمس متسائلاً . فأنا أعرف انه يخفي شيئاً بدعوته المفاجئة هذه ، مع أنني كنت فخوراً بغرفة دورين ، ولكن لم يخطر على بالي مرة بأن أدعو « بارونا » لتناول المشروب هنـاك . وكم كانت دهشتي كبيرة . فقد قبل الدعوة ، وقال باسماً :

– هذا لطف منك ولن أبقى طويلاً إذ أشعر بتعب .

قفزت فكرة الى عقلي ونحن ننتظر إشارة المرور فسألت ريجنالد إن كان لديه أي مـانع في انتظارنا لدقائق حتى أجلب حقائب دورين من محطة توتنهام كورت رود ، وعند انفرادي بجيمس سألت بسرعة :

– ما الهدف من دعوته ؟

– لا شيء اطلاقاً . هو رجل نبيل حقاً ، فلمَ لا نجعل علاقتنا متينة معه ؟ علماً بأنـه من المهتمين بالرسم . فنكون بذلك قد أسدينا خدمـة قيمة الى « ريكي برلاتي » .

لم تعـد أفعال جيمس تفاجئني ، فقد عرفته يؤثر غيره على نفسه ، وتابـع حديثه باسماً :

– عليه ان يمدنا بالمشروب .

فضحكت وأنا آخذ حقائبي وحقائب دورين ، وجاءه ذكاء جيمس ونحن في السيارة الى ناتنغ هِل ، فسأل بلهجة عادية :

– هل عندك بعض المشروب يا هاري ؟

– أنت تعرف أنني انتقلت البارحة الى غرفتي هـذه ولم اشتر شيئاً بعد ، سنقف وسأشتري .

وبالقرب من مسكني توقفت سيارة الأجرة واشترينـا ليترين من الجعـة وزجاجة نبيذ اسباني ، وتدفق كرم ريجنالد فاشترى زجاجة ويسكي بعـد

إصرار عنيد .

سأله جيمس :

– هل تهتم بالرسم ؟

– بكل تأكيد .

– إذن عليك ان تطلع على أعمال رسام موهوب يعيش هناك .

فظهرت نظرة حذرة على وجه ريجنالد – فلا شك بأنه وجد نفسه في مواقف مشابهة من قبل ، ولم يكن هناك من مفر له سوى الاعتذار بأنه لا يحمل دفتر الشيكات – وحملنا الويسكي وزجاجات الجعة والنبيذ الى القاعة الكبيرة . وكان باب غرفة دورين مغلقاً ففتحته بمفتاحي ، وإذا بالضوء ونور المدفأة الكهربائية يشعان .

– إنها غرفة مريحة جداً .

صعد جيمس إلى الطابق العلوي ليرى من في البيت . ولم تمض لحظة حتى علا صوته :

– انهم جميعاً هنا .

وأخذنا الزجاجات وتبعناه .

بدت الغرفة مختلفة في المساء، فالمصباح العاري أكسبها ومضات براقة شاحبة والستارة المحترقة اختفت والشجرة العارية المنتصبة بوحدة قاتلة في الخلف ، حجبها الظلام الليلي ، ورائحة الطعام والثوم تغلف المكان ، الوجوه أعرفها، وهناك وجوه جديدة لم أعرفها بعد ، يعيشون الحياة في ابتسامة مستمرة لم تستطع البنايات الفخمة في الجوار أن تقتلعها. كان هوفمان الصحفي بوجهه المتعب مستلقياً على سريره . ودورين جالسة على كرسي من كراسي غرفتنا ، تشرب نبيذاً أبيض ، وفي الفسحة بين الكرسي والسرير تبعثرت زجاجات من البيرة والنبيذ الرخيص الفارغة .

وعند رؤيتهم الزجاجات في أيدينا علا فرحهم ، والتقطت دورين عينيّ وانا أنظر إليها فابتسمت ، وقد سررت لاختيارها الزاوية ، لأن النساء الأخريات

حشرن أنفسهن بين الرجال على الأسرة .

وقف جيمس وأعلن بصوت مرتفع اسم ريجنالد ، ثم التفت إليه قائلاً :

– أخبرك باسم كل واحد على حدة ، خاطب الرجال بلفظة « أبي » والنساء بلفظة « عسل » .

تبرع أحد الرجال بمقعده لريجنالد وقدم إليه كأساً بلا يد، وصرخ ديسيموند الخجول – الذي طلبت منه فيرا ان يسرق الطعام في اليوم السابق :

– هل أحضرت « البيك آب » الخاص بدورين ؟

ولما أجبت بالإيجاب صرخ :

– يعيش ... لنستمع الى مقطوعات موسيقية .

اخذت دورين وذهبنا الى الغرفة ... قلت لها :

– ما رأيك في هذه المجموعة ؟

– انا أحبهم فهم مرحون لم أر مثلهم في نيوزيلندا، إنني جد فرحة لوجودي هنا.

فتحت الحقائب وأخرجت الاسطوانات . أدرتها نحوي وقبلتها بعنف ، فأبعدتني عنها قائلة :

– لا تفعل هذا ، فبإمكانهم رؤيتنا .

أطفأت النور وتقدمت نحوها ، فألقت بجسدها عليّ ، وأنفاسها تتلاحق والتحمنا في قبلات شيقة أتخذت مسرحاً لها في وجهينا ، وشعرت بحمى الجنس تلتهب فيّ . وتوقفتُ ، فإنفلتت من بين يدي بخفة . قالت دون أن أرى وجهها :

– اضبط أعصابك يا هاري، فلا أحب أن نفعل كما يفعلون في الطابق العلوي .

أشعلت النور لأطرد الجو الرومانتيكي ثم حملت الاسطوانات جاهداً أن لا أظهر منفعلاً ، قلت محاولاً أن اكون طبيعياً :

– لماذا . هل ارتكبوا من خطأ ؟

– لا شيء ، انهم إباحيون يعيشون حريتهم . فهذه الفتاة فيرا تكرع الخمرة وتقبل الرجال ، وتذهب معهم الى مكان مجاور !!

ان العيش في هذا البيت جعل دورين تتصنع الحشمة والاحترام . قد اكون مخطئاً في حكمي ، وعند عودتنا الى الطابق العلوي بالاسطوانات ، هجم علينا دسيموند وخطفها منا ، وبدأ الجميع يسبحون في موسيقى « برباك » واقترب روبي ديزارت – الذي يعرف كل شيء عن ريجنالد – من سير ريجنالد وخاض معه في حديث عميق عن « زن » البوذي ، وانشغلت فتاة ثملة مع ديزموند في نقل الزجاجات الفارغة ، واستلقت فيرا حالمة نشوانه فوق سرير ، وهوفمان يأكلها بعينين جريحتين ، وبدا كأنه لا ينتمي إلينا ، فأسفت له ، لأنه يعيش في قصة حب فاشلة مع فيرا ، وريجنالد انخرط مع زمرتنا وشعر بسعادة لم يعش مثلها في حياته .

كان هوفمان يدري بأن فيرا أفعمت قلبه حباً ، وهدمت جدران عقله وجعلته مجنوناً ، هناك شيء خفي يجذبه نحوها ، مع انها لم تفكر يوماً بحبه . لا لأنه يكبرها بخمسة وعشرين عاماً وينتمي الى جيل أكثر عصبية وحساسية ، جيل يشعر بصلة القربى في الحب ، ولن يثنيه عن عزمه خيبة أمل أو فشل، ولم تكن خطيئة فيرا ، فهي لا تحب رجلا واحداً ، بل تفضل ان تنام مع عددٍ كبير من الرجال ، وهي تؤمن بأن الجسد يجب ان يعرض على نوعيات مختلفة من الرجال ، وقد خلق جسدها ليتمتع به غيرها ، وإذا كانت فيرا لا تعرف معنى الهزيمة فلأنها لا تحتفظ بشيء مدة من الزمن . ولمَ تحتفظ ؟ فهي تمسح الفكرة والصورة من عقلها بعد أن تغتسل . وانا أفضل هذه النوعية من الناس، أفضلهم كما فضل وايتمان الحيوان على الانسان .

انتهت الاسطوانة وسأل ريجنالد روبي ان يقرأ له بعضاً من أشعاره ، شعرت بالنشوة . فزيارته أفادت أحدنا ، بحثت عن جيمس الذي اختفى مع زجاجة نبيذ في زاوية معتمة . وسألته كيف سنأخذ ريجنالد ليرى أعمال ريكي برلاتي . وتدخلت فيرا لتقول أنه يعيش في حالة بغضٍ للمجتمع الانساني اليوم ، وهو يرسم الآن قلاعاً للسلام الخالد المرتقب ، وسوف يطردنا إذا ذهبنا.

خرجت من الغرفة ولحقت بي دورين كقطة صغيرة . ولم يجب على طرقات

الباب . وقد كنت خائفاً ان يرشني بصراخه الحانق ، وفتحت بحذر . كان برلاتي يقف كالمسحور على بعد ستة أمتار من منصة الرسم محدقاً فيما رسم . ورأيت نموذجاً حياً عنده ، كان رجلٌ هنديٌ قصير القامة عار ، يجلس القرفصاء في منتصف الغرفة . واستمر المعلم في تحديقه غير متنبّه لنا ، فانتابني شعور المتجول في متحف للشمع . وتبعني جيمس وسير ريجنالد . وقال جيمس غير مبال به :

– المعلم مستغرق في تأملاته .

وتقدم نحو ريكي وحدق في الصورة ، كم هي رائعة ! وسرى تيار السحر إليّ . ان اللوحة رسمت بقالب تجريدي لا يصدق . لقد رأيت سمكاً هلامياً أبيض مشعاً بنور غامض ، وكانت أعصابها كأسلاك كهرطيسية متموجة في ماء أسود أُنير بومضات ضوئية حمراء وصفراء . وفي منتصف اللوحة نقطة بيضاء أثارت الروعة . فهي تستقطب كل شيء في اللوحة ، ومنها تتفرع اللوحة ، ومضت اللحظة وشعرت بأنني سُحرت .

ربّت جيمس على كتف ريكي وقال :

– ايها المعلم ، لقد تمت المعجزة ، أليس كذلك سير ريج ؟

وأفاق ريكي من غيبوبته . لقد تلاشت الرؤيا ، وبلا بغضاء رآنا لأول مرة ، وطفح وجهه بالدهشة من أمر دخولنا .

قال ريجنالد لاهثاً :

– انه عمل رائع ، ماذا ستطلق عليه ؟

أشار ريكي الى الهندي العاري وقال :

– إنه نارندا .

وتحولت نظرات سير ريجنالد الى الهندي وكأنه ينظر الى شيء هبط من العالم الخارجي . وقدم جيمس سير ريجنالد الى ريكي فتصافحا ثم قال ريجنالد :

– هل تفكر في بيع هذه اللوحة يا سيدي ؟

هز ريكي رأسه بغموض :

– لا . لا !

وانتظرنا تفسيراً منطقياً لهذا الرد ، ولكنه لم يقل أية كلمة . وجـــاء دور جيمس الذكي :

– انها لم تنته بعد .

تجول ريجنالد بصحبة جيمس في أرجاء الغرفة بعد ان أشعل جيمس النور وسلـّطه على اللوحات ، كان الإعجاب اللاعادي يظهر على وجه ريجنالد كما ظهر على وجهي عندما دخلت هذه الغرفة في الصباح . وسأل :

– هل أقمت معرضاً يا سيدي ؟

هز ريكي رأسه بالنفي وأخذ فرشاته وبدأ يضيف بعض اللمسات عليهـــا . وقال كالنائم :

– انا أرسم منذ خمس سنين فقط .

– حقاً . وماذا كنت تفعل قبل ذلك ؟

– أبني الجسور .

– إنها لوحات رائعة لا مثيل لهـــا (ثم التفت الى جيمس قائلاً) إنني ممتنّ لك لأنك أحضرتني الى هذا المكان .

واقترب جيمس منه وهمس بصوت منخفض ، ولما كنت قريباً منهما فقـــد استطعت ان اسمع حوارهما : « لا تتعجل بالحديث عن الشراء الآن . هو يكره بيع لوحاته ، انتظر حتى تعرفـــه أكثر . » أعجبت ببراعـــة جيمس في إثارة رغبته في شراء اللوحات ، ووافق ريجنالد وتابع يشاهد اللوحات . أمـــا دورين فقد وقفت محملقة في وجه الرسام ، فشعرت بغيرة حمقاء ، ونظرت الى وجهـــه من خلال النور لأرى ما في تقاطيعه من شخصية . لم أرَ شخصية فذة قوية مثل شخصيته . فلا ترى ما بين قمة رأسه الأصلع وأسفل ذقنـــه السمراء الا خصالاً نبيلة وقوة عزيمة . مسكينة دورين ، ولِمَ هي مسكينة ان فضلته عليّ ، فأنا لا أحمل شيئاً في وجهي .

وانشق الباب فجأة ليدخل رجـــل أنيق الملبس كأن فرقة من الخياطين

اجتمعوا وصمموا له ملابسه. وكان في ثياب السهرة، وكانت ذقنه السوداء مخططة مثل لوحة، والضوء استقطب على حذائه الجلدي الملمع. قال بصوت عميق بهيج:

– المعلم منغمس في عمله، لا شك عندي بأنها مدافعة عن النفس.

كانت ملاحظته الأخيرة موجهة الينا، وقبل أن ينتابني شعور بالاستياء أردف قائلاً:

– يا آلهي. هذا ريجي بروبتر. كيف أنت ايها الصديق ريجي؟

لم يحب ريجنالد وظهر الاستياء على وجهه، ولاحظت أن صديقنا الشيطاني كان بصحبة شاب مراهق، نحيل الجسم، يرتدي بدلة طحينية ويلف حول خصره حزاماً حريراً، وما أن وقع نظره على جيمس حتى رفرف بحاجبيه وقال:

– مرحباً يا جيمس العزيز، أنا سعيد برؤيتك، الم تجد وارثة غنية بعد؟

– لم أجد واحدة فوق الستين ولا يمكنني قبول واحدة أصغر سناً، فمراسيم الموت باهظة.

نظر إليّ المراهق – المصاب بالشذوذ الجنسي – غامزاً بعينه وقال بصوت مخنث:

– ليس في نية جيمس ان يعرفنا على بعض. أنا أريك بريمروز.

وتصافحنا واستطعت أن اكبت انتفاضة حين أخذ يدغدغ راحة يدي بسبابته. قال:

– أعتقد أنك لم تقابل صديقي أوزولد بلشتاين، أليس كذلك؟

انحنى بلشتاين بإحترام عميق محيّياً إياي، ثم وقعت عيناه على لوحة ريكي وتمطى نحوه ملوحا بعصاه في الهواء:

– يا الهي. لقد أنجزتها أخيراً أيها المعلم، ففيها قوة فان غوخ وتركيب سيزان وصوفية سيمون سولومي وغزل دي ساد. فأي مزيج هذا؟

ودار إريك حول الهندي القصير الذي ما زال يتطلع نحو السماء باستغراب عجيب، ونظر اليه من أعلى:

– أما زلت تائهاً في صحراء المطلق أيها العاقل؟ كيف هي الحال في الأعالي؟ أخبرني هل يلبس الرجال ثياباً هناك ؟

ثم التفت الى ريكي قائلاً :

– لا أدري كيف تنام مع هذا الجسد البنّتي في غرفة واحدة ، هل يصبح مستديراً إذا حاولت لفّه من معدته ؟

قال بلشتاين :

– أيها الصرصار القذر ! إن لم تصمت فسوف يسلط عليك « شيفا » ليخسف بك الأرض .

رفجأة قال ريكي بصوت متعب :

– أيها السادة ! لقد سرتني زيارتكم ، ولكنكم تعرفون أنني أرغب في الاستمرار في عملي ، فهل لكم ان تزوروني في وقت آخر ؟

أجاب بلشتاين :

– كنت على أهبة الرحيل وقد جئتك لأخبرك بأن صديقاً لي يعبد الشيطان عبادة صادقة ويودك ان ترسم لوحات فاضحة على جدران شقته الأرضية فهل يمكنك القيام بهذا ؟

– ما اسمه ؟

– أوتو روهر . أعتقد بأنك تعرفه !

– هل يمكنه ان يدفع ؟

– طبعاً ، فثروته لا تقدر .

– أخبره ان يأتي لرؤيتي والاتفاق معي .

وغضب ريجنالد وهو يتابع هذه المحاورة ، فانتفض يقول :

– ولِمَ ترسم أشياء فاضحة من أجل النقود ؟ إنه ليسعدني أن أشتري بعض لوحاتك .

أجاب ريكي بصوت لا مبالٍ مشحون بالتعب :

– هذا كرم منك سيدي . أنا أفضل ان ارسم مثل هذه اللوحات الفاضحة

على ان ابيع لوحة أحبها .

– ولكن اي نوع من الرسم يتوقع عابد .... الشيطان هذا أن ترسم ؟

أجاب بلشتاين بفتور بارد :

– نوع يستطيع غسله بالماء الحار ، فاغلب الظن أن روث البقر سيلطخها في الحفلات الصاخبة !

قال جيمس بحنق :

– وماذا عن الأجيال القادمة أيها الصبي العزيز ؟

أجاب ريكي بجفاء :

– أنا أفضل النقود .

صرخ بلشتاين من شدة الفرح :

– أنت رجل رائع أيها المعلم ، سوف أخدمك أيها الجشع بكل مـا يرضي قلبك وروحك وفسوقك .

قفز ريجنالد كمن لسع وسأل مشاكساً :

– الا تؤمن معي يا بلشتاين بأن هذه الكلمات أصبحت عقيمة وقديمة ؟

وبان على بلشتاين الاهتمام والارتباك معاً – فقد كان يحمل وجـه ممثل ناجح وقال :

– أنت تصرعني يا ريجي العزيز ، فانت تستطيع أن توجه الموضوع وتبـدله بطريقة غريبة مبتكرة ، لقد تعرفت مرة على معتوه أبله يملك هذه الصفات والتحق بجماعة التسلح الخلقي ، وأصبح من الكبار ، ولم يعرفوا أنه غير لائق لهم .

– أنا قلت بأن عبادة الشيطان أصبحت بالية وعتيقة .

– وما دخل القدم في عبادة الشيطان ؟ هذا أريك ملطخ بالآثام منذ صغره ، فهل نلعنه لأنه لم يبتدع شيئاً جديداً ورائعاً ؟

أجاب أريك :

– أفضل ان لا أكون ضمن أحاديثكم ، لماذا لا ترتكب إثماً وأنت المتحدث العظيم عن الاثم والجريمة ، ولكنك ترتجف رعباً وخوفاً ، فأنت لا تستطيع أن

تفعل إثماً .

– ولماذا ؟ فالجرائم الحقيقية يرتكبها القدر والزمن والحظ ، ولن نتمكن من الحاق الضرر بها ، كما تفعل هي معنا .

كانت دورين تلتهم بلشتاين بفتنة مسحورة . وسألته :

– هل أنت تعبد الشيطان بحق ؟

– لست أدري . فقد فشلت في كيفية الوصول الى عبادة شيء لا محسوس وغير مرئي ، إنه لأسهل عليّ أن أسجد عابداً للنواهد المنتصبة . أو حتى للأولاد الظرفاء ، انه ان العسير ان أعبد الله أو الشيطان ، فأنا أشعر بالاهانة عندما يستطيع شخص ما إثبات عدم وجودهما بالمنطق الصحيح .

فجأة قال ريكي :

– أستطيع رسم أشياء لا أراها .

– بالتأكيد ، فأنت خالق لما ترسم ، ولو قال رجال الدين إنهم خلقوا الله وعبدوه فلن يناقشهم أحد .

وتدخلت قائلاً :

– وماذا عن صديقك ، هل يعبد الشيطان حقاً ؟

– لا أعتقد ذلك . ولا أملك سلطة المتطفل لأعرف . هو يشعر كما أشعر أنا ، بأن حياتنا تافهة وان قوى القدر غامضة ، والحقيقة المعروفة هي : أن نتصرف كمجموعة بشرية تعيش معاً على الأرض. وأنا أؤمن وللأسف بأنني لست من البشر .

وغمغم جيمس :

– لطالما شككت في ذلك .

– أشعر بأنني سأستيقظ يوماً لأجد نفسي مرتدياً جلد قرد ، وأنا أقاوم فكرة الانسان الكامنة في نفسي لأنني واثق بأن ذلك خديعة وشرك منصوب ، واؤمن بأن حياة الانسان ما هي إلاّ عمل مستمر من الاحتجاج بصوت غير مسموع ضد التدجيل والشعوذة ، انا من الذين يؤمنون بالقضاء على الإنسانية

ومسحها .

– كان عليك أن تنضم الى فرق هتلر الصاعقة .

– أنت لم تفهمني ، انا لم اتحدث عن الانسان أو السوبرمان ، أعتقد بان صديقنا الشاب عرف ما الذي أعنيه .

كان يتحدث عني ، فشعرت بالزهو وقلت :

– أعتقد أني فهمت ما الذي عنيته بالقدر المبهم ، فكثيراً ما أشعر أن شخصاً غامضاً لا أراه يلعب معي ألعوبة ، وأود ان التفت اليه صارخاً بغضب « توقف ! » وذات مرة لعبت انا لعبة « مع أبي مقص ومقشة » فكلما جاهد أبو مقص للانفلات من حصاري وضعت في طريقه المقشة ، وانتابني شعور غريب : لمَ لا يلتفت ابو مقص نحوي ويصرخ « ما هو الغرض من هذه الدعابة السمجة » وأتعجب أحياناً وأتساءل « ما إذا كان الله يشعر بمثل هذا الشعور نحو الانسانية؟ »

– بالضبط ، فما من إنسان حساس يمكنه الاعتقاد بان قدره ليس الا أمراً من قوانين الطبيعة الثابتة . انها أمور شخصية .

قال إريك على غير انتظار :

– بودي لو تكتشف حقيقة الله ، ليصبح بامكاني كتابة رسالة قصيرة اليه أشكو فيها حالة الطقس عندنا .

أجاب ريجنالد وهو سارح الفكر :

– فكرة مثيرة حقاً ! ! انحدار الدين الى الهاوية يصاحبه انتفاض الديمقراطية ثوراتها . كان الانسان في الماضي يصلي للاله إذا لحق به ضرر أو اشتكى من شيء ، ولم يتساءل الناس عن ماهية الشر عند حدوثه ، فهو ينتسب الى الله . ثم عرفنا الديمقراطية ، وأصبح باستطاعة الناس ان يكتبوا رسائل مستفسرة شاكية الى صحيفة « التايمز » او الى عضو في البرلمان . وأخيراً عرفنا أن كل عمل يجب ان ينتسب الى معلوم .

قال أريك :

– وهذا عمل رائع حقاً .

– أحقاً . أنت تظن بأن الرجال سوف يشعرون بثقة كبرى في عالم مصاب بامراض عصبية ؟

والتفت إليّ بلشتاين مبتسماً ثم سأل :

– وماذا يقول هانز كاستورب في هذا ؟

كنت أقف بين الإثنين ؟ سير ريجنالد وبلشتاين . العقلية الانسانية الناضجة في جهة ، واللاعقلية واللاإنسانية في جهة اخرى ، كانت عواطفي في صف بلشتاين ، ولكنه كان ممثلاً ، ولذا لم يؤثر في تأثيراً عميقاً . قلت :

– انا أوافقك حين طالبت بالقضاء على الإنسانية إن كانت فكرتك في خط نيتشه التي فسرها بقوله « انها مرادفة للضعف والعبودية » إذن فأنت تؤيد الحرية العقلية .

وبصعوبة وضع بلشتاين إبتسامة مزوّرة على وجهه وقال موجهاً كلماته لريجنالد :

– إن صديقنا الشاب ذو عقل منطقي دقيق .

تابعت حديثي ، سأقول كل شيء ولن يؤثر فيّ أحد عندما يمتدحني :

– انا لا أوافقك حين رفضت أن تكون إنساناً ، لقد قذفت بنفسي في قلب لندن لأبحث عن نوع جديد من الحرية ، ولن أجدها برفقة أحد ، ولن أصادفها في شوارع سوهو ، إنها ليست الحرية التي ارغب فيها ، أنا ارغب في شيء أعظم (وشعرت بأنني أنتقد جيمس ، فتابعت قائلاً له) « إن هذه الطريقة من الحياة التي تعيشونها ، تجوال لا هادف في سوهو ، تنقـّل مستمر من مقهى إلى حانة ، النوم على مقعد في حديقة ، النوم في عربة قطار . هذه الطريقة لا تشبع رغبتي ولا تجعلني أكفّ عن البحث ، وأنا لا أؤمن بان الحل هو اكتشاف طريقة جديدة للعيش . فطريقة الحياة التي تحياها ، ليست هي الحياة .

قاطعني بلشتاين قائلاً :

– يا بني العزيز ...

وتدخل ريكي :

– لقد وجدت أحاديثكم ممتعة ، وعليّ أن اتابع عملي ، فلِمَ لا تذهبون الى الطابق الآخر وتدخنون الحشيش ، أو تقومون بزيارة مفاجئة للقسم النسائي ، في الطابق الأرضي ؟

وكان ريجنالد يود لو يفاتح ريكي في قصة إعداد معرض له ، أو يقنعه في بيع إحدى لوحاته ، وجيمس في منتصف معركة نقاشية حامية مع إريك ، معلناً فيها بأن عباقرة العالم كانوا متسكعين لم يجدوا مكاناً للنوم فيه . وبدأ يعدد الأسماء الكبيرة من مايكل أنجلو وليوناردو فنشي وأفلاطون وشكسبير الى شوبرت وبتهوفن . وأضاف رأياً جديداً عليّ ، فإن « فان كوخ » كان متسكعاً وقد قطع أذنه حتى يعوض الهزيمة البشعة التي لحقت به من جراء حبه لغوغان . وانسللت من الغرفة برفقة دورين ، ولحق بي بلشتاين وناولني بطاقته ، فوعدته ان أزوره في بيته القائم في شارع برووك ، وشدد هو على الزيارة التي لم تعجب دورين ، وما كاد بلشتاين يختفي حتى سألتها عن رأيها فيه فقالت :

– انه جذاب ولا أريدك ان تصبح من زمرته .

– ولِمَ لا ؟

– أوف ، انت تعرف ، إنه مصاب بالشذوذ الجنسي .

– قد يكون ذلك . ولكنه يفضل الجنسين . فقد نظر إليك نظرة شبقة تدل على أنه يشتهي النساء أيضاً .

وفي غرفتنا همست في أذنها :

– لن يخدعني أحد ، وأنت بجانبي .

واعتراني الابتهاج حين ضغطت على يدي واعتصرتها .

القاعة كما كانت من قبل . زجاجات النبيذ الفارغة مبعثرة في كل مكان ، بقية من الويسكي في قعر زجاجة جرعتها في جوفي لأتسلح بها ضد الحرمان الآتي ، هوفمان يبتسم ويسألني :

– هل ترغب في شرب الشاي ؟

أجبت بغموض كأني أرغب في شرب الشاي ، ابتهج وصرخ منادياً فيرا :

ـ شخص جديد سيأتي إليك !

ورجل نحيل ذو لحية لم أرَ وجهه من قبل ، أمسك بدورين وراح يراقصها على أنغام برويك . لم تتلوّ وتصخب وتفقد حشمتها . كان يتحرك بتموجات إنسيابية رائعة تنم عن براعة . الشاعر روبي ديزارت يجلس منعزلاً في مكان في الغرفة يكتب على غلاف دفتر من محلات وولوارث ، ذهبت إليه . تطلع مبتسماً ثم عاد الى كتابته ، وبدأ يقضم مؤخرة قلمه ، جاهماً في ورقته ، كان خطه جميلاً منظماً ، أطلعني على ما كتب :

أرى أنهم همجيون متردّدون
ومع هـذا فهم لا يصمتون
الرعب المنسدل يتلون ويتغير
الى ضحكات وحديث عن النعيم
أما انا فصامت كطفل قتيل
هزيل كشبح إنسان أثير ، ولكني عليم !
بشيء واه كخيوط عنكبوت .
وهذا على الأقل سيعمّ
مع أن ...

قال روبي :

ـ هذا عسير ... انا بحاجة الى بيت رائع أخير ، يربط أبياتي ربطاً وثيقاً ما رأيك لو قلت « والله نفسه قال لا ! »

حككت جلدة رأسي ، فقد كان البيت الأخير ضعيفاً بلا معنى ، قلت ما رأيك في :

« مع أن السماء ترسل نائبه »

وكانت كلماتي فاشلة أيضاً ، وحاولت ان أختزن في عقلي كلمات على وزن كلماته ، ففكرت « ثلج ، نائبة ، ذهب ، لا حلقه » .

ثم قذفت بهذه الكلمات « حين أجمع ثروة » وفكر فيها للحظات ثم حك

رأسه قائلاً :
ـ غير ملائم .
قلت :
ـ ما رأيك لو كتبت « تعال ، دعنا نذهب » أو « وأخيراً قلتها يا جو »
قال :
ـ لا اريدها أن تكون لشاعرٍ آخر .
وكففت عن القول حين جاءت فيرا إليّ وقالت :
ـ أنت مدين لي بخمسة شلنات .
ـ لماذا ؟
ـ شاي ! عليك ان تذهب الى الغرفة المجاورة .
وذهبت دون تفسير آخر ... قال روبي :
ـ هل تدخن الشاي ؟
وفهمت ، أو كأني فهمت :
ـ وماذا عنيت بكلمة شاي ؟
ـ حشيش ، هل تحب تدخينه ؟
لم أعترف بأني لم أدخنه في حياتي . لذا قلت بغموض :
ـ لم أتخذه عادة بعد .
ـ يمكنني الكتابة بطريقة أروع حين اتعاطاه ، فهل لي ان آخذ نفساً من نصيبك ؟
اجبته بود :
ـ بالتأكيد . سأحضره لك .
ـ لا فسكان. البنايات المجاورة يتلصصون علينا . سآتي معك .
إقتحمنا الغرفة الممنوعة التي لا يمكن رؤيتها من النافذة ، كان هوفمان وفيرا يجلسان على سرير واحد ويخلطان محتويات علبة من التبغ بمسحوق رمادي مخضرّ ثم يُلفُّ الخليط بورق بني اللون . تناولت لفافة منها ، وأعطيتها لروبي الذي اجابني بأدب بالغ جداً :

ـ لا . إنها شلناتك الخمسة .

ذكرني هذا بأن أدفع المبلغ ، وتماهلت في اخذ النفس الأول كي لا اكون اول المدخنين ، واصرّ ديسموند وفتاة جميلة على لف نصيبهما بنفسهما ، واضعين كمية اكثر مما في لفافتي . وبدأت حفلة التدخين ، كان النفس الأول عادياً جداً يشبه السيجارة العادية مع حدة بسيطة : ولم يرعبني ، واشتم هوفمان جهلي بهذه التجربة ، فرمقني بنظرة اخجلتني ، وهـذا ما دفعني لإمتصاص عميق متواصل من الحشيش . ومضت دقائق قصيرة ، شعرت بعدها بإضطراب ودوران ، فأخذت مكرهاً نفساً آخر من سيجارتي نصف المحترقة واعطيتها لروبي .

اعترى الغرفة صخب مرح وماتت الممنوعات في جوها ، وكان صخبنا يشبه ارتفاع المصعد الكهربائي السريع ، وفهمت السبب في اصرارهم على إتخاذ هذه الغرفة للتدخين ، فالساكن في البنايات المجاورة لا يستطيع التعرف على لون الحشيش على بعد خمسين ياردة ، ولكن المشكلة لم تنحصر في الحشيش فقط ... اردت ان اغوص في فترات خليعة ماجنة اطرد فيها افكاري ثم اعانق العالم من جديد ، كل منا يعاني مثلي في بداية اية تجربة . وتمددت على السرير متمطياً بخفة كأنني قطة فارسية ، وتلاقت عيناي مع فيرا وهي تشعل سيجارتها ، فابتسمت كأخت وزوجة معاً ، وزحفت نحوي وأحسست دفء جسدها الصبي ، ثم انتقلت فوق جسدي وضغطت بشفتيها على فمي بعنف شبق ، ولم أستطع ان اشاركها عواطفها لبحثي عن دورين ، ولكنني لم اهتم وسرت النيران الملتهبة في عقلي وجسدي واكلتها قبلات مجنونة لاهثة . كانت رائعة . ربتُّ بيدي على اردافها المحشورة في بنطال ضيق اثارني من جديد .. ولكن لا ادري لمَ لم تثر فيّ رغبة جنسية متواصلة. لقد رأيتها من قبل مع رجلين على سرير واحد ، ومثلت الحكمة الفجة وإتخذتها ستاراً . ولكنها امرأة لذيذة ودافئة وعالمنا يتدحرج فيه اناس شرفاء ، وانفتلت اليها سارحاً راعياً في وجهها ، في شعرها الأسود اللامسرح ، في رقبتها ، وتخلصت اللعينة مني ،

فنهضت لأرى دورين تقف بجانب السرير كمـــن يراقب بسرور منظر الدمى
المتحركة ، جلست وقلت بهدوء قاطع :
ـ إنني أعبر عن أخوة الرجال جميعاً .
قالت بلطف عذب :
ـ هل أنت سكران ؟
وفي تلك اللحظة أرجع روبي بقية لفافة الحشيش ، فناولتها لدورين قائلاً :
ـ جرّبي هذا !
ـ ما هذا ؟
ـ شاي !!
وإحتارت في تصويب عينيها ، كانت خـــائفة ثم ذاب خوفها . ووضعت اللفافة بين شفتيها . وهمست :
ـ اغترفي بغمق .
فعلت ما قلت لها .. وسألتها :
ـ أليست رائعة ؟
هزت رأسها مجيبة :
ـ لا بأس .
والتحم هوفمان وفيرا في عناق طويل طويل ، كان بودي أن أهمس «هوفمان. إن اسمك لجميل رائع . » ولكني كنت أحتـــاج إلى جرأة ومشقة ، السيجارة في يدي تحترق حتى النهاية ، والقيت بها أرضاً ودست عليها بقدمي . وبــدأت رحلة البحث عن بعض الويسكي ، لم أكن في حالة سكر . ولكن المخدر أتم عمل المشروب فشعرت بالإنطلاق المنسرح .
وفي تجوالي باحثـــاً عن ويسكي ، ومبتعداً عن الراقصين شعرت بالغثيان يزورني وينذرني بما سألاقي ، وبسرعة تحـــول البحث الى المطبخ عن كربونات الصودا . ذوبت بعضاً منها في الماء وجرعته في داخلي ، وأعقبتها راحة عميــقة خففت من حدة الغثيان ، وفتحت النـــافذة لأضع رأسي في الليل وأعب من

الهواء ، ونقلت اليّ الرياح العابرة أنغاماً موسيقية من افتتاحية رينجولد، يعزفها شخص ما غير بعيد عن المكان . أما في الغرفة المجاورة فقد كان شخص ما يعزف موسيقى الجاز ، وفهمت الآن ما الذي قصده أوزولد بلشتاين عندما قال « بأن الحياة تافهة » فهذه القامات المتراقصة ، والناس الذين يمتصون الحياة بكل ما فيها ويتناسون المصير الغريب الغامض الذي يفتح فمه للانسان ، ومع ذلك فقد كانوا مزيجاً متناقضاً كلوحات « تولوزلوتريك » المشوهة . وأظن أن لوتريك نفسه رأى الطاحونة الحمراء والناس فيها كما أرى الناس في الغرفة المجاورة.

إن التنقلات والحركات عبث في عبث، ما عدا حركة القلم على الورق الصامت. وقد ركزت حركات بلزاك الصامتة على تصميم سام ، وأقوال شكسبير الغامضة في مسرحياته مثل « عينه في دوران مجنون » لا تتم في الحياة الا إذا مثلها ممثل مغمور في احدى الفرق المتجولة ، فليس الفنان إلا عنكبوتاً .

وتلاشى تخدير الحشيس بعد ان ترك تقززاً في نفسي ، فلم تكن السعادة الواجمة التي خلقها الا خطوة نحو التفسير الخالق والشعور المنفتح ، وحتى الخمرة أماتت الاحساس بما في عالمنا من مزيج غريب للخيانة والحب . وضعت إصبعي في حلقي لأجبر معدتي على قذف محتوياتها ، ثم غسلت المغسلة بفرشاة الأوعية النحاسية ، وكانت المحتويات قد إنزلقت في القاع تحت البيت ، وأسناني ناعمة مصقولة لم تعد بحاجة الى غسيل .

وعرفت طريقي الى غرفة دورين المغلقة ، واستلقيت على السرير بعد أن أطفأت النور ، كانت الغرفة باردة والمدفأة الكهربائية خامدة عن الحركة . واكتشفت بأنني لم أعانِ برداً جسدياً، وجلست أحدق في الخيالات التي أحدثها المصباح على الحائط وفي ظلال غصون الشجرة العجوز ، وأستمع الى دقات ساعة دورين الرتيبة ، التي تركتها على السرير . ومضت نصف ساعة أخرى وفتح الباب ، وكانت دورين ، وقد اشعلت النور وسألت بحب :

ـ هل أنت بخير الآن ؟

ـ نعم . شكراً وأنت ؟

ـ أنني متعبة جداً .
ـ هل أثرّ عليك الحشيش ؟
ـ لم يكن التأثير عظيماً ، غير ان الأشياء تسير بحركة بطيئة وصافية، وماذا عنك ؟
ـ لقد أثر علي كثيراً ، ولكني قذفت ما بداخلي و كف الغثيان .
ـ هل جربت الحشيش من قبل ؟
ـ لا .
ـ أعتقد بأنها ضارة . فلا تأخذها عادة يا هاري ، فهل تفعل هذا ؟
قلت ضاحكاً :
ـ لن أدخن بعد اليوم . لا تخافي عليّ .
أرادت ان تسأل أكثر . فصمت ، ووقفت قائلاً :
ـ أنت ترغبين في النوم على السرير، فهل تريدينني ان انام في الطابق العلوي؟
وتعلقت على وجهها ابتسامة ساخرة :
ـ لماذا ؟ هل ترغب في النوم مع فيرا ؟
أجبت بدهشة :
ـ يا الهي . هذا لم يخطر على بالي قط .
لم تصدق وهي التي شاهدتني مع فيرا في لحظات شبقة مجنونة ، وهل لي ان الومها ان لم تصدق ؟ وأبعدت حقيبة يدها من على السرير . ثم فرشت الأغطية بلمسات نسائية رائعة ، وجلستُ على الطاولة أحدق في بحيرة الشاي التي صنعت تمثالاً وفي بعض اوراق الشاي التي انتثرت على حوافيها ، وكانت هذه الأشياء رسماً هندسياً واضحاً لم استطع تفسيره ، وقبل ان تغادر دورين الغرفة قالت دون ان تلتفت اليّ :
ـ يمكنك النوم في المكان الذي يحلو لك .
وقفزت لأنام بين أغطيتها الباردة وأستنشق عبير شعرها من وسادتها ، وعندما صحوت بعد مدة من الزمن وجدتها بجانبي ترتدي سترة صوفية ليلية

فوق قميص نومها الشفاف . لم اشعر برغبة لمضاجعتها ، فوضعت يدي حول خصرها وانتابني النعاس مرة ثانية ، وكانت صورة وجهها الهادىء وتحديقها المتواصل في السقف يعيشان في عقلي عندما نمت .

القسم الثاني



الفصل الأول

كانت أيامي القليلة التي عشتها في لندن تسير على نمط واحد دون تغيير ، فأحداثها متتابعة متزاحمة ، وقد اخترت أهمها حين اعتزمت تسجيلها .

ذابت الجدران الوهمية بيني وبين دورين يوم عشنا معاً في غرفة واحدة ، ولم أعد أرى جيمس الا قليلاً . فقد ارتحل عن لندن الى « لوتن » ليمارس التمثيل المضحك الصامت . وكان تأثيره – كما تقول دورين – عليّ كبيراً ، وبإبتعاده عادت اليّ السكينة الضائعة ، وسأتحدث عن دورين التي لم أعرف عنها الكثير يوم انتقلنا معاً الى البيت القائم في « لادبروك » . كانت خبرتي النسائية شحيحة، وهي من غير اتجاه حياتي، لم أكن لأصدق حظي، فلطالما رددت بأن الثمن الذي يجب ان أتكلفه لأصبح شاعراً أو فيلسوفاً ، انما هو في سبر غور أحوال العالم . ألم ينقلب النظام الى كَلَب جوع في شهية الانسان ؟

لقد وثقت بي دورين ثقة لا حد لها ، ولم تثق بجيمس أو بأحد غيره من سكان الطابق العلوي . ولم تمر فترة قصيرة الا وعرفتها تماماً وبدأت أعي شيئاً فشيئاً .

لقد ولدتْ بعد ثلاثة أخوة . وكان أبوها شرساً سكيراً يذوب شوقاً للأجسام النسائية ، وكان غنياً يملك عدة محلات في نيوزيلندا ، ويصرف نقوده على بنات

« الموارى »[1] المفضّلات لديه ، وهذا ما جعل العائلة تتماسك وتبدأ حرباً صامتة ، ثم حرباً حادة ضده . ولم تصلح محاولاتهم لإعادته الى حضن الأم النحيلة الرابطة الجأش ، والتي لم تناقش خيانات الأب المتعددة ، والتي وجدت وسيلة لإلهاء نفسها عن حوادث الأب المتعاقبة ، بإعطاء دروس في الموسيقى إلى اتحاد العمال الثقافي .

وبدأت دورين تأخذ دروساً في الموسيقى ، خلال ساعات فراغها ، في كلية كنيسة المسيح ، وهناك تشابكت أحرف قصة حب فاشلة بين مدرس البيانو وبين دورين ، وكان حبيبها هزيلاً مهزوزاً أصلع ، حملته السنون لعمر يضاعف عمر دورين ، وزوجته تحمل لساناً سليطاً لا يقدر على كبح جماحه . وودلو يقدر على زواجها ، واصطدم بمركزه الجامعي الكبير . كانت الفضيحة مخيفة . وقد عمل عقله ، فاستأجر غرفة بعيدة عن قلب المدينة وطلب من دورين ان تشاركه العيش كعشيقة في الغرفة الرومانسية ، وفكرت الفتاة طويلا ، ولكنها قبل أن تقول رأياً في الموضوع،علم والدها الشرس وجرى ليهدد المدرس الجامعي بمسدس حربي ضخم ، ثم أخبر زوجة المدرس السليطة ، وكان ان إنتشرت الفضيحة في المدينة كلها ، وفي كنيسة المسيح بالذات، وقرر والد دورين ان يشحنها كطرد ملابس الى انجلترا واعداً بأن يمدها براتب شهري لمدة ستة أشهر . ويوم ان قابلتها كانت في أسبوعها الأول في لندن ، وكلما قويت معرفتي بها ، ازدادت التصاقاً بي ، وشعرت بأنها طيبة ساذجة تكاد تكون معدومة الشخصية ، ترهب الرجال الأقوياء وتركض خوفاً منهم . كان الرجال من طراز « دون جوان » يرعبونها وترتعش أهداب عينيها عند النظر اليهم، ولم تكن لتملك أذناً موسيقية ومقدرتها على استيعاب الأفكار كمقدرتها على فهم الموسيقى ، كانت ساذجة بريئة ، ووحيدة . تسعى لترتبط بصداقة قوية تعوضها عن الأشياء المفقودة ، وهكذا تعرفت على صديقها الرياضي . ووجدتني خير من يُنسيها حياتها السابقة فقد كنت على النقيض من والدها ، نقلتها الى جو عائلي تعرفت فيه على أشخاص

---

١ - السكان الأصليون لنيوزيلاندا ، وهم قبائل بدائية من الزنوج .

مثيرين ، وكنت حارساً أميناً وصديقاً أحتضن يدها خوفاً من إنزلاقها في طريق الرجال ، ولا شك بأن جيمس سيسخر مني حين يعلم انني ألتصق بجانبها في الفراش دون ان أضاجعها ، أو أداعبها ، ولم يستطع مدرس الموسيقى ان يفتك بها ، وهذا ما أفرحني وغمرني بسعادة لا حد لها .

لم تكن باردة جنسياً . لقد كانت تشعلها حرارة الإلتصاق الجسدي الساذج وتلهب فيها لذة عارمة تخاف عليها ان تثور اذا ما خرجت عن نطاق المداعبة .

وانتقلت مشاعري نحوها من مرحلة الى اخرى ، وكانت علاقاتي السابقة بالنساء قد أصابتني بشيئين ، خيبة أمل ، وذل . وتبعاً لهذا كانت استجابتي لها في البداية ، اعجاباً مكبوتاً كذلك الذي نحسه تجاه شيء بعيد المنال ، وما زلت أذكر بسعادة، ظهيرة ذلك اليوم الذي أمضيته في شقتها، وكيف احسست بحنانها الأموي الصادق ، وجاذبيتها الرائعة التي شدتني للنوم في سريرها لمدة ساعات طويلة ، ورؤية ملابسها الداخلية الشفافة المعلقة في الحمام ، واستعمال صابون حمامها . كل ذلك قد خدّرني ، وكأنها عالم محاط بالألغاز ، ففككت رموزه وعرفته . وشبهت أحساسي هذا بأشعار « غوتيه » الوجدانية نحو فردريك وتشارلوت . ولم أفهم أبداً كيف استطاع « غوتيه » ان يتخلى عن فردريك . وكيف لم يكن حبه لها مجرداً . ويمكنني تعريف شعوري بهذه الكلمات ، فمنذ أن كشفت الأقدار عن حقيقتها لي ، فلن أقف كجدار يحجب عنها العطاء المقبل ، لن أكبل نفسي وأرتبط بها كزوج مدلل ، فأحساسي عرضة لتقلبات عاطفية تهزني هزاً كل يوم . كنت شغوفاً بها فقط ، وصلاتي الوثيقة بها لم تولد في ذلك الزهد الرومانتيكي الروحي ، فهي لم تمل لحظة واحدة الى الاعتقاد بأنها تجسيم للأنوثة الخالدة ولم تجعل من نفسها سراً غامضاً ، فالفتاة في العصر « الفكتوري » تفضل الموت على أن تجعل أحد الرجال يرى حاجياتها الشخصية مبعثرة في غرفة النوم ، أو على السرير . أما دورين ، فقد اخذت بعد ليلتنا الثانية تخلع ملابسها أمامي دون حياء ، واحياناً عارية على السجادة الصغيرة بالقرب من المدفأة ، لتجفف جسدها بعد حمامها الصباحي ،

وهذه الأشياء لم تخفف من عواطفي نحوها . ولكنها حرمتني متعة الاستمرار في الحلم الرومانتيكي الذي أعشق إجتراره باستمرار لا إنقطاع فيه .

كانت حياتي معها في غرفتها عسيرة حرجة ، فأنا لا أريدها أن تؤويني دون نقود . وقد حاولت أن أبين لها أنني أود أن اشارك في أجرة الغرفة ، ولكن خفت من موقفها الحازم . وفكرت بشراء سرير مخيم من شارع بورتوبلو ووضعه في الطابق العلوي ، ولكنني أحب الخلوة الشخصية مع نفسي ، وستفكر دورين بأنني أرغب في مضاجعة فيرا أو احدى الفتيات الزائرات . ومن ثم قررت أن أسأل برلاتي عن غرفة خالية .

استيقظت مبكراً ذات صباح وصعدت السلم ، فلمحته يغتسل بالقرب من مغسلة المطبخ ، وعلى صدره العريض ، الغزير الشعر ، كمية هائلة من رغوة صابون « كربوليكي » .

– لا استطيع مساعدتك !

كانت هذه إجابته حين عرضت عليه الأمر . ثم أضاف قائلاً :

– هناك غرفة أخرى ولكنها محجوزة نوعاً ما !

وأشار إلى غرفة تقع على قرص الدرج ظننتها مرحاضاً ، وتابع حديثه :

– لم أر صاحبها منذ أسابيع ، ولكنه دفع أجرة الغرفة لأشهر عدة ، ومقدماً .

– إذا لم يعد إلى غرفته منذ أسابيع ، فلا شك بأنه وجد مكاناً آخر .

– إنه ساكن قديم ولطيف ، واحد من تلامذة اليوجا ، قال لي مرة بأنه غاب في غيبوبة لمدة يومين متتالين في قطار .

أراني الغرفة ، وبالفعل ، كانت مرحاضاً غير مستعمل وحماماً أيضاً ، عرضها خمسة أقدام وطولها عشرة ، لم تكن فيها مغسلة ، وان كان فيها مستراح غير متصل بخزان المياه غُطي بصندوق شاي واستعمل كطاولة. كانت الغرفة خالية حافية ، غطاء قديم من مخلفات الجيش خبىء في أحدى زوايا الأرض الخشبية ، وارتفع رف أرضي حشي ببعض الفضلات الشخصية .

قال ريكي :

– أنا آخذ منه خمسة شلنات كإيجار لهذه الغرفة ، وحالما يعود سأسأله هل يرغب في السكنى فيها .

سأضع سرير مخيم فيها ، وسأستعملها كغرفة اضافية ، وستخفف من حدة شعور دورين بأنني أشاركها مسكنها ، ولعنت الساكن الغبي الذي لم يعد إليها ليخبر ريكي عما إذا أراد الاحتفاظ بها ، ولكن كيف سأجعله يحضر ؟

توجهت الى المتحف البريطاني لأقضي نهاري هناك ، وأعطي فرصة العزلة لدورين في غرفتها ، وأطلت التفكير في الحياة التي أعيشها ، فوجدتني أحسن مما كنت عليه في بلدتي الصغيرة . يكفي أنني قابلت جيمس واتخذني صديقاً ، ومعضلتي الآن ، هي إعالة نفسي ، يجب ان أعرف المزيد عن جماعة الطابق العلوي . الحقيقة الساطعة هي حاجتي الى حياة منظمة ، فطرق جيمس البارعة في تجنب العمل تكلفه مجهوداً أكثر من العمل الجدي نفسه .

تقاذفتني هذه الأفكار حين دخلت غرفة المطالعة ، وقررت أن أخط بعض النقاط الهامة عن مجلدي « طبيعة الحرية » وسأجعله مقارنة بين مثالين من الحرية المثال الديني والمثال الاجتماعي ، سأكتب في القسم الأول منه عن جميع المبشرين الذين أنذروا بنهاية العالم ، وعن مجموعة التغييرات في المجتمع الانساني وأناقش الفكرة اليهودية عن المسيح ، وجميع التنبوآت عن العالم الثاني قبل انتشار المسيحية ، فقد آمن بعض المتصوفة الألمان في القرن الرابع عشر بقرب ظهور إنسان جديد عاجز عن تحمل الآلام ، انسان آله . ولكن جميع المؤمنين بكمال البشرية يعتقدون ان الذات الكاملة لا يمكن ان توجد إلا بعد الحساب الأخير . وسوف أتتبّع في القسم الثاني من المجلد تطور المثال الاجتماعي للحرية متحدثاً عن « بتتوبياطور » ومدينة الشمس « لكمبانيلا » التي تدور في فلك فكرة روسو « ولد الانسان حراً . »

ما كدت أجلس حتى تلاشت فكرة الكتابة ، الكتب القديمة التي وددت قراءتها منذ زمن ، تحيط بي ، وتلامس عينيّ . أخذت مجموعة من مجلدات تاريخ

الأديان ، لم أستطع ان أركز اهتمامي ، وأروض انفعالاتي على القيام بقراءة تاريخ العهد القديم .

سرقتني من أفكاري فتاة شقراء جميلة كانت تبحث عن كتاب ، واقتربت فتاة أخرى تلبس قميصاً ضيقاً جداً زهري اللون ، وجلست بجانبي يفوح عطرها الشهي – أو رائحة صابون المغسلة – الذي أزعجني ، راقبتها . رفعت قامتها لإدارة ضوء مصباح القراءة ، فانحسر القميص الذي حسبته تنورة من « التويد » ، عن لحم مزهر . وتساءلت لِمَ لا تلبس قميصاً داخلياً في مثل هذا اليوم البارد من أيام ديسمبر ، ولكن لِمَ انا أفكر في هذه الأشياء السخيفة ؟ إنه الدافع الذي حملني على عدم التركيز في انتقادات أسمى ، عندما رأيت الكتب القيّمة تحيط بي ، فالوجدان الانساني لا يكتفي بالتطلع الى ما وراء حدوده الضيقة ، بل يرغب في ان يتدخل في ذات الوقت كل موجود في الكون . إنه الإطار المنفعل للعقل ويقود دوماً الى الملل والهزيمة . وليس حبوط مجموعة الادراكات إلا تصوراً يُعبر عنه بنوع من التجهم او الاباء في قبول ما قبل الأفضل ، فبلزاك وزولا تمكنا من ارضاء نفسيهما بالعمل في كتاب واحد في وقت واحد .

وأحسست بثورة تلسعني وتدفعني الى الخلق ، وكانت الفتاة الشقراء تقرأ بتعمق ، وانا أراقب كل حركة من حركاتها ، كيف لي ان أفهم تاريخ المسيحية وأنا الذي أثارني قميص الفتاة الداخلي ؟؟ أغلقت الكتاب بحمق وانطلقت نحو الشوارع ، تحت المطر ، لأتحدى الملل الذي استولى عليّ . كنت غريقاً يجر جسمه نحو الشاطىء . لا أدري الى أين ؟ وفجأة وجدت نفسي أمام حانوت الميجر «نويه» وبسرعة صعدت هناك لألقي نظرة على الكتب. كانت المرأة المغبرة ما زالت نصف مخفية وراء رفوف الكتب. وكان رجل هزيل بثياب قذرة يفوح عرق جسده في المكان ، وقد ربى لحيته كعش العصفور . وما كدت أقترب منه حتى خنّ بصوت مرتفع ، ومسح أنفه بكم معطفه . نظرت الى الكتاب الذي يحمله فبدا لي كأنه رموز « لم أعرف انه عبري » . وجدت نسخة رخيصة

من كتاب « أورفس »[1] لريناك وكنت على وشك دفع النقود للمرأة المغبرة ، حين دخل الميجر « نويه » ولا أعتقد بأنه عرفني . قلت :

– مرحباً .

فتوقف ليمد يده مصافحاً :

– آه . هذا أنت كيف حالك ؟

رأى الرجل الهزيل ، فاتخذت تعابيره شيئاً من الحذر . وقال بصوت يكاد يكون يابساً :

– مرحباً « وانفرز » لم نرك منذ مدة طويلة .

أجابه بلهجة أهالي ويلز :

– كنت في البلد .

كان صوته جميلاً رقيقاً خُلق ليجذب الناس اليه .

قال الميجر :

– لقد كنت رائعاً ان اراك ثانية هنا :

ربت على كتفي بحب وهو يستعد لدخول عرينه ، وبان التفكير على وجهه وسأل :

– هل قابل احدكما الآخر :

– لا !

– هذا دانفرزريد . يا دانفرز هذا ...

تأكدت بأنه نسي اسمي ، فاسرعت بلفظ الاسم، فانحنى الرجل الولشي[2] وقطرات انفه تتذبذب بلمعان قرب شفته العليا .

سأله الميجر :

– اما زلت تعيش في ذلك المرحاض ؟

---

١ – أورفس الموسيقار اليوناني الشهير الذي كان يلعب على الأرغن بطريقة سحرية رائعة جعلت الاشجار والحيوانات وحتى الصخور تتبعه ، كما قالت الاساطير .

٢ – نسبة الى مقاطعة ويلز .

ودون ان يسمع إجابته توارى خلف باب عرينه ، عاد الولشي الى كتابه ، هزتني كلمة « المرحاض » فقلت بخجل :

– اعذرني ..

ادار عينيه الرماديتين المبللتين نحوي ، وانفه السائل بقطرات مائية ، وذقنه التي تصلح عشاً لعصفور يتيم ، وبدا وجهه مثل قطعة حلوى اسيء صنعها وانقلبت الى كتلة مخضرة .

قلت من جديد :

– أعذر سؤالي ولكن ... أين يقع – ذلك ... المر ... المرحاض الذي أشار اليه الميجر نويه ؟

تخيلت أنه سيقول لي بقسوة « ولمَ لا تهتم بأمورك الخاصة ؟ » .

ولكنه أخبرني بالمكان ، وكان كما توقعت تماماً ، فهو نفس المكان الذي رأيته في الصباح ، كانت صدفة لا تُصدق الا في الروايات ! بيّنت له بأنني كنت في غرفته منذ ساعات قليلة ، فسألني بدهشة مؤدبة :

– حقاً ، وكيف كان ذلك ؟

– سكنت في ذلك البيت منذ أيام وأخبرت ريكي هذا الصباح بأنني أود ان اجد غرفة استأجرها ، فقال أنه سوف يسألك إن كنت بحاجة الى غرفتك أم لا ؟

– لم أفهم ما قلت ! أنت تسكن في ذلك البيت ولا غرفة لديك ، كيف ؟

حدثته بإختصار عن قصتي . فقال :

– إنه لعمل رائع من ريكي أن يطلب استشارتي ، فالبيت بيته .

– لقد دفعت مقدماً أجرة شهرين .

– حقاً ! نسيت هذا ، ومن الأفضل ان اذهب لرؤيته . ما هي مدة الإيجار التي قال عنها ؟

– أغلب الظن أنها شهران .

– ه ... هذا يعني جنيهين . هل تتذكر بأنه سيدفع هذا المبلغ ؟

– سأعطيك المبلغ الآن وبكل سرور .

كدت لا أصدق قدري ، أعطيته النقود فقال « رائع » وبيد مرتعشة كوم الجنيهين ، وعاد يطالع الكتاب الذي في يده . أعطاه للمرأة المغبرة وقال :

– عشرة شلنات ، هذا كثير . الا تفكرين بأن الميجر سيخفض السعر قليلاً فما من أحد يقرأ العبرية هذه الايام .

لم ترد المرأة . وأكلته بنظرة متحجرة وركضت نحو الغرفة المجاورة ثم عادت وبيدها عشرة شلنات من الورق وشلنان من الفضة . لاحظت بريقاً حنوناً يشع من عينيها ولا ينسجم ووجهها الجلدي . قال الرجل الولشي :

– أشكرك يا سيدتي ، ثمانية شلنات فقط . شكراً يا سيدتي ..

دفعت ثمن كتابي وخرجت تحت المطر والبرد وقطرات من الماء تنحدر من شعري لتنساب إلى ظهري قطرة قطرة ، وكان عليّ ان أقدم شكري للرجل الولشي الواقف قرب الباب مشاهداً المطر وخائفاً من السير . تقدمت منه وسألته إن كان يرغب في المجيء معي لنشرب شيئاً معاً .

– لا أشرب الجعة فهي ضارّة .

– سنشرب شيئاً ممزوجاً بالماء ، فالجو بارد .

– أوه ... هذا أمر آخر ، اسمح لي أن أغير رأيي .

دخلنا حانة قريبة من المتحف ، لم يعجب منظر صديقي ، الساقي في الحانة ولكنه مضى في عمله ليحضر لنا « روماً » ساخناً مع عصير الليمون ، وتربع الولشي كاشفاً عن صدره العاري (انه لا يرتدي قميصاً داخلياً (ومحدقاً في الأشياء أمامه دون أن يبادلني الحديث ، وأحضر الساقي ما طلبنا . ثم سألته أن يحضر سندويشة من لحم الخنزير . وعند سؤال الولشي عما إذا كان راغباً في أكل سندويشة ، اكتفى بهز رأسه .

راقبته وهو يحرك السكر في « الروم » مستعملاً عوداً مستديراً حاداً رشف من كأسه فاعترت وجهه نشوة تكاد تكون دينية . ثم أتبعها بإغماءة كأنه سينقلب على عقبيه .

وجرع مرات عديدة ، وحين ذقت مشروبي لم أستطع الا رشفاً ، خوفاً على لساني من اللذعات . وحاولت الحديث معه . فسألته عن مسكنه الحالي ، فحلق بعيداً كأنه في غيبوبة ثم نطق أخيراً :

– في لندن .

كرع ما في قدحه . وسألته عما إذا كان يريد كأساً أخرى فهز رأسه ، وتحركت نحو البار وأحضرت مشروبه وجلست . اخرج شلنين ووضعها على الطاولة قائلا :

– لا يمكنني ان أدعك تدفع ثمن مشروبي . الا تريد شيئاً لنفسك ؟

– لا .

– اضطررت لأن أطلب قدحاً آخر لأن هذا الرجل يود طردي من هنا .

وأشار الى الساقي . تطلعت الى وجهه فعرفت بأن الولشي يقرأ افكار الناس مثل كتاب مفتوح ، ولكنه تابع رشف ما في قدحه حتى أتى على النصف ، واستعاد خدّاه نضارتهما ، فجأة القى بيده على ذراعي وقال :

– إنه لكرم منك ان تتحمل شحاذاً مثلي .

– انا لم أشك مطلقاً بأن مظهرك يبدو مثل الشحاذين .

وظهر لي بأنه عرّف ما قلته بالأدب الرائع . لذا بادرني بالقول :

– طبعا أبدو كشحاذ (قالها بنغمة خاصة . ثم تابع قائلاً) انه ليس بالأمر الصعب ان يكون الانسان شحاذاً .

قلت مرتاباً :

– أعتقد ذلك .

وتشاغلت بأكل السندويشة ، فأخرج منديلاً وأطلق صواريخ أنفه موقفا شهيتي للطعام ، وبدأت اسئلته لي، وعن نفسي . فحدثته عن كتابي وأنا أمضغ. كنت سعيداً بأن أمضي في الحديث عن كتابي الأول لأي إنسان . ولاحظت بأنني جذبت إنتباهه . فقد اتكأ على الطاولة ليقترب مني ، وعرقه المالح ينبع من على جبينه ، ممتزجاً برائحة الروم المنبعثة من فمه . وخلتني أجلس بالقرب

من كومة سماد . واسرعت بابتلاع لقمتي ثم قذفت بالخمرة في داخـــلي ، ومرة ثانية أصابته الغيبوبة فحدّق مندهشاً بعينين بليلتين بالدموع التي انسابت بهدوء على وجه العجوز ، وأصابني الارتباك فطلبت قدحين من الروم . ولكن الرجل لولشي عاد الى وعيه وقال :

– لا . هـــذا يكفي . أنا أشعر بالانتعاش والرفاهية . ولكن اذا شربت قدحاً آخر فسأبدو بليداً جداً .

ألغيت قدحه ، وذهبت لأحضر قدحي أنا، كنت فرحاً بحصولي البسيط على الغرفة ، فقد شربت كثيراً ، وسأشرب أيضاً . وطلب الساقي مني أن أقابــل صاحب الحانــة ذا الشارب الأشيب ، وأومأ الشارب الأشيب اليّ ثم انحنى على آلة المحاسبة وقال بصوت خفيض :

– أنا لا اريد ان اسيء اليك . ولكن هذا المكان سيزدحم بعد عشر دقائق بالموظفين الكبار وسنقدم لهم طعام الغداء .. و .. ورفيقك هنا .

واختفت علامات الارتباك حين قال :

– أنت تعرف ماذا أعني ؟

– لا تخف ، فسنغادر المكان الآن .

أسرع قائلاً :

– لا أريدك ان تشعر بالإهانة ، أنا أترك القضية لذكائـــك . وأنت سترى وجهة نظري . أليس كذلك ؟

وأشار الى صديقي الولشي الغائب في مكان بعيد جداً ، محدقاً في لا شيء ، وعاد ليقول بصوت مرتفع :

– لا فرق عندي بين الناس ، فإذا جاء الى حانتي بحّار بقميص عـادي فلن أقول له إذهب والبس بدلة داكنة اللون ، ولكن عندما يمتنع الزبائن عن المجيء هنا بسبب منظر أحد الناس ، فهذا لا يحمي عملي ، وعليّ أن ادافع عن حقي .

اقتنعت بأنه على حق ، وقد ارادنا صادقاً ان نغادر المكان بــدون ضجة ، وبدون الشعور بالإهانة ، وقذفت ما في كأسي في جوفي . فقـــال بابتسامـة

ودودة :

– لا تسرع ففي الوقت المناسب سا ...

رجعت إلى مقعدي وجلست. لم يتدخل الولشي في سؤالي عما كنت أتحدث به مع صاحب الحانة . حسبت انه لم يلحظ شيئاً ، مزجت الروم بمـــاء بارد وشربت بقية الكأس دفعة واحدة . قال :

– اسمح لي ان اقدم لك مشروباً .

– لا . انا لا استطيع ان اشرب اكثر .

– انت اشتريت لي مشروباً ، فدعني اقدم لك مشروباً على حسابي .

ونهض متوجهاً نحو البار فأمسكت بكمه وقلت :

– هم لا يرغبون في رؤيتنا هنا .

هز كتفيه واستدار نحو الباب . شعرت بالخجل لأنني اسرعت في قـــذف جملتي الأخيرة . كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لاخباره . مشينا نحو المتحف واخيراً قلت :

– لا اعتقد انهم ارادوا الاساءة الينا ، وصاحب الحانة قال لي بأن المكان سيعج بالزبائن بعد قليـ ... ل .

قاطعني قائلاً :

– ليس عليك ان تخبرني فأنا غير مستاء .

وصلنا بوابة المتحف ، واجتزنا الباحة العريضة . قلت :

– هل ستدخل ؟

حدق في وجهي مقطباً وظن أنني قلق على ان تتكرر حادثة الحانة . فقال:

– لا . سأجلس في الخارج لمدة قصيرة .

وجلسنا معاً على ذات المقعد الذي جلست عليه مع الكونت منذ يومـين ، والتقط عود ثقاب من الأرض وقضمه بأسنانه . ثم بدأ ينظف مـا تحت اظافره القذرة . فكرت بأن إنشغاله في تنظيف نفسه جاء متأخراً . قال :

– بعض الناس يضعون ملابس الشحاذين على أجسامهم لأنهم لا يعرفون

طريقة حياتية أخرى ، وبعضهم تنقصهم المقدرة على تنظيف أنفسهم ، أما انا فأفضل ان أكون شحاذاً .

ما زالت حادثة تثير فيّ الامتعاض ، أما هو فكان صريحاً جداً .

قلت بقسوة :

– لماذا ؟

لاحظ نغمة صوتي فابتسم وقال :

– الناس أزرياء ، حين كنت شاباً قررت الانتحار لانتمائي إلى الجنس البشري فقط . أنتم لا تقدرون على وصف حقارة الناس ، فالشهوة الانسانية الأصيلة تحرق صاحبها من الداخل ليكون شهيراً وعظيماً ومعشوقاً من الآخرين، وكل إنسان في هذا العالم يموت طرباً حين يوافقه احد الناس على رأيه او طريقة حياته ، وما الفائدة من الانقاذ ؟ فما من انسان يريد ان ينتقد أحداً ، وكل انسان يريد أن يزهو بأهميته ، وانا أقسمت ان انقذ نفسي من السعي خلف التصفيق لهؤلاء الأغبياء . انا لا اغتسل ابداً ، لا ابدل ثيابي ، اضع اصبعي في انفي امام الناس وألقي بالأقذار على الأرض . هم يكرهونني ، وانا لا أفكر تفكيراً جيداً في زملائي . وكل من يدعي بأن الناس رائعون إنما هو كاذب اصيل .

أخذت بتفكيره . ولكنه أقلقني ايضاً . وقلت :

– ولكن لماذا تحمل الكراهية للناس ؟

– انا لا اكرههم . بل على العكس انا احبهم ، واريد ان احبهم على حقيقتهم . هل قرأت « بيير جينت ؟ » هل تذكر الساحة في وادي الملوك حيث صدق ترولدس كل اكاذيب بيير، شرط ان يصدق هو اكاذيبهم ؟ هذا هو مجتمعك الانساني . لماذا لا تذهب إلى مجلس البرلمان وتشاهد كيف يشترك الجميع في المؤامرة ، ويأخذ احدهم كلام الآخر ، ويردد هذه الجملة « ايها المتحدث ، هل تبين بوضوح اكثر ؟ » فما من انسان يشب عن الطوق ، وما من أحد يثق بنفسه ، فكل منا يخاف الآخرين ، ويرهب العيش معهم . وليست الالاعيب

التي نقوم بها إلاّ من قبيل الاطمئنان الذاتي والاغراء يدفعك الى الاشتراك فيها . أنت تبعث فيّ روح الاطمئنان وانا ارد لك الكيل . شيء واحـد يبعدك عن هذه الالاعيب وهو ان تسيء الى المجتمعات الانسانية، فيمتنع الناس عن دعوتك لمشاركتهم اللعب والمؤامرة . هل سمعت أبداً بـ « جراتس ؟ »

اضطررت الى الاعتراف بجهله .

ـ إنه الفيلسوف الصادق الوحيد الذي عرفه العالم ، كان من أتباع «ديوجين» وفي ذات يوم تخلى عن جميع ممتلكاته وأصبح شحاذا هائمـاً يعيش على النفايات ، لم يغتسل أبداً ، كان جسده يلتصق بالجدران . وفي النهاية ثار على « ديوجـين » لأنه أظهر كراهيته للناس ، أما جراتس فلم يكره النـاس ، اكتفى بأن جلس بعيداً ولم ينضم الى لعبة الإيمان التآمرية . قيل بأن جسده كان مليئاً بالقروح ، وكان « يخرج الريح » من جسده أمام الناس ليرى انفعالات وجوههم . وفي يوم تعلقت بحبه فتاة جميلة وأرادت ان تصبح عشيقته. فأخبرها بأنها يجب ان تعيش مثله ، تتغوط في الشوارع أمام الناس ، وتنبش النفايات كالكلاب غير المتحضرة وما ان شبت ابنته حتى قدمها لتلاميذه . انا اعتبره من أعظم الناس .

لم اقتنع كثيراً بأحاديث الولشي ومع هذا فقد كان مؤثراً فعلاً ، فنصف ما قال ينسجم وتفكيري . وأردت ان انعزل لأفكر فيما قال ، ولأقرر من منـا أخطأ في النصف الآخر من حديثه ، وسألته :

ـ أين يمكنني القراءة عن هذا الفيلسوف ؟

ـ في كتاب ديوجين ليرينس ! وهناك قصة قصيرة عنه في كتاب مارسيل سشوب .

بدأت افكر جدياً فيما قال . وجلس صامتاً .

قلت بعد تفكير :

ـ إن العيش على طريقة فيلسوفك جراتس يجعل الحياة بـلا هدف ، انا أفضل البرجوازي الذي يسعى وراء النقود ، على فيلسوف يعيش على النفـايات كالكلاب . ولماذا يصر الناس على ان يكون لنا هدف نسعى لتحقيقه ؟ إن هذا

لا يمكن تسميته خداعاً ذاتياً .

– أنت على حق الى حد ما ، ولكنك ترتكب الغلطة نفسها التي ارتكبتها منذ دقائق حين سألتني لماذا أكره الناس . انا أريد التغيير الجذري ، فكل شيء يجب أن يتغير .

كزّ على أسنانه حين لفظ كلمة « يتغير » ثم تطلّع حزيناً الى الحمام المتطاير حولنا . ووقف فجأة وقال :

– أنا ذاهب لألقي نظرة على المومياء المصرية . هل تود مرافقتي ؟

أشعرتني النغمة الصوتية التي حمّلها كلماته بأنه يود ان يكون وحيداً ، فاعتذرت وذهبت الى غرفة المطالعة تطاردني وتحوم حولي كلمة « يتغير » . ولم أرَ الفتاة التي كانت بجانبي منذ ساعات ، وأظن انها ذهبت لتناول الغداء ، وقد كدست أمامها مجموعة مجلدات بلزاك بالفرنسية . وما كدت ارى المجلدات حتى جاءتني فجأة المعاني التي شحنها الولشلي بحديثه ، فهذا البناء كله ليس إلا نصباً تذكارياً لما أنجزه الانسان ، وكل هفواته التي مارسها خُزنت في هذا المكان. هنا أستطيع ان أرى زلات الانسان التي اعترضته حتى يشاهد نفسه من جديد . وهذا البناء رمز لناحية خاصة من نواحي الانسانية ، أو انه مقبرة للجنس البشري كله ، بل أخطاء الانسان وكلماته . قد يكون بلزاك مبدعاً عظيماً وقد يكون خالداً لارتكابه هفوة في حق الانسانية. فالناس في قصصه مخلوقات سجينة محصورة داخل إطار محدود ، ولنفرض ان حقيقة الناس لا تمت بصلة الى ما يفرض ؟ ولنفرض انهم خيل رهان ظنوا أنفسهم أبقاراً . أو انهم سحاب توهموا أنفسهم جبالاً ؟ فهل هناك حد لسوء فهم الانسان لطبيعته ؟

شعرت بثورة عارمة في أعصابي تمنعني من متابعة القراءة ، فأخذت الكتب ودفعت بها الى المراقب واضعاً ورقة تخولني حق استرجاعهم في الغد ، وخرجت من قطار النفق في محطة « هولندبارك » وسرت في طريق بورتوبلو لأشتري سريراً كنت قد رأيته عند بائع الأقفال حين جئت ودورين لشراء بعض الحاجيات منذ أيام .

كانت إحدى أرجله مكسورة ويمكنني إصلاحها بوضع خشبة متينة يربطها شريط متين ، وكان رخيصاً : « سبعة شلنات ونصف » . وقد حزمته تحت إبطي عائداً به الى البيت ، ووضعته في غرفة دورين (التي لم تكن موجودة) ثم صعدت السلم لأخبر ريكي بقصتي مع الولشي . وقد طرقت الباب ، ولما لم أسمع إجابة دخلت . وكان أول ما استرعى انتباهي فتاة رقيقة .عارية ، لا يتجاوز عمرها السابعة عشرة مستلقية على السرير ، مسندةً رأسها الجميل الى كفها ، وقد اعتذرت وحاولت ان أغادر الغرفة في الحال ، ولكن ريكي تطلع وراء اللوحة وقال بلهجة صديقة :

– مرحباً هاري ، أدخل .

أغلقت الباب واستمر هو في رسمه . رفع عينيه إليّ وقال :

– هل قابلت ميلاني من قبل ؟

ابتسمت الفتاة وقالت :

– مرحبا .

وكانت لهجتها فرنسية أخاذة .

مطت شفتيها لتقول لريكي :

– يدي تؤلمني ، فهل لي ان استريح ؟

– يمكنك ارتداء ملابسك الآن . فارسم الظلال الخلفية .

قفزتْ ككرة من المطاط لتقف بجانب ريكي ، وحين شاهدت الصورة ، رفّ قلبي وارتعشت ، انني لم أرَ مثل هذا الجسد قط . ويجب ان أعترف بأن تجربتي في الفتيات العاريات ذوات السابعة عشرة ، لم تكن عميقة .

تغير وجهها وهي تسأل :

– هل هذا الخليط من الخطوط هو أنا ؟

قال ريكي :

– انه أعظم منك بكثير يا صغيرتي . انك لست الا وحيدة .

توارت خلف ستارة وبدأت تلبس ثيابها قال ريكي :

– إنها ابنة صاحبة البيت الذي نسكنه جميعاً .
سألته ميلاني :
– هل يسكن معكم هنا ؟
– إنه يسكن في الطابق الأرضي .
وهنا سنحت لي الفرصة لأحدث ريكي عن رؤيتي للرجل الولشي .
– هذا حسن ، إنها غرفتك إذن . ماذا تظن في دانفرز ؟
– إنه شخص لا عادي .
قالت ميلاني :
– لا استطيع تحمله .
قال ريكي :
– يريد ان يكون عفناً .
قالت ميلاني :
– انني سعيدة لأنه ترك هذا المكان فوجوده يشعرني بالمرض .
ثم نظرت اليّ نظرة مميزة عميقة . قالت :
– انك تبدو أنظف منه .
قلت :
– أظن ذلك .
وارتدت ثوباً صوفياً فاتح اللون أضفى عليها روعة اكثر مما كانت عارية ، والتصقت بي وقربت أنفها الصغير من عنقي وشمتني :
– انك لست نتناً .
لم أستطع ان أقاوم الرغبة العنيفة لضمها الى صدري ، ففيها شيء يبعث المودة كقطة صغيرة جميلة . شممت شعرها الأسود العابق برائحة دخان الخشب وقلت :
– أنت لست نتنة ايضاً .
ضحكت بعذوبة وقالت :

- انتما في حاجة الى فنجانين من الشاي .
- من فضلك .
وبلهجتها الفرنسية العذبة قالت :
- حسناً .
ثم خرجت ، وتنفست بصعوبة وقلت :
- انا اموت في هذا النوع ، النوع الذي اود أكله مع صلصة .
- انا اعرف أنها شيء صغير يُعبد ، وهي منجذبة اليك او جُذبت ، فهل تعارض دورين اذا أصبحت بينكما علاقة ؟
- اغلب الظن . ولكن لماذا ؟ اتحتاج الى غواية ، أعني هل تحب الرجال ؟
- انا واثق من هذا ، فكثيراً ما تطلب مني ان اسمح لها بزيارتي ، او طبخ بعض الواجبات ، أو صنع الشاي ، وتحب ان تقف عارية لأرسمها .
- أين تسكن ؟
- تقيم مع أمها في « وستبورن غروف » وهي على مسافة خمس دقائق من هنا ، وأمها - كما قلت لك - تملك هذا البيت .
جلست أتأمل اللوحة التي دفعتني لمخالفة رأي ميلاني ، فلم تكن تبينها عارية وجميلة ولكنها كانت مثل لوحات ريكي ، تستلفت النظر . وفي الوقت نفسه راقبت ريكي خفية وتحققت من أنه عبقري . لم يكن متكلفا او مخادعاً ، كان طيباً ومتواضعاً وصادقاً ، وسيماً ، وآمنت بأنه رجل مؤهل للنجاح في كل ناحية .
قلت :
- هل تعتقد بأن ميلاني جذابة ؟
أطلت ميلاني قبل ان ينطق بالإجابة على سؤالي ثم قالت :
- الحليب في هذا البيت فاسد ، سأذهب لشراء زجاجة اخرى .
قال ريكي :
- شكراً ايتها الحبيبة .

وسمعت وقع أقدامها على السلم ، وحاولت إعادة سؤالي ، فقال ريكي :

– طبعاً أنا أجدها جذابة ، ومن ذلك الأبله الذي لا تجذبه ؟ ولكنها جذابة فقط .

– انها شحيحة الخبرة تبحث عن رجل لتقيم معه علاقة جنسية .

– من الصعب ان أجافيها .

– وكذلك انا . ولكن ما الحكمة في ذلك ؟ انا أعيش في بيت أمها وهي لا تبعد عنا أكثر من دقائق ، ثم انها ستعيش هنا وبذلك لا أستطيع ان أعمل .

والتهب خيالي بصورة جسدها العاري ، وشعرت بأنفاسها الدافئة تعانق عنقي . قلت لريكي :

– لن أستعمل العقل في حالة مثل هذه .

– وأنا لا أستطيع ذلك ، ولكنني اعلم ان الجنس ليس إلا وهماً ، وهو من أروع الأوهام . ولو كان لدي متسع من الوقت ، او كنت كاتباً مثلك لقضيت حياتي أدرسه ، ولكن ما الفائدة ؟ ان أمام رجل مثلي شيئين حقيقيين فقط ، الأول ان أجد فتاة لينة ساذجة لأتزوجها. الثاني أن أنام مع فتيات يحببن الجنس ولسن وجلات من حبه مثل فيرا . اما إذا نمت في مهد ميلاني فهي ستأخذني لأربع وعشرين ساعة ، ولن أجد متسعاً لحياتي الخاصة .

– أظنك لن تحصل على الكثير في هذه الآونة .

– لا . فكثيراً ما أتوقف عن عملي ، وهنا تكمن فائدة ميلاني: انها ُتبعد الناس عني وخاصة النساء .

ولما كان ريكي في فترة مزاجية حلوة ، قررت ان أطرق موضوعاً جديداً طالما حيرني وفكرت فيه . قلت :

– عفواً على سؤالي هذا : ولكن لمَ لا تقيم معرضاً ؟

– انا غير مستعد لهذا .

– انا أرى العكس . فلوحاتك مؤثرة جداً ، وقد صعق « سير ريجنالد بروبتر » عندما جاء هنا ، انا ارى اشياء أخاذة في لوحاتك ، انه الشيء الرائع

الذي لا أستطيع وصفه ، ويمكنك في الوقت ذاته ان تربح مالاً كثيراً .

– انا موافق على ما قلت ، وعندما أحتاج الى نقود فسأبيع بعضاً من لوحاتي ولكن أم ميلاني أعطتني هذه الغرفة مجاناً . شرط ان أكون وكيلها وأجمع لها الإيجار ، وانا أكسب عدة جنيهات من صنع بعض الألعاب الخشبية للمعارض ، فهناك في باريس معرض يشتري ألعابي الخشبية بالجملة، وانا أفضل ان اتعلم الرسم.

أطلت ميلاني من الباب وقالت :

– أيها الرجال الصم . أما سمعتم صفير ابريق الشاي المتواصل ؟

اعتذرنا لها ، وأهملنا الحديث لفترة عن لوحات ريكي ، وإذا تعمقنا فيها فسوف نجد انها تختلف في طريقتها اختلافاً بيناً . فهي تتدرج بين رسم ربما قام به احد تلاميذ موندريان ، الى لوحات تمتاز بدقة فنية رائعة تذكرنا بفان غوخ او فلامنك ، ويبرق الإحساس الحيوي للألوان الذي يؤثر في النفس ، في جميع لوحاته كعامل مشترك . لا شك بأنه رسام رائع ، وقد عرفت ما الذي عناه حين قال بأنه ما زال يتعلم الرسم ، ففي مخيلته آلاف الصور ، والمعضلة التي يعانيها هي إخراج هذه الصور من مخيلته ووضعها على قماش اللوحات . انها حلقة كاملة الاستدارة تبتدىء بريكي لتنتهي على القماش . فما الهدف إذن من وراء إدخال الجمهور ضمن هذه الحلقة ؟

أحضرت ميلاني الصينية ثم اتجهت الى النافذة وأغلقتها .

قال ريكي :

– هل ناداني أحد ؟

أجابت ميلاني بأناة :

– ربما .

حاول ريكي الوصول الى النافذة ولكنها اعترضت طريقه قائلة :

– انك لا تريد رؤية الناس ، أليس كذلك ؟

قال ريكي بقسوة :

– من ناداني ؟ امرأة ؟

صبت ميلاني الشاي بينما حاول ريكي التطلع الى الباب الأمامي وسأل :
– لماذا لا نسمع رنين الجرس ؟
– لأنني قطعت الشريط !
ناولتني الفنجان . وغمزني ريكي وابتسم . وشرحت ميلاني :
– رأيت سيارة أجرة بداخلها امرأة تقف بجانب الباب ، وبسرعة وضعت القفل وقطعت شريط الجرس .
قال ريكي بدهشة :
– سيارة اجرة !! من هذه الغنية التي تستطيع دفع الأجرة للسيارة ؟
وسمعنا وقع أقدام على السلم ، بينما كان ريكي مستغرقاً في حديثه . وبدت ميلاني كقطة صغيرة مغتاظة هزت كتفيها وحملقت في السقف ، وكانت الأقدام تقترب صاعدة السلم .
– قالت ميلاني :
– صديقاتك ملحاحات .
فتح الباب فبرزت فتاة رائعة الجمال كممثلات الدرجة الأولى ، غنية تعرف كيف تنفق ثروتها ؛ انها فتاة غلاف . وأدركت لم قطعت ميلاني شريط الجرس الآن !
ولكن فتاة الغلاف لم تر ميلاني المختفية خلف لوحة . قالت الفتاة القادمة :
– عزيزي ريكي .
وقبّلته ، فأنتفض ريكي – أغلب الظن أنه لاحظ عيني ميلاني الغاضبة – وتعمدت الفتاة اطالة القبلة ، وأمسكت برأسه وجذبته إليها بعنف . ثم تراخت قوتها حين رأت ميلاني . قالت ببرود :
– أوه . مرحباً أيتها العزيزة ، هل عدت للعمل كموديل ؟
كانت كلماتها هذه خبيثة جداً، أُخرجت بطريقة لم ار لها مثيلاً في حياتي، كانت تعني ان ميلاني يمكن تجاهلها كصنف من الخدم .
تقوص ظهر ميلاني وقالت :

– انا لا أعمل كموديل ، انا أحضر لهما الشاي .

– هذا رائع هل يمكنني شرب فنجان منه يا ريكي ؟

وكانت ملاحظتها للمرة الثانية قوية وبديعة مضمنة اياها أن الشاي ملك ريكي وان ميلاني اشبه بخادمة لا عمل لها الا صبّه .

وظهر الحرج على وجه ريكي وارتبك . واخيراً قال :

– اعتقد انه لا مانع لدى ميلاني ان تحضر لك بعضاً منه .

– لا . سأحضره بنفسي فلا داعي لإزعاج ميلاني . بالمناسبة ، يجب ان تحضر شخصاً لاصلاح جرس الباب ايها العزيز ريكي ،فقد حاولت لنصف ساعة . وقد اقفل احدهم الباب في وجهي ولم استطع فتحه ، وصرخت حتى بح صوتي ، ورأيت انه من الافضل لو ذهبت الى الطابق السفلي .

كانت تخلع قفازيها وتنظر إليّ مستغربة ، وقالت :

– ريكي عرّفني عليه .

– سيليا ، هاري الساكن الجديد .

لم تكن تهتم بمن اكون ، ومن انا . ودهشت حين صافحتني بحرارة وقالت :

– اي الغرف تسكن ؟

– الغرفة الواقعة على يمين الباب الخارجي .

– هذا مفيد لي ، فبإمكاني ان ادق على نافذتك في المرات القادمة إن كان الباب مغلقاً ؛ هل يمكنني هذا ؟

قلت وقد سرني أطراؤها الودي :

– بكل سرور .

لم يعد في استطاعة ميلاني ان تصبر فقالت :

– إذا أردت ان تعرفي من أغلق الباب في وجهك . فسأقول « أنا » لأن ريكي يحاول أن يعمل دون إزعاج ، وقد سئم أولئك الذين يحولون بينه وبين عمله .

أجابت سيليا :

– مسكين ريكي . من الصعب ان تجمع بين الرسم ومراقبة البيت في آن واحد ، ولم لا تأتي وتعيش معنا في الطابق العلوي من بيتنا . فنوافذه كبيرة ومضيئة ، ولن يقترب منك أحد هناك .

ردت ميلاني بخبث :

– ما عدا شيء واحد !

– لا أبداً . فأنا حارسة قديرة ، اليس كذلك يا ريكي ؟

ذهبت لأجد فنجان شاي لضيفتنا . فرؤية ميلاني الغاضبة جعلتني عصبي المزاج ، ، وخفت على معطف سيليا الغالي الثمن المصنوع من فراء « المينك » من الضربة التي ستغرقه بالألوان المبتلة ، وما ان أصبحت خارج الغرفة حتى لحقت بي ميلاني كعاصفة . دفعتها في المطبخ وهدأت من ثورتها ، وأغرورقت الدموع في عينيها فما كان مني إلا ان نطقت بأول فكرة طرأت على ذهني :

– لا تغضبي ، سأتخلص منها .

فجأة زارها الأمل فقالت :

– كيف ؟

– سأجلس في غرفة ريكي وأرفض ان أغادرها .

– هذا ليس بمجد ، فقد قال ريكي إنه يفضل ان يُترك وحيداً ، ومع هذا فهو يسمح لصديقاته بالدخول ، لقد مللت مساعدته ، وهو يريدها أن تبقى .

– انا واثق بأنه لا يريدها أن تبقى . فقد حدثني منذ لحظات عن إعجابه وتقديره لجهودك في إبعاد الناس عنه .

ابتسمت بفرح حلو وقالت :

– أحقاً قال ذلك ؟

– من هي سيليا على كل حال ؟

هزت كتفيها قائلة :

– كانت تعمل عند ريكي كموديل وكخليلة . ثم وجدت مليونيراً وتزوجته . وهي تدعي بأنها تريد مساعدة ريكي على بيع لوحاته ، ولكنني أعرف ماذا

تريد منه .

وعادها الحزن واستقر في وجهها :

– هي تحاول أخذه للعيش معها .

– لن يفعل هذا . فقد قال لي إنه لا يحب مغادرة هذا البيت ... ومغادرتك أيضاً .

– هل هذا صحيح ؟ هو لا يريد أن يتركني ؟

هززت رأسي ولفرحتي وضعت يدها بحنان حول عنقي وقبلتني .

قالت :

– انت لطيف .

وكنت اعلم بأنها لم تصدقني ، ولكنها تحققت من حناني وعطفي نحوها .

قلت :

– من الأفضل ان أعود الى غرفة ريكي .

– حاول ان تجبرها على مغادرة المكان .

وعدت الى الغرفة لأجد سيليا جالسة على الطاولة تهز ساقيها ، انه ليصعب على الانسان ان يمقتها . فبالرغم من ثيابها وملامحها التي توحي بأنها تحصل على ما تريد ، فهي ذات خلق جريء يحببها إلى الناس .

قالت :

– قد عاد الرقيب ها ، ها .. أحكم إغلاق الباب . هل قالت لك بان تطردني ؟

ضحكتُ وتشاغلتُ بصب الشاي .

قال ريكي بحب :

– أين ميلاني ؟

أجابت سيليا :

– تصغي وراء الباب .

قلت بجدة :

– إنها في المطبخ .
كدت ان اضع السكر في فنجان الشاي ولكن نعومتـه استوقفتني ثم ذقته لأكتشف انه ملح . فقد بدلته ميلاني بخبث شيطاني لعين .
وضعته على الطاولة مع غيره من الحاجيات . كانت سيليا تقول :
– لا أعرف لماذا تعتني بهـــذه الطفلة وتدللها ، كم عمرها . أربعة عشر ؟
– ستة عشر !
– إذن لا يمكنهم إتهامك بالاعتداء عليها .
– أنت تعرفين حق المعرفة أنها ما زالت عذراء .
– حقاً . لا شك انها تمقت كل دقيقة من هـــذه المرحلة ، الا يمكنك أن تريحها منها؟
قال باناة :
– أنت لم تأتي لتتحدثي عن ميلاني .
– لا يا عزيزي . انا قادمة لاغرائك .
لم استطع الحكم على صراحتها أو طبيعتها الجريئة .
قال ريكي :
– لا يمكنك هذا فانا عفيف ، أهتم ببتهوفن وبالطهارة .
– لن يدوم ذلك طويلاً .
كشفت عن مقدار اكبر من لحمها ، ثم تقدمت نحو ريكي ولفت نفسها حوله كالعليق وأكلت شفتيه بشراهة جنسية مخيفة .
أسرعت الى الباب وأحكمت وضع القفل خوفاً من ميلاني التي سيقتلها هـذا المشهد العنيف ، وأصابتني دهشة فلم يتجـــاوب ريكي معها ، اكتفى بالوقوف فقط والسماح لها بمتعة تقبيله ، أما هي فقد متعت نفسها وذلـــك بضغطها على فخذيه ، وعادت لتجلس على الطاولة ثم قالت برصانة :
– انك جائع جنسياً .
أجاب ريكي وهو يتناول فرشاة الرسم :

– إن رد فعلي طبيعي .

بدا صوته متهدجاً ومضمناً بالجنس ، وخيل لي بأني لو تركته وحيداً معها لتحققت ظنون ميلاني .

عبست سيليا في وجهي وهي تقول :

هل نضايق هاري بعملنا هذا ؟

– أبداً ، كنت أتمنى لو قلت رأيك فيّ . هل انا جائع جنسياً أيضاً ؟

– لا تتعجل . سأزورك في غرفتك يوماً .

حاول أحدهم ان يفتح الباب ولم يفلح . ثم بدأ يصرخ على الباب بشدة .

صرخ ريكي :

– من بالباب ؟

انا أريك .

ونهضت لأفتح الباب ، ودخل أريك بريمورز الذي تُسرّ سيليا لرؤيته ، قال :

– مرحباً أيتها العزيزة . أتزورين الأحياء القذرة العفنة ثانية ؟

أجابت :

– مرحباً بوجه الفطيرة ! الا زلت ترش عطر الياسمين على نفسك ؟

قال اريك :

– لا إنها رائحة سجايري الروسية .

واخرج من جيب سترته الرمادية العلوي عدة سجاير سوداء طويلة وانتفخ وهو يقول :

– إنها هدية من الملك فاروق .

سأله ريكي :

– كيف دخلت ؟ ألم تجد الباب مغلقاً ؟

– لا . فقد كنت مع فيرا في غرفتها لساعات عديدة ، ومنذ لحظات قالت ميلاني بأنك حضرت بعض الشاي ففكرت في الانضمام اليكم !

علمت الآن ان ميلاني لن تتقهقر امام سيليا وما زالت تطبق طرقها الساذجة لمنع فتاة الغلاف من التغلب عليها .

القى إريك احدى يديه على كتف ريكي وقال مخاطباً سيليا :

– لا تخافي أيتها العزيزة ، فلن أغريه لأن إعجابي به إعجاب ثقافي خالص اليس كذلك ايها المعلم ؟

اجاب ريكي متضايقاً :

– ارجو ذلك !

وتبين لي كما قرأت على وجه الرسام بان عقله في امور اخرى . وقد تضايق اريك واجاب بحدة :

– تبدو متضايقاً اليوم أيها المعلم . هل انت بخير ؟

اجاب ريكي وهو يحلق في قطعة القماش :

– نعم انا بخير .

وكمن لسع قال بغضب :

– علي ان اعمل فأنا لا اعمل بما فيه الكفاية .

كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يتبعها ريكي للتلميح بأنه يود الانفراد ، ورغبت في الانتقال الى غرفتي الجديدة . عليّ ان اجعل الجميع يغادرون الغرفة وترك المعلم ليتم لوحته . وقال اريك بخبث :

– لا شك بأنك تعب من مطاردة النساء الجائعات جنسياً . أنا اعترف بأنه عمل مضنٍ .

قالت سيليا :

– عليكَ ان تعرف هذا وتضعه في عقلك .

فرد عليها بسرعة :

– انا لست جائعاً جنسياً يا عزيزتي .

قال ريكي :

– ابنائي الأعزاء . هل يمكن اقناعكم بالذهاب والعراك في غرفة فيرا ؟ انا

احبكم جميعاً ، ولكن عملي في انتظاري .

قال اريك :

– آسف ايها المعلم ، تعالي معنا يا سيليا واشربي الشاي معنـــا في الطابق الأرضي .

لقد نجحت خطة ميلاني التي ارسلت اريك لهـــذا الغرض واشتعلت سيليا غضباً . قالت لريكي :

– اود ان اسألك سؤالاً .

– تفضلي وسلي يا قطتي .

واخذ الفرشاة ثانية . ثم تابع قائلاً :

– هل سؤالك سرّي للغاية ؟

هزت كتفيها قائلة :

– لا . فأنا أعرف فتاة رائعة الجمال وترغب في ان تعمل كموديل عندك .

– شكراً . فأنا لا أحتاج الى فتـــاة . عندي نارندرا ، وانا لا أملك نقوداً أيضاً .

– لن تدفع شيئاً . فالفتاة ستأخذ العمل كهواية .

– لا أريد ان أرسم أجساماً نسائية بعد اليوم .

– ولكنك ترسم ميلاني !

– أعرف ذلك وهي ستقلب الدنيا لو رسمت فتاة أخرى .

– ان هذا سبب معقول جداً للحصول على اخرى .

سأل اريك مستغرباً :

– وما سبب هذا التبرع وهذه الانسانية ؟ هل هي قبيحة بأسنان كبيرة وساقين معوجتين ؟

ورعدت سيليا :

– اخرس انت ، فهي رائعة وجميلة جداً .

قال اريك :

– يا رب !

سألها ريكي :

– على كل حال ، من هي ؟

– سكرتيرة أخت زوجي . فتاة لطيفة اسمها بربارة ، وستعجب بها ، فهي من الفتيات ذوات العيون الواسعة ؛ عذراء كعذراء رفائيل .

– لا احب العذارى اللواتي تجاوزن سن المراهقة ، فهن يائسات عاطفياً .

– هذا صحيح ، ولكن إذا بقيت في بيتنا فلن تصبح يائسة .

قال إريك :

– يا إلهي . هل أخت زوجك من هذا النوع ؟ هل هي سحاق ... ية ؟

– ليست هي كذلك ايها الغبي الأبله .

قال ريكي :

هل هو زوجك ؟ ظننت بأنه رُوّض .

– وكذلك انا ، ولكنه يخدع بمنظره البريء وأحياناً تقعد بلا عمل لساعات طويلة ، لذا أغلق الباب قبل ان يفلت الحصان !

– وماذا تريدني ان أفعل ؟

– يمكنك ان تفعل ما شئت معها ، وكلما تضخم عملك كان ذلك مفيداً لها.

قال ريكي والإنزعاج يعلو وجهه :

– لا ارغب في غواية احد فأنا جد مشغول .

– لن تفعلها انت ، دعها فقط تخالط مجموعـــة المجانين « المستهترين » الذين يعيشون في الطابق الأرضي . ألعب بها كما تريد وهي تحمل افكاراً خيالية شاذة عن الفن والفنانين .

– اوافق . وسأعمل اي شيء مرة واحدة فقط .

قبّلته سيليا ، وربتت على خده ثم قالت :

– هذا حبيبي . انا أعرف بأنك لن تنبذني .

قلت وانا أتراجع نحو الباب :

– آمل ان تسمح لها ميلاني بدخول البيت !

سألتني سيليا :

– مع أي الفريقين انت ؟

– انا مع الجميع .

أدركت صعوبة حيـاة ريكي ، واتخذت قراراً حاسماً بأنني لو اصبحت شهيراً يوماً ما فسأعيش في جزيرة مهجورة . عملت لمدة نصف ساعة في تنظيف غرفتي الصغيرة وجمع الفضلات التي كان يملكها الرجـل الولشي، ثم وضعتها في زاوية خلف المرحاض. وثبتُّ سريري واضعاً الأغطية عليه ، ولدهشتي وجدت انبوب غاز في زاوية الغرفة الصغيرة قمت بوصله بموقـد غازي صغير ، وشحنتني حرارة دافئة سريعة . ولكن جو المكان تغير !

هرولت الى الطابق الأرضي لأجـد دورين جالسة بعيدة وحيدة كعادتها وحين اخبرتها بقصة غرفتي نظرت إليّ بغباء مزعج . وأخيراً قالت :

– أين ؟

– فوق . بجانب غرفة ريكي .

– وما عيب هذه الغرفة ؟

– لا عيب فيها ، انها غرفتك انت ، وقد تودين ان تكون لك دون رؤيتي بجانبك طيلة الوقت .

ولدهشتي اللامتوقعة ، جلست على السرير وراحت في نوبـة بكاء صامت ، وبحنان وضعت يدي حول خصرها وأوضحت أنني لم افكر في تركها وحيدة ، وعلمت ان يومها هذا كان مشؤوماً ، فقد اختلطت عليها الأمور . تأخرت عـن موعد الباص ، وفقدت بعض ملابسها ، ونسيت ان تأخذ بقية نقودها من الباعة وكادت سيارة أجرة مسرعة ان تصطدم بها . وجاءتها اخبـار غرفتي الجديدة من بين شفتي أنا .

احتجت لوقت طويل لاقناعها بأن أخذي غرفة أخرى لن يؤثر على علاقتنا او لأهرب من رؤية وجهها . وأعتقد بأنها صدقت كلماتي ، وتغير جو المكان

وشعرت بأن يداً أخذتني وأنقذتني من هول عاصفة مطيرة ، ليضعني دون توقف في هواء نقي .

وأصبحت رفيقة حنونة حساسة ، تخدمني كأم وزوجة . وقد طبخت لي وجبة طعام جيدة ثم أطفأنا النور واستلقينا متلاصقين على السرير النظيف ، ولم تكد تمر دقائق خمس حتى نامت بهدوء لطيف كطفل صغير ، وانعكس ضوء المدفأة الكهربائية على وجهها فبدا صافياً رائعاً كلوحة فنية . وراقبت تنفسها الهادىء مطوقاً خصرها بذراعي ، وجاءت وجوه ريكي وميلاني وسيليا والرجل الولشي الي عقلي . لند غادرت بلدتي منذ أربعة عشر يوماً متوجهاً نحو لندن لأبحث عن الحرية وعن المعرفة ، يومها ازدحم رأسي بآراء كثيرة عن معنى الحرية ، أترى هذه الآراء وهذا السعي وراء الحرية ينتهي بي في فراش امرأة ؟

الفصل الثاني

أيقظتني طرقات خفيفة على زجاج النافذة – فنافذتنا يمكن الوصول إليها بواسطة درجة الباب الخارجي – فنهضت ودوار مؤلم في رأسي ، لأصغي ولأحملق في الساعة . لقد نمنا ساعات ثلاثاً . وقالت دورين وهي مغمضة العينين :

– من هذا ؟

أجبت : – شخص ما يقرع الباب ، النافذة لا ادري !

ارتفع صوت جيمس قائلاً :

– هل هناك مستيقظ ؟

مسدت شعري بأصابعي وقمت لأفتح له الباب . قال :

– آسف ، هل أيقظتك ؟

رأيت فتاة تتوارى خلفه وكانا يحملان زجاجات نبيذ معهما .

قلت :

– انتظر دقيقة يا جيمس ، فدورين ما زالت نائمة .

سألت دورين :

– من هو ؟

كانت تجلس على طرف السرير تصلح من شأن تنورتهاوقد بان عليها أثر تخدير النوم . وقالت دورين :

– لا تدعهما يدخلان الآن .

شعرت بالارتباك الشديد . وكان في قدمي اليمنى فردة واحدة من جوربي ؛ وكانت قدمي اليسرى عارية ، وتراجعت الى الوراء مفسحاً الطريق لجيمس حتى يدخل مع صديقته .

قال موجهاً حديثه لدورين :

– لا تخافي يا عزيزتي . إن احدى مضار العيش بعينين تحملان في داخلهما أشعة بنفسجية هي أن الانسان يكف عن ملاحظة الفتيات العاريات . اننا نحمل معنا هدايا من زجاجات النبيذ . دعيني اقدم لك جوان .

لم تكن صديقته تمتاز بجمال أخاذ . كانت عادية جداً . ولكنها حين خلعت معطفها برزت تقاطيع جسدها المكتنز بجمال بكر . ورحبنا بها ، وأوضح جيمس وهو يغمزني :

– جوان هي التي أحضرت الخمرة .

قالت دورين :

– ظننت انك في لوتن .

– أنا هارب من التمرينات ، وقد وعدت جوان بأن أريها مجتمع الرائعين والبائسين في معرضنا الحيواني الجنسي . آمل أن أوفق في عملي :

اعتذرت لأترك الغرفة . وخرجت إلى الطابق العلوي . وما كدت أخرج من المرحاض حتى قابلني وجه جيمس الباسم دوماً . غمزني ، وسحبني من يدي الى غرفة الحمام . قال :

– آسف يا هاري أن أفسد عليكما نومكما الهادىء . لنبدأ بأهم الاشياء أولاً . أتظن ان بإمكاني أن انام هذه الليلة مع جوان في احدى زوايا غرفتك ؟

– بإمكاني أن اقدم لك غرفة خالية في الطابق العلوي بسرير واحد .

– رائع ، ولا تهتم بالأسرة ، فأنا لن انام هذه الليلة . ما رأيك في جوان ؟

إنها أقرب الى الوحش ، أليس كذلك ؟

قلت بحذر :

– هي جذابة . ولكنها تختلف عن الطراز الذي تفضل .

– طبعاً هي من طرازي . والدها يملك نصف لوتن ويمنحها خمسين جنيهاً شهرياً لمصروف جيبها . ولم اتخذ قراراً حتى الآن بشأن زواجها ومنحها شرف اعالة فنان كبير مثلي !

– ماذا تشتغل ؟

– تعمل كسكرتيرة في بعض الأوقات . ولكنها تفكر بالرسم وتعتقد بأن في استطاعتها أن تصبح فنانة ولهذا قدمتها الى ريكي وهي ترغب في أن تعيش مثل البوهيميين .

ورأينا فيرا تحمل بين يديها عدة زجاجات من الجعة . وعندما رأتنا قالت بحب :

– مرحباً بكما ، هل تودان المشاركة في حفلة الشرب ؟

أجاب جيمس :

– يمكنني أن أشارك في عدة زجاجات أحضرتها معي .

– كم عددها ؟

– أربع . أضيفي إلى ذلك انني أملك مصدر الامداد بشخص فتاة جاءت معي . ويمكننا الحصول على المزيد ، لأنها تريد رؤية الطريقة التي يحياها الفنانون وكيف يمارسون الحب .

– حسناً ، احضرها . وسأعمم نشرة على الجميع لتعامل بعناية خاصة . هل أكلت ؟

– قليلا من الكافيار . فهذا الصنف يجد متسعاً في معدتي !

عدنا الى الطابق الارضي لنجد دورين تناضل بكل قوتها لفتح زجاجة النبيذ بمفتاح مكسور . وقال جيمس :

– لا تهتمي بهذا ايتها العزيزة ، فسوف ننظر في القضية بالطابق العلوي .

ثم التفت الى فتاته :

– لقد وجهت إلينا الدعوة لتناول العشاء هناك .

– رائع ، فأنا كالطير المفترس .

– أأنت قادم يا هاري ؟

– سنلحق بكما بعد لحظات .

عدنا الى سريرنا عندما غادرنا جيمس ورفيقته. ولم نشعر برغبة في مشاركتهم في صخب حفلتهم ، كنا بحاجة الى النوم . وتكاثرت أقدام المزيد من الناس . ونهضت . فمشطت شعري ، ونظفت بنطالي من الريش المتسرب من اللحاف المثقوب ، وتجملت دورين واضعة طبقة خفيفة من احمر الشفاه ، ثم غيرت تنورتها ولبست بنطالاً نسائياً ، وبصعوبة وصلنا الطابق العلوي ، فقد كنا في حالة نوم متعبة .

الوجوه نفسها . ممن تعودنا رؤيتها . تيلي وروني يقشران حبات البطاطا على صفحة من جريدة قديمة كانت بالقرب من أرجلهما ، وعلى الموقد قدر كبيرة كالتي تستعملها ساحرات الأساطير لتخمير السموم . ولكنها لم تكن ضخمة ، الرائحة أثارت الشهية عابقة بالبصل والصلصة ، واندفعت فيرا من المطبخ وفي يدها علبة كبيرة فارغة . وقالت : سمك . وأطلت النظر والتفكير في محتويات القدر السحرية ثم حملت قطعة خشبية كبيرة وبدأت تحرك ما في القدر . وفي تلك اللحظة داهم المكان هوفمان مرتدياً سترة من الجلد الجميل بياقة صوف أخذت من خروف كبير . وكان تعباً . وبيده حاجيات كثيرة وضعها في كيس من الورق . وقد سألته فيرا :

– ماذا أحضرت معك ؟

وبدأ التعب يخرج محتويات الكيس واحدة واحدة معلناً :

– تفاح ، زيتون ، جبنة ، عصير ليمون ، سجق فيه ثوم .

قالت فيرا :

– ستكون الوجبة شهية بهذه الأصناف .

وبدأت تفك الحزم الصغيرة وتفرغها بطيش محبب في القدر ، ومن ثم جاء دور التفاح فألقت ما في الكيس دفعة واحدة ، وانتشرت رشات الشوربة في كل مكان من الغرفة ، وزعق هوفمان :

– لا تضعي مسحوق الجبنة الفرنسية في القدر يا فيرا .

فرفعت صوتها بهذه العبارة :.

– أخرس . أنا من يطبخ هذه الليلة .

خضت العلبة ، ثم نزعت الشريط المربوط . وقذفتها في القدر ، وفاحت رائحة شهية جداً . وراحت تحرك المجموعة العجيبة الغريبة ، ثم ذاقت الحساء بملعقة كبيرة . وقالت :

– تحتاج الى مزيد من النكهة .

وفتحت علبة الليمون وأفرغت نصفها في القدر . وسررت لأنني لم أقبل دعوة الطعام . وقد شربنا عدة أقداح دورين وانا ، وخلسة شربت خمرة دورين لأبعدها عن حالة السكر . وقد همست في اذني :

– سأحاول الانسحاب عندما أستطيع .

وافقت. فالساعات الثلاث التي نمنا خلالها كانت أسوأ إعداد لمثل هذه الحفلة.

ما كادت الفقاقيع تنتشر من مستنقع المأكولات حتى هبت علينا امرأة متوسطة العمر اسمها « بلادونا » وصرخت في فيرا عند رؤيتها القدر :

– أين وجدتِ هذه ؟ انها لي .

أجابت فيرا :

– لم أعرف انها لك . لقد وجدتها في الحمام ، ومن المفروض انك تستعملينها للطبخ .

قالت بلادونا :

– اشتريتها لغرض آخر .

وعرفنا انها اشترتها لتستعملها كوعاء مرحاض، فقد كسر مرحاضها بالأمس. وذهبت لتشتري هذه القدر من شارع بورتوبلو . وعند هذا الحد امتعضت

لوجوه وجف ريقها ، وظهرت علامات المرض الجسدي على الجميع وخاصة على صديقة جيمس « جوان » ، وهذا مما خفف حدة غضب بلادونا واعترفت بأنها اشترته في الصباح ولم تستعمله بعد ، ثم أضافت فيرا بأنها عندما وجدته كان مليئاً بالغبار ولم يستعمل من قبل الا كوعاء للفحم .

وتلاشت علامات المرض الجسدي من على الوجوه ، وبعد دقائق كانوا يمررون أوعية الطعام على بعضهم بعضاً ، بينما كانت فيرا تغرف هذا الخليط الوهلي بآنية صغيرة لتوزع على الجميع . وعندما جاء دور جوان قبلت قليلاً من الطعام بأدب أنيس ، وراقبتها وهي تبعده في آخر الطبق . ثم التفتت لتجد الجميع ساهين لاهين عنها . وبخفة تخلصت من طعامها بوضعه تحت سرير بلادونا . وتقدمت دورين نحوها وانغمستا في حديث طويل لا أعرف موضوعه وكأنهما من طراز واحد ، وقد أعجبني هذا . اما جيمس فكان يلقي نظراته القلقة عليها بين لحظة واخرى . رغبت صديقته في رؤية المجموعة الفنية ورغبت في معرفة الطريقة التي يعيشونها . ووجدت سعادتها في دورين التي تشبهها في كل شيء . وانا اعتقد بأن حديثها مع دورين كان خدمة كبيرة لجيمس وإلا فإنها ستترك المكان في اي وقت وتتجزأ احلام جيمس في ثروتها الكبيرة . وتطلعت إليها بشفقة ، فأنا اعرف امثالها من الأنيقات الجميلات الأجساد الفارغات من الحيوية والنضارة ولا يثرن في الانسان إلا حب النظر مرة ثانية الى وجوههن . وما يناسبهن في هذه الحياة ، ان يعملن كمعلمات في رياض الأطفال.

وتساءلت ، هل تعرف مقدماً ما الذي سيحدث لها هذه الليلة حين وافقت على النوم هنا مع جيمس ؟ هي تعرف لمَ جاءت هنا . فقد اخبرني جيمس بأنها ليست عذراء . وفي هذه اللحظة سردت بلادونا على الجميع قصتها عن عملية الاجهاض الأولى التي جرت لها بينما كانوا يتناولون الطعام ، ويجب ان أعترف بأنها محدثة ظريفة ومحبوبة .

شعرت وانا هناك أسمع همسات دورين وجوان ، وصرت بلادونا ، بأنني لست من هذه المجموعة ولا أنتمي الى هذين العالمين ، عالم دورين وجوان ، أو

عـــالم بلادونا وفيرا وبقية المجموعة . لم أشعر بعطف نحو الآخرين المنتشرين في الغرفة يعشقون كل شيء يناقض طريقة الحياة التي تعيشها المجموعـة الانسانية . وهم مضجرون ، ضعفاء لا يعرفون كيف يعيشون . وفجأة تذكرت ريكي وسط الجمع الكئيب الأبله . وشعرت بإرتياح ، فالفلسفة البوهيمية بلا أشخاص عظام مثل ريكي ليست إلا لاشيئية ، وهي ليست إلا نوعاً من الاختناق الخلقي ، وانا نفسي احاول الهروب من الأشياء التي تهيجها .

همست لدورين بأنني سأذهب الى غرفتنا ثم انسللت خارجاً من باب يقود الى قرص الدرج يستعمل لتجنب العيون المتلصصة حين تدخين الحشيش . وعندمـا وصلت القاعة الكبيرة سمعت طرقاً متواصلاً على الباب الخارجي . وكان أوزولد بليشتاين واقفاً في عينيه نظرات ثملة تعتريـــه حين يسكر وتلقف جبيني بقبلة ثم قال :

– بني العزيز ، انا سعيد برؤياك .

التفت الى الخلف وصرخ في شخص ما عبر الشارع ثم قال :

– تقدموا أيها الأولاد .

– من اصطحبت معك ؟

وعلا صوت اريك .

– تعال لمساعدتنا أيها الخنزير المدلل .

أجاب أوزولد :

– لا أقدر ، فلست واحداً من جمعيتكم .

وتوقفت سيارة أمام بوابة البيت . ثم نزل منها رجلان لتفريغ حمولتها . ووضع أوزولد يده على كتفي وقال :

– اذهب وساعدهما يا بني الحبيب ، فعضلاتك ما زالت شابة وقوية .

ودفعني برقة نحو الدرجات ، فاتجهت إلى السيارة ووجدت رجلين يحاولان حمل صندوق كبير إلى منتصف الطريق . كان الصندوق تابوتاً ثقيلا . واريـك يقفز من قدم الى اخرى باضطراب شديد . وقال :

– على مهلك ، فإنه مليء بالخمرة .

– ساعدتها في الحمل ، فقد كان ثقيل الوزن ، ولم نجد صعوبة في توصيله إلى الباب الخارجي . ولكن كيف ندخله البيت ودرجات السلم بالمرصاد ؟ أمسكت وإريك بطرف الصندوق وقبض الرجلان القويان على الطرف الآخر . ولم ينطقا إلا بتعليمات مختصرة آمرة ، قال أحدهما للآخر :

– مرّر البكره .

اقترحت بأن نحتفظ به في غرفتي ، ولكن أوزولد صرخ بأعلى صوته :

– علينا أن نأخذه الى غرفة ريكي .

وفي هذه اللحظات أطل هوفمان وسأل عن مصدر الصراخ ، وفرح ثم زعق لينادي رجالاً آخرين للمساعدة . الدرج ضيق ولم يتسع لأحد . وأخيراً استطعنا حمله إلى قرص الدرج الأول . كان احمر اللون بلا زوايا ولم يزين بالقطع النحاسية البراقة التي توضع على التوابيت عادة . وكانت قبضاته من الخشب العادي . وقد ذكرني بقصة « فلوبير » الذي تمنى لو يدفن في تابوت مثل هذا .

كانت درجات السلم التي تقود إلى غرفة المعلم أضيق من سابقتها وأكثر تقوساً ، وقد صعدت الدرجات وطرقت الباب ، فأجابني صوت فتاة أعرفها ، وجدت ميلاني جالسة على السرير تصبغ اصابع قدميها . اما ريكي فقد انغمس في الرسم .

قلت :

– من الأفضل يا ميلاني ان ترتدي ثيابك ، فقد تقدمت جيوش الغزاة .

كانت ميلاني بملابسها الداخلية الشفافة .

قال ريكي :

– هل هم قادمون إلى غرفتي ؟

وقبل أن يسمع الجواب دخل اوزولد وانقضّ على ميلاني قبل ان تختفي وراء الستارة وحملها بين يديه وقال :

– طفلة شهية رائعة . حلمت طوال حياتي بمثل هذه اللحظة .

ولكنها قبضت بشدة على شعره وبدأت تشده بعنف ، فتركها لتنطلق وتختفي في زاوية من زوايا الغرفة .

قال ريكي :

– ماذا تريد بحق الشيطان ؟

– جئت إليك بهدية أيها المعلم .

وقذف بالاشياء الموضوعة على الطاولة . وقال للرجلين حين دخلا :

– في هذا المكان !

وألقى الرجلان بالتابوت على الطاولة القوية التي تستطيع حمل آلة بخارية ، ثم جلسا بعيداً وأخرج كل منهما منديله القذر وأخذ يمسح عرقه .

قال إريك :

– آسف لما حدث أيها المعلم . لم أستطع منعه فقد رأى هذا الشيء اللعين في « سانت بانكرس » فدخل واشتراه .

قال اوزولد بطرب :

– كان للاسكندر العظيم عبد يهمس في اذنه عندما يزهو بغروره . « ايها العظيم تذكر بانك فانٍ » اما انا ففضلت ان تتبعني دوماً عربة حمل الموتى مع الكفن وقد تعب السائق هذه الليلة وأصر ان يأخذها الى البيت حوالي الساعة السابعة ، وكان عليّ ان اقتنع بسيارة « بيد فورد » وهنا اسمح لي ان اقدم اليك هدية منها .

– وماذا سأفعل بها بحق الشيطان ؟

– لماذا لا تنام فيها كشبح الأوبرا ؟ إنها نسيج مخطط .

والتفت إلى الرجلين قائلاً :

– ايها السيدان إنكما لا تقومان بعملكما على خير وجه .

فأجابه واحد منهما بلهجة عامية :

– دعني استرد انفاسي اولاً .

ثم أخرج مفتاحاً واخذ ينزع الغطاء. وازدحم سكان البيت في غرفة ريكي

يطالعون بدهشة زجاجات المشروب المصفوفة بنظام بديع في التابوت ، شامبانيا ، ويسكي ، جن ، بيره ، نبيذ أحمر ، وحتى عصير التفاح . وعلت الأصوات الفرحة ، وبهدوء فتح اوزولد زجاجة من الشامبانيا فانطلق الغطاء محدثاً انفجاراً وشلالاً من الشامبانيا.فأمسك اوزولد بالزجاجة وصرخ كالمجنون:

– كؤوس ، إنها هناك في التابوت .

بحثت بين القش في تابوته الضخم حتى وجدت اوراقاً سمراء وضعت بداخلها الكؤوس باتقان ، ومزقت الورق ووزعت على الجميع ، فرقع صوت آخر ، ولم تمض دقائق قليلة حتى كان الجميع يكرعون الأنواع المختلفة من المشروب ، وصرخ ريكي .

– هل يمكن اقناعكم بالذهاب الى الطابق الأرضي فأنا اود ان اتابع عملي ؟

لم يسمعه أحد واقترب جيمس وهمس في اذني :

– هاري ! إن جوان تعتقد بأن هذا كله مني ، عملته كمفاجأة من أجل زيارتها هنا .

كانت الفتاة في قمة سعادتها . وقد وضع احدهم اسطوانة وبدأت موسيقى صاخبة ، وأطلت ميلاني من وراء الستارة كأروع إمرأة رأيتها في حياتي ، عمرها زاد عشر سنوات ، كانت ترتدي فستاناً ابيض مخططاً بخيوط سوداء .

وقد ركض نحوها أوزولد فجاءت ووقفت بجانبي وهمست بخوف :

– إنه مجنون ، اليس كذلك ؟

وصل أوزولد قبل ان اجيب على كلماتها ، وبشبق مخيف وضع يده حول خصرها وهمس :

– حبيبتي الطفلة ، لماذا لبست ثيابك ؟ انك اكثر روعة بثيابك الداخلية . لأنها تكشف عن مفاتن جميلة تؤرقني .

قبضت ميلاني على يديه والقت بهما بعيداً عنها وصرخت :

– هل لك ان تكف عن هذا العبث ؟

واغلق اوزولد عينيه في نشوة ثملة :

– يا إلهي . إنك شهية جذابة ، قبليني !

وانهمرت الشتائم بلغة فرنسية من فم ميلاني . فردّ اوزولد منتشياً :

– سأهبك خمسة جنيهات إذا قبلتني .

وأخرج محفظته واضعاً ورقة النقود بجانب عينيها . قالت ميلاني وقد اتسعت حدقة عينيها :

– هل انت جاد فيما تقول ؟

ولوّح أوزولد بالنقود فضحكت الفتاة ضحكة مكتومة ثم خطفت النقود من يده وقبلته ، فأطبق عليها بشدة حتى خلت بأن ظهرها سيكسر من عنف ضغط جسده على جسدها ، وبوحشية بدائية اطبقت ميلاني بيدها اليسرى على ورقة النقود ، وافترق اوزولد وارتعش وتهدج صوته وهو يقول :

– لنذهب الى السرير يا حلوتي ، فجسدي يشتعل ناراً .

واغلظت ميلاني بالقول . فاخرج من محفظته مجموعة نقدية ضخمة وقال :

– مائة جنيه ، سأعطيك كل هذه النقود إذا وافقت على ان تأتي معي إلى الغرفة المجاورة .

وصفعته بوحشية مما جعل نقوده تتناثر على أرض الغرفة كأوراق شجرة خريفية ثم القت بجسدها بين يديه ، وحاولا الانسحاب من الغرفة ، وهي ما زالت مطبقة على الجنيهات الخمسة . قال اوزولد متأثراً :

– لقد طعن قلبي ايتها الصغيرة . ولكنني لن اكفّ عن عبادتك .

اقتربت وساعدته على جمع النقود. وجاء ريكي نحونا وخاطب اوزولد قائلا:

– إنه لجميل منك ان تحضر كل هذا المشروب . ولكنني لا أرغب في إقامة الحفلات ، قل لعمالك بأن يأخذوا التابوت الى الطابق الأرضي الفسيح .

فتطلع إليه اوزولد ببلاهة ثم أمسك بذراعه وقال :

– ايها المعلم ، لقد جرح هذا القلب ، ومع هذا فأنا سعيد لسعادتك ، فأنت صاحب عبقرية وكذلك انا ولكنني متقاعس عن إظهارها .

ودخل عامل يحمل جهازاً تلفزيونياً ، ترنح به كالسكران ثم سأل :

– أين سأضع هذا التلفزيون ؟
قال ريكي :
– بحق الشيطان ما هذا ؟
اجاب اوزولد :
– هدية أخرى، وأظن بأننا سنضعه في الزاوية التي وضع فيها «البيك آب».
وقام ليقود العامل الى الزاوية مفسحاً له طريقه بين الاجسام المزدحمة .
قال ريكي :
– هاري ، انني اخاف عليه من الجنون هذه المرة .
ومر أريك بالقرب منا ، فأمسك به ريكي وسأل :
– ماذا جرى لأوزولد ؟ هل فقد عقله ؟
– انا لا ادري، فقد بدأ يشرب منذ منتصف النهار وكان غامضاً في احاديثه معي . وكثيراً ما ردد اسم صديقه عابد الشيطان ... هل قابلته ؟
– روهمر ! نعم جاء البارحة وسمحت له بأخذ بعض اللوحات معه .
وعاد اوزولد ، ووضع يده على كتف ريكي ثم قال له :
– اطلق عليّ اسم يهوذا ، ايها المعلم ، ولا تنس ان المسيح يدين بشهرته إلى يهوذا فلولا خيانته لسيده لما حدث صلب المسيح ، ولولا الصلب لما كان بعث ، ولولا البعث لما كانت الديانة المسيحية ، لم يكن يهـــوذا إلا آلة مسننة في مصير الآله الانسان .
– عم تثرثر !
وجاءت فيرا تحمل صينية المشروب فأخذ اوزولد كأساً منها ثم قال :
– هذا نخب الخيانة . في صحتكم ايها السادة .
ورأى ميلاني قرب الباب فإخترق ليصل إليها .
وهز ريكي كتفيه بلا مبالاة وجرع كأس الشمبانيا وهمس لي :
– ألديك اي مانع إذا ما نزلت إلى غرفتك ؟ فلن استطيـع تحمل هـــذه الضجة .

– ارجوك ، افعل ما تريد . وسننزل بعد دقائق .

– لا بأس . كل ما أريد هو الهرب من حديقة الدببة هذه .

وبانت صورة على التلفزيون الصامت كانت لمطرب مشهور حاملاً « جيتارة » ويتلوى بجسده ويحدق بآلة التصوير كأنما هي مغناطيسية ، واضفى الصمت على الصورة منظراً مزيجاً من الجد والهزل .

وتقدم احد العمال مني وقال :

– هل تعرف اين ذهب صديقك ؟ فنحن نريد ان نذهب ان لم يعد في حاجة إلينا !

وبحثت عنه في الغرفة ، وتوجهت إلى قرص الدرج ، وكان باب الغرفة المجاورة قد فتح بعض الشيء . ودفعته فرأيت اوزولد يرعى تقبيلاً في وجه وعنق ميلاني دون ان تبدي ممانعة ، ولكنها انفصلت عنه وقد اصطبغ وجهها بحمرة فاتحة عندما رأتني .

قلت له :

– إن العاملين يريدان الذهاب .

مد اوزولد يده إلى محفظة نقوده واخرج جنيهين وقال .

– ولدي العزيز، هل لك ان تسدي لي معروفاً وتعطي العاملين هذه النقود.

اخذت النقود وانصرفت ، واغلق الباب مرة ثانية ، فاعطيت النقود للعاملين ، وشدّت عيناي إلى شاشة التلفزيون حين شاهدت وجه السير ريجنالد بروبتر . أسرعت الى مفتاح الصوت لأحركه ، ولكني ما كدت افعل هذا حتى غابت الصورة تماماً ، فعدت الى غرفة أوزولد مرة ثانية صارخاً :

– أوزولد ، تعال وانظر في امر هذا التلفزيون .

وانشق الباب وانطلقت ميلاني نحو الحمام وقد تهدل ثوبها وخصلات شعرها ، ولم تنظر إليّ ، وجرّ أوزولد قدميه وانتصب قرب الباب ، فأخبرته بأن ريجنالد على شاشة التلفزيون ، وهذا سبب تركيب الجهاز في غرفة ريكي .

قال :

– حقاً إن ساعتي متأخرة .

وهرولنا الى الغرفة وسط الحشد المنتظر حدوث المعجزة ، صرخ أوزولد :

– سكوت يا جماعة. صمت من فضلكم ، أين ريكي ؟ ليذهب أحدكم ويحضره.

قفزت الدرجات بسرعـــة أدهشتني . وجدت ريكي مستلقياً على سريري فقلت بلهجة آمرة :

– أسرع الى الطابق العلوي .

وتبعني بصمت دون كلمة ، شاعراً بأن شيئاً مهماً حدث أو سيحدث . وقد خيم الصمت على الغرفة . وكان صوت المذيع التلفزيوني يسأل :

– والآن يا سيد روهمر ، هل توافق على ما قاله سير ريجنالد بخصوص هـذه اللوحات الرائعة ؟

ظهر على الشاشة وجه شاحب تعلوه صفرة مخيفة ، حليق الرأس دون شعرة واحدة ، عيناه ظللتا بدوائر سوداء ذكرتني بالممثل « بوريس كارلوف » ممثـل أدوار الرعب في أفلام فرانكشتين .

وأجاب بلكنة ألمانية :

– لا . فأنا لا أوافق على جميع مـا قاله ، انا لا أرى رسومات السيد برلاتي تكشف عن اتجاه تجريدي . بل على النقيض من هـــذا ، فإنه يبدو لي على صلة بالحركة الشكلية مثل «بن نكلسون » فهذا المنظر الرجعي مثلاً ...

وسلطت عدسة التصوير الى اللوحة التي عرفتها بسرعة ، فقد كانت على رف المدفأة في غرفة ريكي . وبموت صوت روهمر تطلعت الى وجه ريكي فرأيته يغلي بالشر وقال :

– هذا الغبي اللعين !

ومسح الغرفة بنظرات قلقة . كان أوزولد قـد اختفى من المكان ، وقـــد حسبت انه ذهب ليعيد استمرار متعته مع ميلاني . ولكن رؤيـة ميلاني قرب الباب نفت ظني ، وتعجبت . فقد كانت جذابـة رائعة كعهدها أبداً ولم تظهر عليها علامات الصراع الجنسي الذي مرت به منذ قليل .

وتقدم ريكي من إريك الذي قال بسرعة وبخوف :

– انا لا علاقة لي بهذا ، لا أعرف شيئاً عن هذا . وقد أخبرني أوزولد بأنه سيعود حالما تهدأ ثورتك .

وبكلمات جيدة أنهى المذيع المقابلة بقوله :

– أعتقد يا سير ريجنالد بأن المشاهدين يثنون عليك لاكتشافك لرسام عبقري ، ويعجبون بقوتك المدهشة في اكتشاف رسامين موهوبين ، وانه ليؤسفني بأن الرسام نفسه لم يتمكن من الحضور معك الى الاستديو هذه الليلة .

وبغضب انتزع ريكي الشريط التلفزيوني من الحائط ولم يعرف احد ان ريكي يعاني ثورة داخلية مدمرة . وغمغمت فيرا « التهاني الحارة أيها العزيز » وقال ديسموند « لقد كانت دعاية جيدة ، فمن أعدها ؟ » واتجه ريكي نحو الباب فألقت ميلاني بذراعيها حول عنقه وقالت بلهجتها الفرنسية الحلوة : « أصبحت شهيراً يا حبيبي » .

أجاب ريكي بهدوء بعد ان حرر نفسه من قبضتها :

– أهذا ما تسمونه شهرة ؟

ثم غادر الغرفة . وقالت تيلي بصوت مرتفع قاصدة ان يسمعها :

– حسناً ، وما الذي يضايقه ؟

وبدأت الثرثرة في المكان ، وشعرت بأن ريكي يظهر ما لا يضمر . ولكن أليس من المحتمل انه لا يريد الشهرة في الوقت الحاضر !

وناقش الجميع طريقته في الرسم ، وخرجوا بفكرة خرقاء . وهي ان من اختاره كان ثملاً تصرف كمراهق من عهد فكتوريا ، ثم علا صوت ديسموند :

– انه جد محظوظ ، ومهما يكن الذي أعدها ، فقد عادت عليه بشهرة طيبة .

ولم يدافع عن ريكي إلاّ إريك الذي قال :

– كان عليهم ان يخبروه إذا ما أرادوا عرض لوحاته على شاشة التلفزيون ، وله كل الحق في الاعتراض .

قال جيمس : ليتني أحصل على دعاية كهذه !

وُفتحت زجاجة شمبانيا ، واقترح إريك أن نترك الغرفة وننتقل الى الطابق الارضي ، علّ ريكي يود متابعة الرسم . ولقد خف وزن التابوت ، فنقلناه بسهولة الى الغرفة الكبيرة ، ورنّ جرس التليفون في ساحة الدار الداخلية ، فأجبت ، وقد جاءني صوت امرأة يسأل عن ريكي ، فأخبرتها بأنه غادر البيت ولن يعود هذه الليلة . سألتها إن أرادت ان تترك رسالة شفوية له . فردت بأنها ستتصل به غداً ، ولكن إذا قابلته قل له بأن موللي جد معجبة بالبرنامج .

وضعت السماعة ، ورنّ الجرس ثانية . كان صحفياً ثملاً . قال : علمت بأنكم تحتفلون هذه الليلة. وعندكم زجاجات متنوعة من الخمرة صُفت في تابوت سحري.

فأجبته بأن هذا صحيح . قال :

– أتظن بأن السيد برلاتي لا يمانع في حضورنا مع مصور لأخذ بعض الصور؟
فأخبرته بأن ريكي قد خرج . ولم يصدقني اللعين .

– كيفما كانت الظروف فسوف نحضر إن لم يكن لديك اي مانع .

وضعت السماعة وما كدت أصل باب غرفتي حتى جاءني رنين جرس التليفون ، وعرفت في صوت المتكلم سير ريجنالد بروبتر الذي قال :

– هل شاهد ريكي البرنامج ؟

– نعم ، لقد شاهده .

– هل ازعجه ؟

– أعتقد ذلك ، فقد خرج من البيت .

– يا لله . هل تعتقد بأنه عمل سيء ؟

– على العكس ، اعتقد بأنه دعاية عظيمة .

– طبعاً إنها دعاية له ، وأكثر من ذلك فقد فاوضني أمريكي غني جداً على إقامة معرض لريكي في نيويورك ، وإذا عرف كيف يلعب بأوراقه فسيصبح ثرياً .

– سأخبره حالما يعود .

وضعت السماعة واتجهت نحو غرفتي ، وقبل ان أدخل عاد رنين الجرس ، فتجاهلته واغلقت الباب ورائي . واعتراني شك عنيف بأنني سأجد أوزولد في غرفتي ، وقد اجد ريكي ، ولكن الغرفة كانت خالية ، ونزلت أقدام مسرعة من الطابق العلوي وأجاب على التليفون ، وسمعت صوت تيلي ينادي :

– مندوب جريدة الديلي واركر[1] .

أول سؤال سمعته من مندوب الجريدة كان كالآتي :

– أحق أن ريكي لن يقيم معرضاً لرسوماته ، لأنه لا يرضى عن المجتمع الراسمالي ؟.

وانطلق صوت هوفمان ليقول :

– إنني قادم لأتحدث إليهم .

ولما كان الهاتف قريباً من غرفتي ، فلا مفر اذن من الضجيج ، وفكرت في العودة الى غرفتي في الطابق العلوي ، ثم تذكرت جيمس الذي يحتلها الآن مع صديقته جوان ، وسمعت هوفمان يشرح لهم بأن ريكي قد خرج من البيت ولن يعود قبل الغد ، وكان هذا عملاً نبيلاً من هوفمان ليبعد النكد عن ريكي . ومرت لحظات وإذا بباب غرفتي يقرع ويدخل هوفمان ويسأل :

– ممن كانت المخابرات التلفونية السابقة ؟

أخبرته بإيجاز ، فبرقت عيناه إثارة وقال :

– هل أخبرك ريجنالد باسم المليونير الأمريكي الذي سيقيم معرضاً لريكي في نيويورك ؟

وشرحت له بأن ريجنالد لم يقل إنه مليونير ، وإنما ثريّ أمريكي .

ولم يستطع صبراً على تصحيح أقواله :

قال :

– هل أخبرت الصحفي بهذا ؟

– لا ، لأن ريجنالد اتصل هاتفياً بعد مخابرة الصحفي .

---

١ – الديلي واركر ، هي جريدة الحزب الشيوعي البريطاني .

– هذا رائع ، لا تخبر أحد أرجوك . والآن ، هل تعرف أين أجد ريجنالد بروبتر .

فأخبرته بأنني لا أعرف ، واسقط هوفمان اربعة بنسات في صندوق التلفون وأدار رقماً ثم قال :

– هالو . اعطني قسم الأخبار من فضلك ، هالو جاك ، هوفمان يتحدث ، خذ هذه القصة واكتب بسرعة . ريكي برلاتي وجد نفسه هذه الليلة شهيراً عظيماً ، وذلك بعد ان عرضت لوحاته في برنامج تلفزيوني . اكتب هذا : يُعرف برلاتي بين أصدقائه بانه « غريتا جاربو » في عالم الفن ، وذلك بسبب إمتناعه عن عرض أعماله .

وهبط جيمس يطلب بعض المساند وسألته :

– ما هو شعور جوان ؟

– إنها نشوانة ، ثملة من روعة المكان فقد عوضت عما دفعت من نقود ، لقد شربت تنكة من الشامبانيا، وأظن أن الوقت قد حان لأخذها إلى الفراش.

وحين فتح الباب ليخرج جيمس ، سمعت هوفمان يقول :

– هل تستطيع أن ترسل مصوراً إلى هنا ؟ قد نحصل على صورة ، إذا ان « الديلي أكو » أرسلت مصورها .

وأعاد جيمس المساند الى الاريكة وقال :

– بعد تفكير عميق قررت ان أبقى في الطابق العلوي لفترة أطول ، لأن القضية اتخذت طابع الهزل .

أجبته مغتماً :

– يبدو أنني لن أنام .

لا تكن أنانياً يا هاري ، فكّر في حظ ريكي .

– هو لا يؤمن بهذا .

– سيؤمن بهذا ، فالإنسان الذي لا يحب الشهرة لم يوجد بعد.

وقرع جرس الباب وخرج جيمس، كان الطارق مراسلا لصحيفة الديلي أكو

برفقة مصور . وقد صعد الجميع الى الطابق العلوي وماتت الأصوات لدقائق حاولت خلالها ان انام ، وجاءتني طرقات خفيفة على النافذة ، فقفزت بخفة لأرى من الطارق ، ولدهشتي رأيت وجه ريكي الذي قال :

– هل عندك أحد ؟

– أنا وحدي .

– حسناً ، هل لديك مانع إذا جئت الى غرفتك ؟

– لا ، ولكن بعض المراسلين الصحفيين وصلوا منذ لحظات .

دمدم بغضب :

– يا يسوع ، ان هذا يجعلها حقيقة راسخة .

استكشفت الساحة ودرجات السلم ثم دعوته الى الدخول ، وما ان استقر في الغرفة حتى سأل :

– أين ميلاني يا هاري ؟

– لا تزال في الطابق العلوي .

– سأقضي الليلة في بيتها لأنني لا ارغب في مقابلة حشودهم في مثل هذا الوقت .

– ومع هذا فستواجههم في وقت ما !

كان الظلام يخيم على الغرفة إلاّ من شعاع المدفأة الكهربائية ، ثم سمعنا شخصاً قادماً من بعيد ، هزّ الباب فصرخت :

– من هذا ؟

كانت دورين . وفتحت الباب لتدخل ، وقد سألت ريكي :

– ماذا تفعل هنا ؟ كانوا ينتظرونك لأخذ بعض الصور لك .

– أعرف ذلك ، سأذهب ان أردتما النوم .

أقنعناه برغبتنا في الحديث معه ، وترحيبنا به هذه الليلة .

وسألته دورين :

– لمَ لا تراهم وتتخلص من هذه المعضلة ؟

– لأنني سأكون جلفاً فظاً ، انا اقدر ان اقتل ذلك اللعين المسمى أوزولد وكل الخونة الذين شاركوه في إعداد هـذا الشرك الخسيس . ذلك اللعين روهر الذي ادعى بأنه يرغب في استعارة بعض لوحاتي ليزين بهـا جدران شقته ريثما أنهي رسوم شقته الحائطية . انظري ماذا فعل الخنزير ؟

قالت دورين :

– عملوا هذا لمساعدتك .

– إنهم يساعدون أنفسهم بكسب رصيد جديد ، وهو اكتشافي .

كانت التعابير المرتسمة على وجهه تعلن عن قرفه واشمئزازه .

– إذا كانت أعمالك جيدة فسيكتشفونك آجلاً ام عاجلاً ، ولماذا تحـاول تأخير هذا الأمر ؟

– انا غير مستعد لهذا .

وأصرّت دورين على متابعة النقاش :

– وأي فرق في هذا ، إن الناس سيهتمون بعملك كثيراً ، وهذا ما سيدفعك الى التطور .

– اعرف هذا ، ولكن الشهرة ستمنعني من متابعة العمل .

– لماذا ؟

– لماذا ؟ ألا تعرفين شيئاً عن عـالم الفن ؟ هل هم يودرن مساعدتي بهده البساطة ؟ لقد رأيت هـذا يحدث من قبل ، عليك ان تقابلي دافين وجونز الرسامين الولشيين اللذين سكنا هذه الغرفة او دارل سوندرز : هل قابلت دارل ولو لمرة واحدة ؟ لقد اقام معرضاً منذ خمس سنوات وقالت عنه « التايمز » بأنه أعظم رسام انكليري منذ عهد بول ناش . وكان ربحه من معرضه الأول ثلاثة آلاف جنيه ، وعـاش لمدة ستة أشهر تحت اضواء الشهرة والمجد والمقالات التي تمجده ، ثم اتهمه النقاد بأنه لا يستحق كل هـذا ، ونشرت مجلة أميركية مقالاً طويلاً تهاجمه بعنف وحاول إقامـة دعوى على المجلة بتهمة القـذف والتشهير ، وخسر الدعوى كما فشل في معرضه الثاني وبـدأ يشرب . ولم يرسم شيئاً يستحق

الالتفات منذ ثلاث سنوات. وعنده وكالة تخبره بكل مقال يكتب في الصحف.

وسمعنا وقع أقدام تهبط الطابق الأرضي ، فيما كان ريكي يتحدث بانفعال. وقد توقف عن الحديث ، حين طرق باب الغرفة وارتفع صوت جيمس قائلاً :

– هاري .

صرخت :

– انا في الفراش .

– آسف لإزعاجك ايها الصديق . أيمكنني اخذ المساند ؟

فتحت الباب بعض الشيء . وألقيت بالمساند إليه وقلت :

– دع الباب الخارجي مفتوحاً للصحفيين القادمين ، لن اقوم من فراشي لفتحه لهم .

– فهمت ما تعني يا هاري ، ارجو ان لا اكون ... اهم ... قد ازعجتك . تصبح على خير أيها العزيز هاري .

وعدنا الى المناقشة بصوت خفيف . فقالت دورين :

– لا ازال غير قادرة على إدراك حكمك على نفسك بمقارنتك مع الآخرين . فصديقك الرسام دارل يبدو ضعيفاً مهزوزاً لي .

– انا لا احكم على نفسي ، بل على عالم الفن اللعين وعلى النقاد ، لو انني تعلمت ما يجب قوله لما قلقت ولغامرت، وليذهب النقاد الى الجحيم اذا لم يعجبهم ذلك. انني ما زلت أتعلم ما أقول وما ارسم . ولا أحب ان أرى عدداً من الناس ينظرون إليّ من وراء كتفي ليقدموا إليّ نصائح وقحة ويعلموني كيف أرسم .

قلت :

– إنك لست مهتماً إذاً بالمال والشهرة .

– طبعاً انا مهتم ولكن الى حد ما ، ولا أحتاج نقوداً في الوقت الحاضر ، فعندي ما يكفيني للعيش. كل ما أرغب فيه هو استديو وبعض الأقمشة وأوقات فراغ كافية للرسم .

ولما كنت أعلم بأنني كمن يوقد ناراً حامية في النفط ، لم استطع الا اخباره بما

قال هوفمان عنه وتشبيهه بـ « غريتا جاربو » عالم الفن . واقسم بصوت مرتفع بأن علينا تكسير اسنانه في فمه ثم تابع قائلاً :

– أتريان ما اعني ؟ إذا حاولت تفادي الدعاية فأنا كمن يسير على خطي « غريتاجاربو » وبعبارة ثانية ، إن هذا ليس الا نوعاً من الدعاية المضحكة الصامتة . الا تريان لماذا اشعر بالتقيؤ والقرف ؟

قالت دورين :

– الأمر سيان . قد يكون دعاية لاسارة وقد تكون طريقة لتعرف بأنك رسام ناجح .

وقف ريكي ووضع يده بحب على كتف دورين ثم قال :

– أيتها العزيزة . لم أشك لحظة بانني سأصبح شهيراً ، فعندما كنت في السادسة عشرة قابلت رساماً ايرلندياً لا يقول رأيه إلا بعد النظرة الثانية ، وقد اخبرني ساعة رآني لأول مرة « ستصبح شهيراً جداً في يوم من الأيام . » وأذكر بأنني أجبته « نعم انا اعرف هذا » اذ كنت واثقاً من ذلك ولا ازال اعرفه ، وبعد مدة بدأت ادرك ماذا يفعل النجاح السريع بإنسان غير مستعد له ، لذا قررت ان ادفع النجاح عني حتى أقدر على مواجهته ، ولم انجح بعد .

ولم ننبس بكلمة . وقد ارخى ريكي يده ثم فتح الباب . وقبل ان يخرج قال :

– سأذهب إلى بيت ميلاني . لا تخبرا احدا ، سأراكما غداً .

وفجأة تذكرت الحديث التيلفوني الذي جرى بيني وبين ريجنالد بروبتر . ففتحت النافذة ، واخبرت ريكي بقصة الثري الامريكي . قال :

– يا الهي ! انها القشة الأخيرة !

ووقفت سيارة قرب الباب ولكنه تجنبها بعبوره الحديقة وخروجه من البوابة الخلفية للبيت . وأغلقت النافذة واخذت اخلع ثيابي لأنام ، واستولى عليّ شعور غريب قلق لم اعرفه . وكانت دورين تطل من النافذة وتقول :

– مصورون آخرون . (ثم تابعت قائلة) الا تعتقد بأن هذا مثير للغاية ؟

- أعتقد ذلك .

- إنه يجعلك تشعر بالحسد ، اليس كذلك ؟

لم يكن الحسد هو الذي جعلني اصمت كالقبر . وإنما كنت أحاول التعمق في اعماق نفسي لأرى إن كنت املك يقيناً مماثلاً محتوماً للنجاح في المستقبل . وما اكتشفته أقلقني واخافني ، فالنجاح المرتقب لا وجود له ، انه يكمن ابداً في زوايا النفس . ولا سبيل إلى التثبت من وجوده بالأحلام .

الفصل الثالث

لم استطع النوم ، وبصعوبة وافقت على اخذ حبة منوم من حبوب دورين وقد كانت مثل ضربة عنيفة على رأسي قادتني الى النوم بلا احلام حتى الصباح . وايقظني الرنين التليفوني المتواصل . لقد كنت نصف مخدّر ، ونمت ساعة اخرى مع احلام رنين جرس الباب هذه المرة .

وفي العاشرة استيقظت على كره ، لأعود الى عـالم الوجود ، وأرى دورين تقدم لي فنجان الشاي . وقالت كأنها تلقي خبراً :

– جاء ريكي ويريدك ان تساعده في عمل ما . سير ريجنالدسيأتي لرؤيته ، ولكنه لا يرغب في مقابلته .

وتدفق نور الصباح الى غرفتنا التي بدت مختلفة عما كانت . كان الغبار يتراكم فيها ، وكانت جدرانها تحتاج الى طلاء جديد ، وقد حملت لي الأصوات النشيطة الآتية عبر النافذة من الشوارع القريبة اشياء مفرحة . ان الحانة ، ودكان البقال وسوق بورتوبلو ، تشعرك في يوم كئيب ممطر بأنك ستقع في مصيدة من القرميد والحجـارة الطينية . وتشعرك في يوم كهذا مشرق بأنك في معترك الحيـاة واستمراريتها التي لا يعرفها سكان الضواحي الآمنة . فالأولاد الصغار يلعبون في الخارج ويتسلقون الشجرة العجوز المطلة على غرفتنا ، وعمال الطرق يأكلون بشهية وجبات ضئيلة في المطعم العمالي القريب ، والحق ان هـذا المكان لا يعرف معنى للطهارة ، ففي الحديقة الخُلفية أكوام من ادوات منع الحمل . تتضخم كل ليلة . وفي كل مكان عصابات مراهقـة من الشبان الأقوياء من سكان المنطقـة . او من المهاجرين الزنوج ، يحملون في جيوبهم الخلفية امواساً حـادة يستعملونها بسرعة خاطفة ، وتقول الاحصائيات ان الميـل المربع المحيط ببيتنا ذو نسبة مرتفعة في ارتكاب الجرائم التي اكتشفت والتي لم تكتشف بعد ، ففي شتاء عام

١٩٥٥ اجتاح منطقة « ناتنغ هِـــل » رعب مخيف من هذين الاسمين « هيث » و « كريستي » .

إن منطقتنا بمجموعها كتلك المناطق التي يحلو للكتّاب المحدثين ان يلونوها بجو مخيف ، من الشر المتأصل الكامن في عيون الناس فيها . قــد يكون هــذا حقيقة . ولكن المكان لا يؤمن بالخلق ويكاد يخرج عن نطاق الانسانية ، بيــد انه ليس بالشرير .

أسندت ظهري الى الحائط مراقباً الغبار المتطاير تحت اشعة الشمس. وعندما انهيت شرب الشاي قلت :

– هل رأيت جيمس ؟

– نعم انه مستيقظ . هل تريد مزيداً من الشاي ؟

وربطت حبل غسيل قصيراً فوق رف المدفأة لتنشر عليه ملابسها الداخلية وقد راقبتها بمتعة . ثم وضعت قفازاً مطاطياً لتحمي يديها من التشويه والبلل . وراقني منظر ربة البيت ، قلت :

– أتظنين ان « جوان » تحب ان تنام مع الرجال الغرباء ؟

– انها واثقة بأنها لا تحب هذا .

– هل انت راضية عن الخليط البشري ؟

– لا . هم اغبياء . جماعة يتسلى الانسان بصحبتهم لمدة من الزمن ، ولكنني لا ارغب في ان احيا حياتهم .

– ولماذا تشاركيني هذه الغرفة ؟

– لأنك لست واحداً منهم .

ورنّ جرس التليفون فقالت :

- هذا التليفون اللعين لم يكفّ عن الرنين منذ الصباح .

ثم اندفعت لتجيب نداءه. وألقيت نظرة عبر النافذة. وتذكرت كل الأشياء السابقة التي حدثت لي خلال الأسبوعين الماضيين . وتأكدت من شيء واحـد . انا لا استطيع العيش ابداً طبقاً لمفهوم جيمس عن الحرية . انـا ارفضها . وإنني لسبب ما بورجوازي .

وعادت دورين الى الغرفة لتقول :

– شخص آخر يود ان يتكلم مع ريكي ، وكما تعلم فإن ريكي لا يريد أن يتكلم مع احد .

وقرع جرس الباب الخارجي وكان سير ريجنالد بروبتر يسأل عني ، فأدخلته دورين الغرفة ، وبسرعة ارتديت بنطالي حتى اظهر بمظهر لائق . وقد بادرني قائلاً :

– صباح الخير يا هاري ، هل عاد ريكي ؟

– نعم لقد عاد ، وكما علمت فهو في حالة هياج عنيف .

وقدمت إليه دورين فنجاناً من الشاي . فقال وهو ينظر إليها :

– ليته لا يعقّد الامور حتى أستطيع مساعدته .

– يؤسفني ان أقول إنه لا يعتقد أنك تساعده فيما قمت به !

وبقدر المستطاع اخبرته بإيجاز وجهة نظر ريكي . وعندها قال :

– أنا اؤمن بأنه على حق، فمقالات النقاد قد تضايقه . ولكنها ليست هجومية ومهما يكن الأمر فلوحاته جد رائعة ، ولو مات في الغد لكتبت الصحف بأنه عبقري خسرته البلاد . أرى من الأفضل ان اذهب وأتحدث معه .

وأسرعت دورين قائلة :

– أعتقد أنه هو .. قال إنه لا يريد رؤية أحد .

– هل يمكنك التحدث معه يا هاري ؟

– يمكنني ذلك . ولكنني لست واثقاً من انه على صواب .

قال ريجنالد :

قد يكون على صواب ، ولقد فات الأوان الآن ، والمشكلة بكل بساطة هي ان يتعاون معنا .

ولم انطق بحرف واحد . وحدقت في طعام الفطور الذي أعدته دورين لي وهزّ ريجنالد كتفيه وهو يقول :

– سنترك المشكلة لوقت آخر . وما عن العمل الذي تريده أنت ؟

أجبت بدهشة :

– عمل ؟!

انها تبدو كلمة غريبة كئيبة في هذا البيت .

وتابعت قائلا :

– آه فهمت ، تعني المبلغ الذي دفعته إليّ مقدماً ؟

– هاري . لقد اشتريت داراً صغيرة للنشر . وفكرت فيك لتعمل معي ، فهل تود العمل ؟

– ماذا سأعمل ؟ لا أدري شيئاً عن نوعية العمل .

– لن تعمل كثيراً في البداية ، خطتي أن اقوم بنشر بعض الكتب الدينية والفلسفية . وقد أساعد موهوباً في شق طريقه فأنشر له كتابه . وهـذا العمل لن يأخذ وقتك كله ، عليك أن تقرأ المخطوطات التي تصلنا فتقول رأيك فيها ، لنقل بأنك ستعمل ثلاثة أيام في الاسبوع .

ولم أصدق هذه الهبة الحقيقية ، فحاولت اخفاء شعوري وتشوقي ، وقلت بحذر : إنه لعمل رائع . متى أبدأ ؟

– من الأفضل ان تأتي غداً لرؤيتي ، فأنا استعمل غرفة في منزلي كمكتب . التقت عيناي بعيني دورين الفرحة لأخبار العمل . قالت وهي تغادر الغرفة :

– هاري ، لماذا لا تذهب وتحدث ريكي ؟

– آ . أعتقد ان بوسعي ذلك .

قال ريجنالد :

– حاول أن تعمل شيئاً .

وهل أستطيع رفضاً في ظروف كهذه ؟ واتخذت طريقي الى غرفة ريكي المغلقة ، وجلجل صوته من الداخل :

– من هذا ؟ إنني أعمل .

– أنا هاري .

وشق الباب وقال :

– آه عظيم . ادخل يا هاري .

ثم أغلق الباب ثانية وتابع حديثه :

– قل لي ماذا يحدث في الطابق الأرضي ؟

– ما زال الناس يقرعون الأجراس ليتحدثوا اليك . ألم تر أحداً منهم ؟

– أعرف كل هذا ، تصور ! لقد وصلتني بعض الرسائل من أناس لم أرهم في

حياتي ، مخابرات من آخرين ، وجماعات على استعداد لإقامة معارض فنية لي .
وقعد على سريره يرشف « الجلوكوز » من كأس ضخمة كعادته حين يرسم .
قلت :
– إن ريجنالد في الطابق الارضي .
– أرجو ان تكون قد اخبرته بأنني أريد تمزيق أحشائه العفنة .
– اظن انه عرف ذلك بنفسه . ومع هذا فهو يود رؤيتك .
– لا فائدة يا هاري ، فلن أراه ، لا أستطيع رؤية إنسان في هذا الصباح .
– طيب ، لماذا سألت عني ؟
– آ . تذكرت . ان لديّ فكرة أود عرضها عليك . لقد أخبرت أم ميلاني بأنني سأغادر هـذا المكان فأقلقها ذلك . إذ انها تعتمَد عليّ في هذا البيت ، وتريد أن تجد شخصاً آخر يوثق به كي يمنع السكان من احراق درجات السلم . أو تمزيق الألواح الخشبية في البيت ، وقد اقترحت ان تعتمد عليك ، فما رأيك؟
– لا مانع لدي ، ولكن أين ستذهب أنت ؟
وبانت على وجهه علامات لا اهتمام فيما سيحدث له . وأخيراً قال :
– إلى أي مكان استطيع فيه الرسم بأمان .
– إلا يمكنك أن تحصن نفسك في هذا المكان ؟
حدّق في طويلاً وهتف بفرح :
– إنك على حق .
وفتح الباب واندفع إلى قرص الدرج ثم قال :
– إذا كان بإمكاني إقامة باب على السلم وتغطيته بلوح خشبي آ . عفواً تغطية هذا القسم بألواح خشبية ...
وضع يديه في جيبه باحثاً عن شيء . وقال :
– المعضلة انني أحتاج إلى عشرين جنيهاً للقيام بهذه العملية ، وأنا لا أملك هذا المبلغ .
قلت :
– خذها من ريجنالد بروبتر فالذنب ذنبه .
– هذه فكرة رائعة ، ولماذا يمتنع عن الدخول ؟ أين هو الآن ؟

– إنه في غرفتي . هل أذهب وأسأله ؟
– دعه يأتي إلى هنا ، ولكن عليك قبل كل شيء أن تعرف إذا كان يحمل نقوداً أم لا ؟
وقفزت إلى غرفتي فرحاً بهذه النتيجة البسيطة ، وكان ريجنالد ينظر بكآبة من النافذة ، وكانت دورين تصلح من شأن الأغطية على السرير .
وسألني :
– هل وفقت ؟
– أعتقد ذلك .
ثم شرحت له فكرة ريكي .
– حسناً . فهذه بسيطة للغاية ، ولكن هل أنت واثق من أنه يريد رؤيتي؟
– لقد قال ذلك .
لقد فهمت ما الذي طرأ على عقل ريجنالد حين سألني عن ريكي الضخم العملاق . فأنا أعتقد انه خاف منه . وكان ريكي يدمدم بكلمات لا مفهومة ، ويقيس السلم بمسطرة يمكن طيها . وقال لريجنالد دون أن ينظر اليه :
– انك نوع كريم من الحشرات اللعينة ، أليس كذلك ؟
– إنني آسف ، ولكنك تعرف ما الذي دفعني إلى القيام بذلك دون استشارتك !
– لا بأس . أغلقت القضية الآن ، الا زلت راغباً في شراء احدى لوحاتي ؟
– بالتأكيد .
– هذا جميل . فأنا سأحول هذا المكان إلى حصن منيع . وسأبني باباً على السلم ، وإذا لم يجد ذلك فتيلا فسأضع مصيدة وأربط حيوانين مفترسين جائعين بدرابزين السلم . ولكن قل لي هل تحمل نقوداً معك ؟
أخذ ريجنالد بعض الأوراق النقدية من محفظته ثم قال :
– ما هو المبلغ الذي تريده ؟
– ما يقرب من خمسة وعشرين جنيهاً في الوقت الحاضر .
وخطف ريكي النقود وقال له :
– أنظر إلى لوحاتي وخذ ما يناسبك . تعال يا هاري .

هكذا كان ريكي إذا اقتنع بفكرة وضعها تحت التنفيذ. وقد اشترينا عدداً كبيراً من الألواح الخشبية الضخمة. ولوحاً خشبياً عريضاً جداً للباب، ثم عدنا إلى صديقي القديم بائع الأقفال، لنستعيد عربته وحملناها إلى البيت، وقد استنفدت هذه العملية معظم الصباح.

وألقينا الأشياء المبعثرة في وسط الغرفة إلى الزوايا ثم بدأنا عملية النشر والتسمير، وحتى ريجنالد قدم إلينا المساعدة، فكان عمله يتلخص في حمل الدعائم الخشبية حين تثبيتها بالمسامير. وأقمنا ألواحاً خشبية متينة على طول السلم، ثم وصلنا الباب بها، وتركت ريكي ليضع القفل في الباب وذهبت لأتناول طعامي. وعندما رجعت كان ريكي قد أتم عمله. ولن يستطيع احد الوصول الى الطابق الثاني إلا بتحطيم الباب او بتسلق الأخشاب المحيطة بالدرابزين، ومعنى هذا كسر العنق والموت المؤكد. وقد اعطاني ريكي مفتاحاً إضافياً وقال:

– سنحتاج الى هذا المفتاح لنصل إلى غرفتك.

وكان يقصد بذلك المرحاض الذي استأجرته كغرفة.

وسألت:

– هل ذهب ريجنالد بروبتر؟

– نعم بعد ان اشترى لوحة «سقوط الحضارة» بخمسة وسبعين جنيهاً، وقد دفع لي شكاً بباقي المبلغ. قل لدورين ان تأتي الى الطابق العلوي لنشرب معاً.

ودخلنا ثلاثتنا قلعته الجديدة المحصنة بقفلين ضخمين. وعندما صرنا في الداخل لم استطع رؤية الطرف الآخر من البيت، إذ انه اقام حاجزاً كبيراً حول قرص السلم. وفتح ريكي زجاجة من الخمرة وقال فرحاً:

– نخب العزلة!

وشربنا جميعاً. وقالت دورين:

– لقد سأل عنك اكثر من عشرة أشخاص فقلت بأنك قد خرجت ولا أعرف متى ستعود.

– انك فتاة طيبة. أنا دوماً في الخارج منذ هذه اللحظة. والحقيقة انني لم اعد اعيش هنا.

وملأت كأساً ثانية. فشعرت بتأجج في عروقي. ولم يكن هذا التأجج إلا

عقدة تنشأ عن زهو يومي بالاكتفاء . تأجج ينبع من النفس عندما تنجز شيئاً ، وتكتشف شيئاً حقيقياً دائماً كان هروب ريكي وانعزاله عن الناس جميعاً وقبوله صداقتي وصداقة دورين مصدر اطراء لي . وحلق بي غروري بعيداً . فإن دورين لم تصل الى هذا لو لم ترني وتقابلني وتعش معي . ولا أدري كيف تنبأت بحزم وأنا هناك بينهما ، بأن هذين الشخصين سيحتلان مكانة دائمة في حياتي . ولم يأت هذا عن التأجج المستعر نحو الزمالة . ولم يكن حلماً أيضاً بل كان كمن اكتشف شيئاً قابعاً في قرارة النفس . والالفة العجيبة التي سيطرت على الموقف جعلني كأنما نظرت إليه مئات المرات في المستقبل .

وعندما ملأنا الكؤوس للمرة الثالثة سمعنا جرس الباب يُقرع مرتين . وهذه الإشارة كانت تعني بأن الطارق يريد التحدث مع ريكي . وتجاهلنا الأمر . ولكن الرنين استمر بطريقة خجول وملحاح في آن واحد . واتجهت الى النافذة ونظرت الى الأسفل ثم قلت :

– فتاة تضع قبعة خضراء وترتدي معطفاً طحينياً .

شهقت دورين وقالت :

– يا للشيطان . نسيت ان اخبرك بأن فتاة تدعى بربارة اتصلت هاتفياً لتقول بأنها قادمة ظهر اليوم لتراك ، وأظنها ذات القبعة الخضراء .

– بربارة ؟ انا لا أعرف احداً بهذا الاسم . قل لها انني لست هنا .

– لقد ذكرت لي اسماً اظنه سيليا ، وقالت بأنها حدثتك عنها لتعمل عندك كموديل .

ولطم ريكي رأسه براحة يده القوية ثم قال :

– يا إلهي ! لقد تذكرت الآن ، إنها الفتاة الصغيرة التي تعمل كسكرتيرة لأخت زوج سيليا . ومن الأفضل أن ندعوها للدخول .

وخرجت دورين لتفتح لها الباب .

ونظر إليّ ريكي وعلى وجهه علامات الهزيمة والاستسلام . ثم تنفس بصعوبة وهو يقول :

– عدنا الى حياتنا الأولى يا هاري .

للمؤلــف : كولن ولسون

من منشورات دار الآداب

□ الشــك	(رواية)
□ طقوس في الظلام	»
□ الحـالم	»
□ الــه المتاهــه	»
□ سقوط الحضارة	(دراسة)
□ اللامنتمي	»
□ ما بعد اللامنتمي	»
□ اصول الدافع الجنسي	»
□ المعقول واللامعقول في الادب الحديث	»
□ الشعر والصوفية	»
□ الانسان وقواه الخفية	»
□ رحلة نحو البداية	»